شرح فتوح الغيب

تأليف

... عبد القادر الجيلاني

[illegible]

[illegible]

مؤسسة الشرف

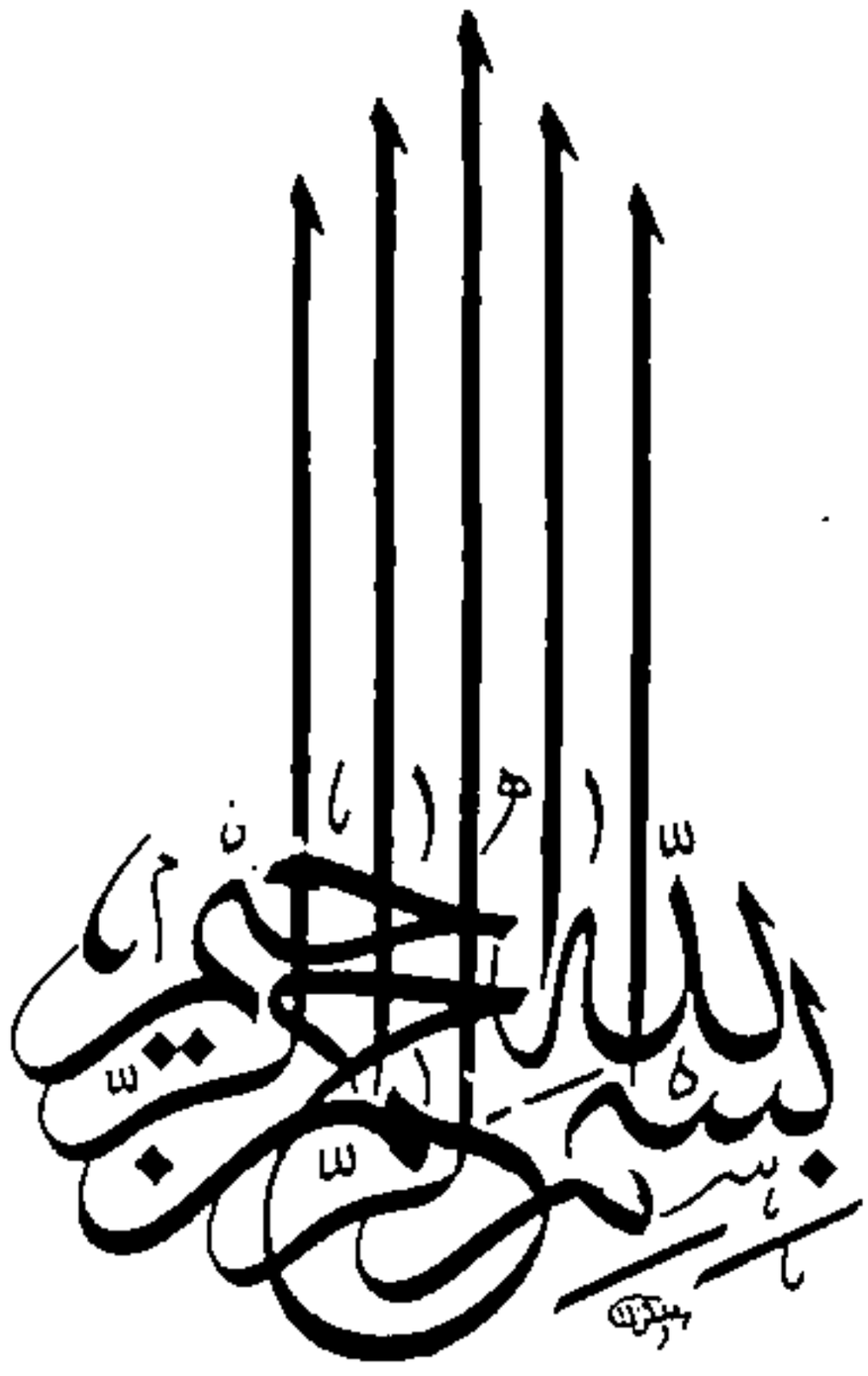

Marfat.com

شرح حرف حتى والغيب

Marfat.com

شرح فتوح الغيب

صنّفه

العارف الربّاني والمحبوب السبحاني السيّد عبد القادر الجيلاني رحمه الله تعالى

الشرح : للعلامة تقي الدين أحمد بن تيمية الحرّاني

تقديم : فضيلة الشيخ محمّد عبد الحكيم شرف القادري دام الله بقاءه

مؤسسة الشرف
لاهور باكستان

Marfat.com

Maktaba Razvia

Data Darbar Markeet, Lahore Pakistan Ph:7226193

Idara-i-Tahqeeqat-e-Imam Ahmad Raza

25,Japan mansion,Regal karachi Pakistan Ph:7771219

بسم اللہ الرحمن الرحیم

الحمدلله الذى هدانالللايمان و ما كنا لنهتدى لو لا أن هدانا الله و الصلاة و السلام على سيد الخلق و أشرف المرسلين و على آله و أصحابه أجمعين۔

أما بعد فهذا شرح لبعض كلمات فتوح الغيب للعارف الربانى و المحبوب السبحانى السيد الإمام عبدالقادر الجيلانى رحمه الله تعالىٰ و قد تصدى لشرحه الشيخ ابن تيمية الحرانى و يمكن أن يستغرب كثير من الناس كيف يشرح ابن تيمية كتابا من أشهر كتب التصوف و هو يعد من أكبر أعدائه و عند ما نطالع فتوح الغيب و شرحه يزول هذا الاستغراب ، فان التصوف هو جوهر الإسلام و مخه كما بينه الإمام الجيلى رضى الله تعالىٰ عنه فى هذا الكتاب و الفتح الربانى ، و لاينكره الشيخ ابن تيمية و لا أشياعه ـ رغم أن الإمام الجيلى حنبلى مذهبا و الشيخ ابن تيمية أيضا يُعدّ من الحنابلة .

وههنا نستلفت القراء الكرام والذين هم من اتباع العلامة ابن تيمية ومحبيه الىٰ حقيقة هامة وهى أنه لا ينبغى لنا أن نرفض التصوف رأسا كما هو عادة بعض أبناء الزمان بل نزنه فى ميزان الكتاب والسنة فما كان موافقا لهما فهوعلى الرأس والعين وما كان مخالفا للكتاب أو السنة فنبتعد منه وندعه، كما قال سيدالطائفة الجنيد البغدادى(علمنا هذا مشيد بالكتاب و السنة)

ويقول الشيخ ابن تيمية عن تمسك السادة الصوفية بالكتاب والسنة فى قسم (علم السلوك)من فتاواه مانصه:

والشيخ عبد القادر(الجيلانى رحمه الله تعالىٰ)ونحوه من مشائخ زمانهم أمروابالتزام الشرع والأمر والنهى، وتقديمه على الذوق و القدر،وهومن اعظم المشائخ امرا بترك الهوى، والإ رادة النفسية فأن الخطأ فى الإرادة من حيث هى إرادة إنما تقع من هذه الجهة فهو يأمرالسالك أ ن لاتكون له ارادة من جهته هوأ صلا،بل يريد ما يريد الرب عزوجل إماارادة شرعيةإن تبين له ذالك وإ لاجرى مع الارادة القدرية فهوإمامع الرب وإما مع خلقه، وهو سبحانه له الخلق والأمر، وهذه طريقة شرعية صحيحة۔ [١]

---

[١] :راجع: مجموع فتاوى الشيخ ابن تيمية:ج١٠ ص٤٨٩-٤٨٨ (وراجع الصوفية والتصوف للشيخ السيد يوسف السيد هاشم الرفاعى ص٢٦)

و الشيخ ابن تيمية من مشاهير تاريخ الإسلام فى مابين مادح وقادح،يقول الشيخ منصور محمد عويس مبعوث الأزهر الشريف إلى الجمهورية العربية الليبية و مدير معهد التوغار الثانوى طرابلس :

ابن تيمية الذى اختلف الباحثون فى أمره و تفرقوا فى شانه ' فهو فى نظر البعض :

الإمام و شيخ الإسلام ' كثير البحث فى فنون الحكمة' فصيح اللسان ' قلمه و لسانه متقاربان ' ناظر العلماء و برع فى العلم و التفسير و الفقه و الأصول ' و أفتى و درّس و هو دون العشرين ' هو الفقيه المحدث المقيم للسنة ' المحارب للبدعة ' السلفى المذهب ' فهو الجدير بأن تضفى عليه صفات المصلحين ' و نعوت المجددين و سمات المجتهدين ' و من عارضه فهو فى حزب الشيطان ـ

و هو فى نظر البعض الآخر :

هو الضال المضل المبتدع المنحرف ' الزائغ عن الدين المشوش على عقائد المسلمين

و إذا كان هذا شأن الرأيين فى ابن تيمية ' فإن النتيجة التى ألهمنى الله بها هى أن أقول فى هدوء لايصحبه ضجيج الألفاظ و لا جلبة الكلمات إن (ابن تيمية ليس سلفيا)(١)

و جدير بقارئ هذا الشرح أن يكون عارفا بما تفرد به الشيخ ابن تيمية عن جمهور علماء الأمة ' فإن تفرداته لاتنحصر فى مسألة أو مسألتين كما أنها لاتختص بالمسائل الفرعية بل يخالف جمهور أهل الإسلام فى مسائل اعتقادية و التى تتعلق بذات الله و صفاته و الأنبياء عليهم الصلاة و السلام و هذه مسائل لايمكن لمؤمن عالم أن يغمض عنها و قد خرق الإجماع فيها .

و تفصيل بعضها كالآتى على ما نقله الإمام المحدث أحمد بن حجر الهيتمى المكى رحمه الله تعالىٰ .

١ ..... إن ربنا- سبحانه و تعالىٰ عما يقول الظالمون و الجاحدون علوا كبيرا - محل الحوادث ـ تعالى الله عن ذلك و تقدس .

Marfat.com

٢ ..... إنـه –تـعـالـىٰ و تـقـدس – مركب تفتقر ذاته افتقار الكل للجزء – تعالى الله عن ذلك و تقدس .

٣ ..... إن القرآن محدث فى ذات الله – تعالى الله عن ذلك .

٤ ..... إن الـعـالـم قـديـم بـالنوع و لم يزل مع الله مخلوقا دائما ' فجعله موجبا بالذات لا فاعلا بالاختيار – تعالىٰ الله عن ذلك .

٥ ..... هـو قـائل بالجسمية و الجهة و الانتقال و أنه بقدر العرش لا أصغر و لا أكبر– تعالىٰ الله عن هذا الافتراء الشنيع القبيح و الكفر البراح الصريح و خذل متبعيه و شتت شمل معتقديه .

٦ ..... إن النار تفنى .

٧ ..... إن الأنبياء غير معصومين .

٨ ..... إن رسول الله صلى الله عليه و سلم لا جاه له و لايتوسل به .

٩ ..... ان إنشـاء السـفـر إليـه بسبب الزيارة مـعـصية لاتـقـصـر الصلوة فيه –و سيحرم ذلك يوم الحاجة ماسة إلى شفاعته .

١٠ ..... إن التوراة و الإنجيل لم تبدل ألفاظهما و إنما بدلت معانيها .

و قال بعضهم : و مـن نظر إلى كتبه لم ينسب إليه أكثر هذه المسائل غير أنه قائل بالجهة و له فى إثباتها جزء و يلزم أهل هذا المذهب الجسمية و المحاذاة و الاستقرار أى فلعله فى بعض الأحيان كان يصرح بتلك اللوازم فنسبت إليه سيما و من نسب إليه ذلك من أئمة الإسلام المتفق على جلالته و إمامته و ديانته ..... فلايقول شيئا إلا عن تثبت .

و هكذا خرج عن الإجماع فى المسائل الآتية :

١١ ..... قـولـه فـى عـلـىّ الـطـلاق أنه لايقع عليه بل عليه كفارة يمين و لم يقل بالكفارة أحد من المسلمين قبله .

١٢ ..... إن طلاق الحائض لايقع .

١٣ ..... و كذا الطلاق فى طهر جامع فيه ﴿لايقع﴾ .

١٤ ..... إن الطلاق الثلاث يرد إلى واحدة و كان هو قبل ادعائه ذلك نقل إجماع المسلمين على خلافه

Marfat.com

١٥ ..... إن الصلاة إذا تركت عمدا لايجب قضائها .

١٦ ..... إن الحائض يباح لها الطواف بالبيت و لاكفارة عليها .

١٧ ..... وإن المكوس حلال لمن أقطعها .

١٨ ..... و إنها إذا أخذت من التجار أجزأتهم من الزكاة و إن لم تكن باسم الزكاة و لارسمها .

١٩ ..... إن المائعات لاتنجس بموت حيوان فيها كالفأرة .

٢٠ ..... إن الجنب يصلي تطوعه بالليل و لايؤخره إلى أن يغتسل قبل الفجر و إن كان بالبلد .

٢١ ..... و إن شرط الواقف غير معتبر بل لو وقف على الشافعية صرف إلى الحنفية و بالعكس و على القضاة صرف إلى الصوفية .

٢٢ .....إن مخالف الإجماع لايكفر و لايفسق(١)

نسأل الله تعالىٰ أن يعصمنا عن الخطأ و الزيغ و الزلل و أن يحفظنا من اتباع غير سبيل المؤمنين اللّٰهم اهدنا الصراط المستقيم صراط الذين أنعمت عليهم غير المغضوب عليهم و لا الضالين۔

و كتبه :

محمد عبدالحكيم شرف القادرى ۔بلاهور باكستان

0092-42- 5434721

٧ رمضان المبارك ١٤٢٤ھ

١١ نوفمبر ٢٠٠٣م

١۔ أحمد بن حجر الهيتمى المكى ' الإمام : الفتاوى الحديثية : ص ١٠٠

Marfat.com

بسم الله الرحمن الرحيم

تقديم:

الحمد لله والصلاة والسلام على محمد رسول الله وعلى آله وصحبه ومن والاه.

أما بعد فقد يستغرب الكثيرون كيف يشرح شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى وهو المعروف بين العامة بعدائه للتصوف والصوفية كتاباً من أشهر كتب التصوف لإمام من أعلام وأقطاب الصوفية ألا وهو الإمام الربانى عبد القادر الجيلاني، لكننا إذا عرفنا حقيقة التصوف وجوهره وحقيقة السلفية وجوهرها زال العجب والاستغراب.

إذ إن التصوف في جوهره إنما هو ترويض النفس على طاعة الله ظاهراً بالجوارح وباطناً بالجوانح، حتى تتذوق حلاوة الإيمان والعبادة، وحينئذ يشق عليها ترك العبادة، أو التهاون فيها، بعد أن كانت تشق عليها العبادة نفسها، ولا شك أن هذه المجاهدة للنفس هى جوهر الإسلام، فلافائدة من المعرفة إذا لم تتحول إلى عمل وإلى طبيعة وسجية في الإنسان المسلم. وهذا ما يهدف إليه التصوف.

أما السلفية فهى تعنى الالتزام الكامل في أمور الدين علماً وعملاً بما كان عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم وصحابته الكرام من زهد وورع وتقوى وطاعة ومجاهدة للنفس وللهوى، والوقوف عند حدود الله تعالى، والانتصار لدينه الخ.

فالسلفية في جانبها العملي هي التصوف بعينه، لذلك لا نستغرب إذا وجدنا كبار الصحابة والتابعين وأعلام السلف في الطبقات الأولى للمتصوفة كما صنع ابو نعيم في «حلية الأولياء».

مما سبق نجد أن الإمام عبد القادر الجيلاني سلفى بكل معنى الكلمة وصوفي بكل معنى الكلمة وكذلك الإمام شيخ الإسلام ابن تيمية.

إذن أين المشكلة ولماذا اشتهر ابن تيمية بعدائه للصوفية والتصوف؟

Marfat.com

إن ابن تيمية يفضل استعمال المصطلحات الإسلامية العريقة، ولايحبذ استعمال مصطلح يشترك فيه المسلمون مع غيرهم، وليس له مدلول دقيق على محتواه، لذلك هو يفضل أن يسمى التصوف السلوك، وكلمة السلوك ليست غريبة عن الصوفية، فهي كلمة شائعة في كتبهم وعلى ألسنتهم، وعلى كل الخلاف في هذا ليس له كبير شأن، إذ هو اختلاف حول المصطلح.

وكذلك ابن تيمية لا يقبل من المتصوفة الخروج عن مظلة الشريعة الإسلامية لا في الأقوال ولا في الأفعال، فهو يحارب انحرافات بعض الصوفية، القائلين بوحدة الوجود والاتحاد، ورفع التكليف، وغير ذلك من المخرقات والبدع، التي اقحمت على الدين باسم التصوف.

وهنا نجد ابن تيمية وأئمة الصوفية كالجنيد البغدادي والجيلاني وغيرهما في صف واحد في الدفاع عن الشريعة وعن التصوف معاً ومحاربة أدعياء التصوف الذين أساؤوا إلى الشريعة وإلى التصوف سواءً بسواء.

* * *

أما الشطح الصوفي فإن كان صدر عن صاحبه وهو في حال ذهول، فإن الله عز وجل لا يؤاخذه على ألفاظه، وإنما على ما وقر في قلبه، والدليل على ذلك حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم عن التوبة عندما قال الأعرابي: «اللهم أنت عبدي وأنا ربك، اخطأ من شدة الفرح»، فالشطح خطأ مردود على صاحبه، لايحتاج لتأويل ولا لتفسير ولا يؤاخذ صاحبه عما بدر منه إن كان قاله وهو في حال الذهول.

بقيت كلمة في أدعياء السلفية أيضاً:

كما أن في المتصوفة أدعياء لا يبالون بالشريعة ولا بالسنة إنما ديدنهم أذواقهم ومواجيدهم فتراهم يشرّقون ويغرّبون دون ضابط أو رادع من كتاب الله أو سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم. كذلك هنالك في السلفيين أدعياء كل همهم الترصد للناس بالزجر والإنكار وينسون في غضون ذلك انفسهم: وهؤلاء يقال لهم:

Marfat.com

التزموا بالسنة قولاً وعملاً ظاهراً وباطناً، واقتدوا بالسلف الصالح في زهده وورعه، وتقواه وجهاده ومحاسبته للنفس تجدون الناس يقتدون بكم دون أن تقولوا كلمة واحدة فلسان الحال أبلغ من لسان المقال.

وبعد فهذا هو كتاب «فتوح الغيب» بشرح شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى وقد اعتمدت في ضبط «فتوح الغيب» على نسختين:

الأولى مطبوعة في استانبول في ١٢ ربيع الآخر سنة ١٢٨١هـ.

والثانية: مطبوعة في مصر في مطبعة مصطفى البابي الحلبي.

أما الشرح فقد اعتمدت فيه على ثلاثة طبعات:

الأولى: الموجودة في مجموع الفتاوى المطبوعة في الرياض (المجلد العاشر).

والثانية: التي نشرها الدكتور محمد رشاد سالم رحمه الله تعالى ضمن مجموعة الرسائل.

والثالثة: المطبوعة في مطبعة المثنى ببغداد.

هذا ولم أتمكن في هذه الطبعة من تخريج أحاديث الكتاب وعسى أن يكون ذلك في طبعة قادمة إن شاء الله تعالى،

وأحب أن أنبه إلى أن أغلب كتب التصوف مشحونة بالأحاديث الضعيفة والموضوعة فعلى من يقرأها أن يكون على ذُكر من هذا الأمر.

قال أبو العباس القرطبي في «المفهم»: سبب ذلك أن أهل الخير هؤلاء غلبت عليهم العبادة، فاشتغلوا بها عن الرواية، فنسوا الحديث ثم إنهم تعرضوا للحديث فغلطوا.

وفي الختام أسأل الله تعالى أن يجمع كلمة المسلمين على الحق والتقوى وأن يجنبهم مضلات الفتن ما ظهر منها وما بطن، إنه نعم المسؤول والحمد لله رب العالمين.

دمشق ١٤١٥/٤/٢٢

١٩٩٤/٩/٢٧

حسن السماحي سويدان

Marfat.com

ترجمة الإمام الرباني عبد القادر الجيلاني

(٤٧١ - ٥٦١هـ - ١٠٧٨ - ١١٦٦م)

عبد القادر بن موسى بن عبد الله بن جنكي دوست أبو محمد، محي الدين الگيلاني من كبار الزهاد والمتصوفين، تنسب إليه الطريقة القادرية.

ولد في گيلان وراء طبرستان، وانتقل إلى بغداد شابا سنة (٤٨٨)هـ فاتصل بشيوخ العلم والتصوف، وبرع في اساليب الوعظ، وتفقه عل مذهب الإمام احمد ابن حنبل، وسمع الحديث، وقرأ الأدب، واشتهر.

درّس بمدرسة شيخه المخرّمي فتكلم بلسان الوعظ، وظهر له صيت بالزهد وضاقت المدرسة بالناس، وكان يجلس عند سور بغداد مستنداً إلى الرباط ويتوب عنده في المجلس خلق كثير، كما كان يدرّس الفقه على المذهب الحنبلي.

كان يأكل من عمل يده، وتصدر للتدريس والافتاء في بغداد سنة (٥٢٨)هـ فأقبل عليه الناس، وأتته الدنيا راغمة، وخضع له الخلفاء والوزراء والكبراء، وحصل له القبول التام، واشتهرت أحواله وأقواله وكراماته ومكاشفاته وهابه الملوك فمن دونهم.

حليته: قال الشيخ موفق الدين المقدسي صاحب «المغني» وهو آخر من قرأ عليه الفقه، قرأ عليه «مختصر الخرقي»: كان شيخنا عبد القادر نحيف البدن، ربع القامة، عريض الصدر واللحية طويلها، أسمر، مقرون الحاجبين، ذا صوت جَهْوَري وسمت وقدر وعلم.

قال الحافظ البرزالي في شمائله: كان مجاب الدعوة، سريع الدمعة، دائم الذكر، كثير الفكر، رقيق القلب، دائم البر، كريم النفس، سخي اليد، غزير العبادة، شريف الأخلاق طيب الأعراق مع قدم راسخ في العبادة والاجتهاد.

ومع جلالة قدره كان يقف مع الصغير والجارية، ويجالس الفقراء، ولا يقوم لأحد من العظماء وأعيان الدولة، ولا يلم بباب وزير ولا سلطان.

هـ

Marfat.com

مؤلفاته كثيرة منها:

١ ـ «الغنية لطالب طريق الحق» طبعت في بولاق بمصر.

٢ ـ «الفتح الرباني» طبع في بولاق.

٣ ـ «فتوح الغيب» طبع في استانبول ومصر وهو هذا الكتاب وقد ألفت عنه كتب كثيرة آخرها «الشيخ عبد القادر الجيلاني» الإمام الزاهد القدوة» للدكتور الطبيب عبد الرزاق الكيلاني من سلسلة أعلام المسلمين رقم (٤٥) عام ١٩٩٤.

توفي الشيخ عبد القادر ببغداد وقبره فيها معروف ومشهور، رضي الله عنه ونفع المسلمين بآثاره.

ترجمة شيخ الاسلام

تقي الدين أبي العباس أحمد بن عبد الحليم الحراني ثم الدمشقي

(٦٦١ ـ ٧٢٨هـ ـ ١٢٦٣ ـ ١٣٢٨م)

الإمام شيخ الإسلام المحدث المفسر الفقيه المتكلم الأصولي المتصوف العالم العامل، إمام الحنابلة في عصره.

ولد في حران، وتحول به أبوه إلى دمشق فنبغ واشتهر، كان كثير البحث داعياً إلى السنة ومحاربة البدع، فصيح اللسان، لسانه وقلمه متقاربان. جاهد بلسانه، وحارب التتار بسيفه.

قال الحافظ ابن حجر في «الدرر الكامنة» (١ : ١٤٤): ناظر العلماء واستدل وبرع في العلم والتفسير، وأفتى ودرّس وهو دون العشرين، تصانيفه تبلغ ثلاث مئة مجلد.

توفي بدمشق ودفن بها وقبره في حديقة دار التوليد الجديدة قرب جامعة دمشق القديمة.

انظر ترجمته في «العقود الدرية» لابن عبد الهادي المقدسي و«شيخ الإسلام ابن تيمية» للعلامة أبي الحسن الندوي.

Marfat.com

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله ربِّ العالمين أولاً وآخراً، وظاهراً وباطناً، عدد خلقه، ومداد كلماته، وزنة عرشه، ورضاء نفسه، وعدد كل شفع ووتر، ورطب ويابس في كتاب مبين، وجميع ما خلق ربّنا وذرأ وبرأ، خالقٌ بلامثال أبداً، سرمداً طيباً مباركاً، الذي خلق فسوّى، وقدّر فهدى. وأمات وأحيا، وأضحك وأبكى، وقرّب وأدنى، ورحم وأخزى، وأطعم وأسقى، وأسعد وأشقى، الذي بكلمته قامت السبع الشداد، وبها رست الرواسي والأوتاد، واستقرّت الأرض المهاد، فلا مقنوطاً من رحمته، ولا مأموناً من مكره وغيرته، وإنفاذ أقضيته، وفعله وأمره، ولا مستنكفاً عن عبادته، ولا مخلواً من نعمته، فهو المحمود بما أعطى، والمشكور بما زوى.

ثم الصلاة على نبيه المصطفى ﷺ، الذي من اتبع ما جاء به اهتدى، ومن صدف عنه ضل وتردّى، النبي الصادق المصدوق، الزاهد في الدنيا، الطالب الراغب في الرفيق الأعلى، المجتبى من خلقه، المنتخب من بريته، الذي جاء الحق بمحبته، وزهق الباطل بظهوره، وأشرقت الأرض بنوره.

ثم الصلوات الوافيات، والبركات الطيبات، الزاكيات المباركات عليه ثانياً وعلى آله الطيبين، وأصحابه والتابعين لهم بإحسان، الأحسنين لربّهم فعلاً، الأقومين له قيلاً، والأصوبين إليه طريقاً وسبيلاً.

ثم تضرعنا ودعاؤنا ورجوعنا إلى ربنا ومنشئنا، وخالقنا ورازقنا، ومطعمنا ومسقينا، ونافعنا وحافظنا، وكالئنا ومحيينا، والذابّ والدافع عنّا جميع ما يؤذينا ويسوؤنا، كل ذلك برحمته وتحننه، وفضله ومنته: بالحفظ الدائم في الأقوال والأفعال، في السر والإعلان، والإظهار والكتمان، والشدة والرخاء، والنعمة والبأساء والضرّاء، إنّه فعال لما يريد، والحاكم بما يشاء، العالم بما يخفى، المطلع

Marfat.com

على الشؤون والأحوال، من الزلات والطاعات والقربات، السامع للأصوات، المجيب للدعوات لمن يشاء من غير تنازع وتردد.

أمّا بعد ـ فإنّ نعم الله عليّ كثيرة متوافرة، في آناء الليل وأطراف النهار والساعات، واللحظات والخطرات، وجميع الحالات، كما قال عزّ وجلّ ﴿وإنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ الله لا تُحْصُوْهَا﴾ [النحل: ١٨] وقوله تعالى: ﴿وَمابِكُمْ مِنْ نِعْمَةٍ فَمِنَ الله﴾ [النحل: ٥٣] فلا يدان لي ولا جنان ولا لسان في إحصائها وعدّها؛ فلا يدركها التعداد، ولا تضبطها العقول والأذهان، ولا يحصيها الجنان، ولا يعبرها اللسان. فمن جملة ما مكن من تعبيرها اللسان، وإظهارها الكلام، وكتبها البنان، وفسرّها البيان، كلماتٌ برزت وظهرت لي من «فتوح الغيب» فحلّت في الجنان، فأشغلت المكان، فأنتجها وأبرزها صدقُ الحال، فتولّى إبرازها لطف المنان، ورحمة رب الأنام في قالب صواب المقال، لمريدي الحق والطلاب.

هذا كتاب يشتمل على شرح كلمات رويت عن الشيخ الإمام العالم، الناسك الزاهد، عبدالقادر الكيلاني رحمه الله تعالى، في كتابه المعروف «بفتوح الغيب» وشرحها شيخ الإسلام، ومفتي الشام، الإمام العالم العامل، الزاهد الورع، تقي الدين أبو العباس أحمد، بن عبدالحليم، بن عبدالسلام، ابن تيمية الحرّاني، نفع الله به، وأثابه الجنة، وغفر له ولجميع المسلمين، آمين، ومتعه الله بالثناء الجميل، والعطاء الجزيل.

بسم الله الرحمن الرحيم توكلتُ على الله.

قال شيخنا الإمام العلامة شيخ الإسلام، أبو العباس أحمد، بن عبدالحليم، ابن عبدالسلام، العالم الربّاني، والعامل النوراني ابن تيميّة الحرّاني، رضي الله عنه وأرضاه.

الحمدُ لله نحمده، ونستعينه ونستهديه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور انفسنا، ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له. ونشهد انّ لا إله إلاّ الله وحده لا شريك له ونشهد ان محمداً عبده ورسوله صلى الله عليه وعلى آله وسلم تسليماً كثيراً.

Marfat.com

فيما لا بدّ لكل مؤمن [منه]

قال رضي الله عنه وارضاه:

لا بدّ لكل مؤمن في سائر أحواله من ثلاثة اشياء:

أمرٌ يَمْتَثِلُهُ.

ونهيٌ يجتنبه.

وقَدَرٌ يرضى به.

فأقل حال للمؤمن لايخلو فيها من أحد هذه الأشياء الثلاثة، فينبغي له ان يُلْزِم همَّها قلبَه، وليحدِّث بها نفسه، ويأخذ الجوارح بها في سائر أحواله(١).

---

(١) قلت: هذا كلام شريف جامع، يحتاج إليه كل أحدٍ وهو تفصيلٌ لما يحتاج إليه العبدُ، وهو مطابقٌ لقوله تعالى: ﴿إِنَّهُ مَنْ يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فإنَّ الله لاَ يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [يوسف: ٩٠]. ولقوله تعالى: ﴿وإنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا لا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئاً﴾ [آل عمران: ١٢٠]. ولقوله تعالى: ﴿وَإنْ تَصْبِرُوا وتَتَّقوا فإنَّ ذلكَ مِنْ عَزْمِ الأُمُور﴾ [آل عمران: ١٨٦]. فإنَّ التقوى تتضمن فعل المأمور وترك المحظور. والصبر يتضمن الصبر على المقدور. فالثلاثة ترجعُ إلى هذين الأصلين، والثلاثة في الحقيقة ترجع إلى امتثال الأمر، وهو طاعة الله ورسوله.

فحقيقة الأمر أنّ كل عبد محتاج في كل وقت إلى طاعة الله ورسوله، وهو أن يفعل في ذلك الوقت ما أُمِرَ به في ذلك الوقت. =

Marfat.com

. . . . . .

= وطاعة الله ورسوله هي عبادة الله التي خلق لها الجنّ والإنس. كما قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الجِنَّ والإِنْسَ إلاَّ لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦] وقال تعالى: ﴿وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ اليَقِينُ﴾ [الحجر: ٩٩] وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمْ الذي خَلَقَكُم والذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [البقرة: ٢١].

والرسل كلهم أمروا قومهم أن يعبدوا الله، ولا يشركوا به شيئاً. وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنا في كُلِّ أُمَّةٍ رسُولاً أنِ اعْبُدُوا الله واجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾ [النحل: ٣٦]، وقال تعالى: ﴿واسْئَلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِن رُسُلِنَا أَجَعَلْنَا من دُونِ الرَّحْمَنِ آلِهَةً يُعْبَدُونَ﴾ [الزخرف: ٤٥].

وإنّما كانت الثلاثة ترجع إلى امتثال الأمر، لأنّه في الوقت الذي يؤمر فيه بفعلٍ من الفرائض: كالصلوات الخمس والحج ونحو ذلك، يحتاج إلى فعل ذلك المأمور.

وفي الوقت الذي تحدث أسباب المعصية، يحتاج إلى الامتناع والكراهة والإمساك عن ذلك، وهذا فعل لما أُمر به في هذا الوقت، وأمّا من لم تخطر له المعصية ببال، فهذا لم يفعل شيئاً يؤجَرْ عليه، ولكن عدم ذنبه مستلزم لسلامته من عقوبة الذنب. والعدم المحض المستمر لا يُؤمر به، وإنّما يؤمر بأمرٍ يقدر عليه العبد، وذاك لا يكون إلاّ حادثاً: سواء كان إحداث إيجاد أمرٍ، أو إعدام أمرٍ.

وأمّا القدر الذي يرضى به، فإنّه ابُتليَ بالمرض أو الفقر أو الخوف، فهو مأمور بالصبر أمر إيجاب، ومأمور بالرضا: إمّا أمر إيجاب، وإمّا أمر استحباب، وللعلماء من أصحابنا وغيرهم في ذلك قولان. ونفس الصبر والرضا بالمصائب هو طاعة لله ورسوله، فهو من امتثال الأمر، وهو عبادة لله.

لكن هذه الثلاثة وإن دخلت في امتثال الأمر عند الإطلاق، فعند التفصيل والاقتران إمّا أن تُخصَّ بالذكر، وإمّا أن يُقال: يُراد بهذا ما لا يراد بهذا. كما في قوله: ﴿فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ﴾ [هود: ١٢٣] وقوله: ﴿فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلاةَ لِذِكْرِي﴾ [طه: ١٤] فإن هذا داخل في العبادة إذا أطلق اسم العبادة، وعند الاقتران إمّا أن =

Marfat.com

. . . . . .

يُقال: ذكر عموماً وخصوصاً، وإمّا أن يقال: ذِكْرُهُ خصوصاً يغني عن دخوله في العام.

ومثل هذا قوله تعالى: ﴿إيَّاكَ نَعْبُدُ وإيَّاكَ نَسْتَعينُ﴾ [الفاتحة: ٥]، وقوله: ﴿وَاذْكُرِ اسْمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلْ إلَيْهِ تَبْتِيلاً * رَبُّ المَشْرِقِ والمَغْرِبِ لاَ إلَهَ إلاَّ هُوَ فَاتَّخِذْهُ وكيلاً * واصْبِرْ عَلَى ما يَقُولونَ وَاهْجُرْهُمْ هَجْراً جَميلاً﴾ [المزمل: ٨ ـ ١٠]، وقد يُقال: لفظ «التبتل» لا يتناول هذه الأمور المعطوفة كما يتناولها لفظ العبادة والطاعة.

وبالجملة فرق بين ما يُؤمر به الإنسان ابتداء، وبين ما يُؤمر به عند حاجته إلى جلب المنفعة ودفع المضرة، أو عند حُبّ الشيء وبغضه.

وكلام الشيخ قدَّس الله روحه يدور على هذا القطب، وهو أن يفعل المأمور، ويترك المحظور، ويخلو فيما سواهما عن إرادة، لئلا يكون له مراد غير فعل ما أمره به ربّه، وما لم يُؤمر به العبد، بل فعله الرب عزّ وجلّ بلا واسطة العبد، أو فعله بالعبد بلا هوًى من العبد. فهذا هو القدر الذي عليه أن يرضى به.

وسيأتي من كلام الشيخ ما يبين مراده، وأن العبد في كل حال عليه أن يفعل ما أُمر به ويترك ما نهى عنه. وأمّا إذا لم يكن هو أمر العبد بشيء من ذلك، فما فعله الرب كان علينا التسليم فيما فعله، وهذه هي الحقيقة في كلام الشيخ وأمثاله.

وتفصيل الحقيقة الشرعية في هذا المقام أنّ هذا نوعان:

أحدهما: أن يكون العبد مأموراً فيما فعله الرب: إمّا بحب له وإعانه عليه، وإمّا ببغض له ودفع له.

والثاني: أن لا يكون العبد مأموراً بواحد منهما.

فالأول مثل البر والتقوى الذي يفعله غيره، فهو مأمور بحبه وإعانته عليه، كإعانة المجاهدين في سبيل الله على الجهاد، وإعانة سائر الفاعلين للحسنات على حسناتهم بحسب الإمكان، ومحبة ذلك والرضا به، وكذلك هو مأمور عند مصيبة الغير إمّا بنصر مظلوم، وإمّا بتعزية مصاب، وإمّا بإغناء فقير، ونحو ذلك.

وأمّا ما هو مأمور ببغضه ودفعه، فمثل ما إذا ظهر الكفر والفسوق والعصيان، فهو مأمور ببغض ذلك ودفعه، وإنكاره بحسب الإمكان. كما قال النبي ﷺ في

Marfat.com

. . . . . .

= الحديث الصحيح : «من رأى منكم منكراً فليغيره بيده، فإن لم يستطع فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلبه، وذلك أضعف الإيمان».

وأمّا ما لا يؤمر العبد فيه بواحد منهما، فمثل ما يظهر له من فعل الإنسان للمباحات التي لم يتبين له أنّه يُستعان بها على طاعة ولا معصية، فهذه لا يؤمر بحبها ولا ببغضها، وذلك مباحات نفسه المحضة، التي لم يقصد الاستعانة بها على طاعة ولا معصية، مع انّ هذا نقص منه؛ فإنّ الذي ينبغي انه لا يفعل من المباحات إلا ما يستعين به على الطاعة، ويقصد الاستعانة بها على الطاعة، فهذا سبيل المقرّبين السابقين، الذين تقرّبوا إلى الله بالنوافل بعد الفرائض، ولم يزل أحدهم يتقرب إليه بذلك حتى أحبّهُ، فكان سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به، ويده التي يبطش بها ورجله التي يمشي بها.

وأمّا من فعل المباحات مع الغفلة، أو فعل فضول المباح التي لا يُستعان بها على طاعة، مع أداء الفرائض واجتناب المحارم، باطناً وظاهراً، فهذا من المقتصدين أصحاب اليمين.

وبالجملة الأفعال التي يمكن دخولها تحت الأمر والنهي، لا تكون مستوية من كل وجه، بل إن فعلت على الوجه المحبوب كان وجودها خيراً للعبد، وإلّا كان تركها خيراً له وإن لم يعاقب عليها، ففضول المباح التي لا تعين على الطاعة، عدمها خير من وجودها إذا كان مع عدمها يشتغل بطاعة الله، فإنّها تكون شاغلة له عن ذلك. وأمّا إذا قُدّر انّها تشغله عمّا هو دونها، فهي خير له مما دونها، وإن شغلته عن معصية الله كانت رحمة في حقه. وإن كان اشتغاله بطاعة الله خيراً له من هذا وهذا.

وكذلك أفعال الغفلة والشهوة التي يمكن الاستعانة بها على الطاعة، كالنوم الذي يُقصد به الاستعانة على العبادة، والأكل والشرب واللباس والنكاح الذي يمكن الاستعانة به على العبادة، إذا لم يُقصد به ذلك كان نقصاً من العبد، وفوات حسنة وخير يحبه الله.

ففي «الصحيحين» عن النبي ﷺ أنّه قال لسعد: «إنّك لن تنفق نفقة تبتغي=

Marfat.com

. . . . . .

= بها وجه الله، إلاّ ازددت بها درجة ورفعة، حتى اللقمة في فيّ امرأتك». وقال في الحديث الصحيح: «نفقة المسلم على أهله يحتسبها صدقة».

فما لا يُحتاج إليه من المباحات، أو يُحتاج إليه ولم يصحبه إيمان يجعله حسنة، فعدمه خير من وجوده، إذا كان مع عدمه يشتغل بما هو خير منه. وقد قال النبي ﷺ: «في بضع أحدكم صدقة». قالوا: يارسول الله: أيأتي أحدنا شهوته، ويكون له فيها أجر؟ قال: «أرأيتم لو وضعها في الحرام أما كان عليه وزر؟». قالوا: بلى يارسول الله، قال: «فكذلك إذا وضعها في الحلال كان له بها أجر». «فلم تعتدون بالحرام ولا تعتدون بالحلال؟».

وذلك أنّ المؤمن عند شهوة النكاح يقصد أن يعدل عمّا حرَّمه الله إلى ما أباحه الله، ويقصد فعل المباح معتقداً أنّ الله أباحه، والله يحب أن يُؤخذ برخصه كما يكره أن تؤتى معصيته، كما روى ذلك الإمام أحمد في «المسند» ورواه غيره، ولهذا أحب القصر والفطر في السفر، فعدول المؤمن عن الرهبانية والتشديد، وتعذيب النفس الذي لا يحبه الله إلى ما يحبه الله من الرخصة: هو من الحسنات التي يثيبه الله عليها، وإن فعل مباحاً لما اقترن به من الاعتقاد والقصد اللذين كلاهما طاعة لله ورسوله، فـ «إنما الأعمال بالنيات وإنّما لكل امرىء ما نوى».

وأيضاً فالعبد مأمور بفعل ما يحتاج إليه من المباحات: هو مأمور بالأكل عند الجوع، والشرب عند العطش. ولهذا يجب على المضطر إلى الميْتة أن يأكل منها، ولو لم يأكل حتى مات كان مستوجباً للوعيد، كما هو قول جماهير العلماء من الأئمة الأربعة وغيرهم. وكذلك هو مأمور بالوطىء عند حاجته إليه، بل هو مأمور بنفس عقد النكاح إذا احتاج إليه وقدر عليه.

فقول النبي ﷺ: «في بضع أحدكم صدقة»، فإنّ المباضعة مأمور بها لحاجته وحاجة المرأة إلى ذلك، فإنّ قضاء حاجتها التي لا تنقضي إلا به بالوجه المباح صدقةٌ.

والسلوك سلوكان: سلوك الأبرار أهل اليمين، وهو أداء الواجبات وترك المحرمات باطناً وظاهراً. والثاني: سلوك المقرَّبين السابقين، وهو فعل الواجب =

Marfat.com

. . . . . .

والمستحب بحسب الإمكان، وترك المكروه والمحرم. كما قال النبي ﷺ: «إذا نهيتكم عن شيء فاجتنبوه، وإذا أمرتكم بأمر فأتوا منه ما استطعتم».

وكلام الشيوخ الكبار. كالشيخ عبدالقادر وغيره ـ يشير إلى هذا السلوك، ولهذا يأمرون بما هو مستحب غير واجب، وينهون عمَّا هو مكروه غير محرم، فإنَّهم يسلكون بالخاصة مسلك الخاصة، وبالعامة مسلك العامة.

وطريق الخاصة ـ طريق المقرَّبين ـ ألاَّ يفعل العبد إلاَّ ما أُمِرَ به، ولا يريد إلاَّ ما أمره الله ورسوله بإرادته، وهو ما يحبه الله ويرضاه، ويريده إراده دينية شرعية، وإلاَّ فالحوادث كلها مرادة له خلقاً وتكويناً، والوقوف مع الإرادة الخلقية القدرية مطلقاً غير مقدور عقلاً ولا مأمور شرعاً.

وذلك لأن من الحوادث ما يجب دفعه ولا تجوز إرادته، كمن أراد تكفير الرجل، أو تكفير أهله، أو الفجور به أو بأهله، أو أراد قتل النبي وهو قادر على دفعه، أو أراد إضلال الخلق وإفساد دينهم ودنياهم، فهذه الأمور يجب دفعها وكراهيتها، لا تجوز إرادتها.

وأمَّا الامتناع عقلاً، فلأن الإنسان مجبول على حب ما يلائمه وبغض ما ينافره، فهو عند الجوع يحب ما يقيته كالطعام، ولا يحب ما لا يقيته كالتراب، فلا يمكن أن تكون إرادته لهذين سواء، وكذلك يحب الإيمان والعمل الصالح الذي ينفعه، ويبغض الكفر والفسوق الذي يضره، بل يحب الله وعبادته وحده، ويبغض عبادة ما دونه.

كما قال الخليل عليه السلام: ﴿أفرأيْتُم ما كُنتمْ تعْبدُون * أنتُمْ وآبَاؤُكُمُ الأقْدَمونَ * فإنَّهُمْ عَدُوٌ لِي إلاَّ رَبَّ العالمينَ﴾ [الشعراء: ٧٥ ـ ٧٧].

وقال تعالى: ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ في إبْرَاهيم والذينَ مَعَهُ إذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إنَّا بُرءاءُ منكُمْ ومِمَّا تعبدُونَ من دون الله، كَفَرنا بكم، وبَدا بَيْنَنا وبَيْنَكمْ العَداوةُ والبَغْضاء أبداً حتَّى تُؤمنوا بالله وحْدَه﴾ [الممتحنة: ٤]. =

Marfat.com

فقد أمرنا الله أن نتأسى بإبراهيم والذين معه، إذ تبرأوا من المشركين ومما يعبدون من دون الله.

وقال الخليل عليه السلام: ﴿إنني براء مما تعبدون * إلا الذي فطرني فإنه سيهدين﴾ [الزخرف: ٢٦، ٢٧]، والبراءة ضد الولاية، وأصل البراءة البغض، وأصل الولاية الحب.

وهذا لأن حقيقة التوحيد أن لا تحب إلا الله، وتحب ما يحبه الله لله، فلا تحب إلا الله، ولا تبغض إلا الله. قال تعالى: ﴿ومن الناس من يتخذ من دون الله أنداداً يحبونهم كحب الله والذين آمنوا أشد حباً لله﴾ [البقرة: ١٦٥].

والفرق ثابت بين الحب لله والحب مع الله. فأهل التوحيد والإخلاص يحبون غير الله لله، والمشركون يحبون غير الله مع الله، كحب المشركين لآلهتهم، وحب النصارى للمسيح، وحب أهل الأهواء رؤوسهم.

فإذا عُرف أن العبد مفطور على حب ما ينفعه وبغض ما يضره، لم يمكن أن تستوي إرادته لجميع الحوادث فطرةً وخلقاً، ولا هو مأمور من جهة الشرع أن يكون مريداً لجميع الحوادث، بل قد أمره الله بإرادة أمور وكراهة أخرى.

والرسل صلوات الله عليهم وسلامه بعثوا بتكميل الفطرة وتقريرها، لا بتحويل الفطرة وتغييرها. وقد قال النبي ﷺ: «كل مولود يولد على الفطرة، فأبواه يهودانه وينصرانه ويمجسانه» قال تعالى: ﴿فأقم وجهك للدين حنيفاً فطرة الله التي فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله ذلك الدين القيم ولكن أكثر الناس لا يعلمون﴾ [الروم: ٣٠].

وفي الحديث الصحيح عن النبي ﷺ: «يقول الله تعالى: ﴿خلقت عبادي حنفاء فاجتالتهم الشياطين، وحرمت عليهم ما أحللت لهم، وأمرتهم أن يشركوا بي ما لم أنزل به سلطاناً﴾».

والحنيفية هي الاستقامة بإخلاص الدين لله، وذلك يتضمن حبه تعالى والذل له، لا يُشرك به شيء: لا في الحب ولا في الذل، فإن العبادة تتضمن غاية الحب بغاية

Marfat.com

. . . . . .

3

الذل، وذلك لا يستحقه إلاّ الله وحده، وكذلك الخشية والتقوى لله وحده، والتوكل على الله وحده.

والرسول يُطاع ويحب، فالحلال ما حلَّله والحرام ما حرَّمه، والدين ما شرعه. قال الله تعالى: ﴿وَمَن يُطِعِ اللهَ وَرَسُولَهُ وَيَخْشَى اللهَ وَيَتَّقْهِ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الفَائِزُونَ﴾ [النور: ٥٢] وقال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا مَا آتَاهُمُ اللهُ وَرَسُولُهُ وَقَالُوا حَسْبُنَا اللهُ سَيُؤْتِينَا اللهُ مِن فَضْلِهِ وَرَسُولُهُ إِنَّا إِلَى اللهِ رَاغِبُونَ﴾ [التوبة: ٥٩].

وهذا حقيقة دين الإسلام. والرسل بعثوا بذلك، كما قال تعالى: ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحاً وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلاَ تَتَفَرَّقُوا فِيهِ﴾ [الشورى: ١٣]، وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحاً إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ * وَإِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاتَّقُونِ﴾ [المؤمنون: ٥١ ـ ٥٢].

فهذا هو الأصل الذي يجب على كل أحد أن يعتصم به، فلا بد أن يكون مريداً محباً لما أمره الله بإرادته ومحبته، كراهاً مبغضاً لما أمره الله بكراهته وبغضه.

والناس في هذا الباب أربعة أنواع. أكملهم الذين يحبون ما أحبّه الله ورسوله، ويبغضون ما أبغضه الله ورسوله، فيريدون ما أمرهم الله ورسوله بإرادته، ويكرهون ما أمرهم الله ورسوله بكراهته، وليس عندهم حبٌ ولا بغضٌ لغير ذلك، فيامرون بما أمر الله ورسوله به ولا يأمرون بغير ذلك، وينهون عن ما نهى الله ورسوله، ولا ينهون عن غير ذلك.

وهذه حال الخليلَيْن أفضل البرية: محمد وإبراهيم صلى الله عليهما وسلم. وقد ثبت في الصحيح عن النبي ﷺ أنه قال: «إنّ الله اتخذني خليلاً كما اتخذ إبراهيم خليلاً».

وقال في الحديث الصحيح: «إنّي والله لا اعطي أحداً ولا امنع احداً، وإنّما أنا قاسمٌ اضع حيث أُمرت». =

Marfat.com

. . . . . .

= وذكر أنّ ربّه خيَّره بين أن يكون نبياً مَلِكاً، وبين أن يكون عبداً رسولاً، فاختار أن يكون عبداً رسولاً، فإنّ النبي الملك مثل داود وسليمان.

قال تعالى: ﴿هٰذا عَطَاؤُنَا فَامْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [صٓ: ٣٩]، قالوا: معناه أعط من شئت وامنع من شئت لا نحاسبك.

فالنبي الملك يُعطي بإرادته، ولا يُعاقب على ذلك كالذي يفعل المباحات بإرادته، وأمّا العبد الرسول فلايُعطي ولايمنع إلّا بأمر ربه، وهو محبته ورضاه وإرادته الدينية. والسابقون المقرَّبون أتباع العبد الرسول، والمقتصدون أهل اليمين أتباع النبي الملك.

وقد تكون للإنسان حال هو فيها خالٍ عن الإرادتين وهو أنه لا تكون له إرادة في عطاء ولا منع، ولا إرادة دينية هو مأمور بها، ولا إرادة نفسانية: سواء كان منهياً عنها أو غير منهي عنها، بل ماوقع كان مراداً له، ومهما فُعل به كان مراداً له، من غير أن يعرف المأمورَ به شرعاً في ذلك.

فهذا بمنزلة من له أموال يعطيها، وليس له إرادة في إعطاء معين: لا إرادة شرعية ولا إرادة مذمومة. بل يعطي كل أحد. فهذا إذا قُدِّر أنّه قام بما يجب عليه بحسب إمكانه، ولكنّه خفي عليه الإرادة الشرعية في تفصيل أفعاله، فإنّه لا يُذم على ما فعل، ولا يُمدح مطلقاً، بل يمدح لعدم هواه، ولو علم تفصيل المأمور به وأراده إرادة شرعية لكان أكمل، بل هذا ـ مع القدرة ـ إما واجب وإمّا مستحب، وحال هذا خير من حال من يريد بحكم هواه ونفسه وإن كان ذلك مباحاً له، وهو دون من يريد بأمر ربه لا بهواه ولا بالقدر المحض.

فمضمون هذا المقام أنّ الناس في المباحات من ذلك والمال وغير ذلك ـ على ثلاثة أقسام:

قوم لا يتصرفون فيها إلّا بحكم الأمر الشرعي، وهو حال نبينا ﷺ، وهو حال العبد الرسول ومن اتبعه في ذلك. =

. . . . . .

= وقوم يتصرفون فيها بحكم إرادتهم والشهوة التي ليست محرمة، وهذا [حال] النبي الملك، وهو حال الأبرار أهل اليمين.

وقوم لا يتصرفون بهذا ولا بهذا. أمّا الأوّل فلعدم علمهم به. وأمّا الثاني فلزهدهم فيه، بل يتصرفون فيها بحكم القدر المحض إتّباعاً لإرادة الله الخلقية القدرية حين تعذر معرفة الإرادة الشرعية الأمرية. وهذا كالترجيح بالقرعة إذا تعذر الترجيح بسببٍ شرعي معلوم، وقد يتصرف هؤلاء في هذا المقام بإلهامٍ يقع في قلوبهم وخطاب.

وكلام الشيخ عبدالقادر قدَّس الله روحه كثيراً ما يقع في هذا المقام، فإنّه يأمر بالزهد في إرادة النفس وهواها، حتى لا يتصرّف بحكم الإرادة والنفس. وهذا رفع له عن حال الأبرار أهل اليمين، وعن طريق الملوك مطلقاً. ومن حصَّل هذا، وتصرَّف بالأمر الشرعي المحمدي القرآني، فهو أكمل الخلق، لكن هذا قد يخفى عليه، فإن معرفة هذا على التفصيل قد يتعذر أن يتعسَّر في كثير من المواضع.

ألا ترى أنّ النبي ﷺ لما حكَّم سعد بن معاذ في بني قريظة، فحكم بقتل مقاتلتهم وسبي ذراريهم وغنيمة أموالهم، قال: «لقد حكمت فيهم بحكم الله من فوق سبعة أرقعة»، وذلك أنّ تخيير وليّ الأمر بين القتل والاسترقاق، والمن والفداء، ليس تخيير شهوة، بل تخيير راي ومصلحة، فعليه أن يختار الأصلح، فإن اختار ذلك فقد وافق حكم الله وإلاّ فلا.

ولمّا كان هذا يخفى كثيراً قال النبي ﷺ في الحديث الصحيح لبُرَيْدة: «إذا حاصرت أهل حصن فسألوك أن تنزلهم على حكم الله، فلا تنزلهم على حكم الله، فإنّك لا تدري ما حكم الله فيهم، ولكن أنزلهم على حكمك وحكم أصحابك».

والحاكم الذي ينزل أهل الحصن على حكمه عليه أن يحكم باجتهاده، فلمّا أمر سعد بما هو الأرضى لله والأحب إليه، حكم بحكمه، ولو حكم بغير ذلك لنفذ حكمه، فإنّه حكم باجتهاده، وإن لم يكن ذلك هو حكم الله في الباطن.

ففي مثل هذه الحال، التي لا يتبيّن الأمر الشرعي في الواقعة المعينة، يأمر=

Marfat.com

. . . . . .

= الشيخ عبدالقادر وأمثاله من الشيوخ، تارة بالرجوع إلى الأمر الباطن والإلهام إن أمكن ذلك، وتارة بالرجوع إلى القدر المحض لتعذر الأسباب المرجّحة من جهة الشرع، كما يرجّح الشارع بالقرعة، فهم يأمرون أن لا يرجّح بمجرد إرادته وهواه، فإن هذا إمّا محرم، وإمّا مكروه، وإمّا منقص، فهم في هذا النهي كنهيهم عن فضول المباحات.

ثم إن تبين لهم الأمر الشرعي وجب الترجيح به، وإلاّ رجّحوا إمّا بسبب باطن من الإلهام والذوق، وإمّا بالقضاء والقدر الذي لا يُضاف إليهم. ومن يرجح في مثل هذه الحال باستخارة الله، كما كان النبي ﷺ يعلم أصحابه الاستخارة في الأمور كلها، كما يعلمهم السورة من القرآن، فقد أصاب.

وهذا كما أنّه إذا تعارضت أدلة المسألة الشرعية عند الناظر المجتهد، وعند المقلِّد المستفتي، فإنّه لا يرجّح شيئاً، بل ما جرى به القدر أقرُّوه ولم ينكروه. وتارة يرجِّح أحدهم: إمّا بمنام وإمّا برأي مشيرٍ ناصح، وإمّا برؤية المصلحة في أحد الفعلين.

وأمّا الترجيح بمجرد الاختيار، بحيث إذا تكافأت عنده الأدلة يرجح بمجرد إرادته واختياره، فهذا ليس قول أحد من أئمة الإسلام، وإنّما هو قول طائفة من أهل الكلام، ولكن قاله طائفة من الفقهاء في العامي المستفتي: إنه يخيّر بين المفتين المختلفين.

وهذا كما أنّ طائفة من السالكين إذا استوى عنده الأمران في الشريعة، رجّح بمجرد ذوقه وإرادته، فالترجيح بمجرد الإرادة التي لا تستند إلى أمرٍ علمي باطن ولا ظاهر لا يقول به أحد من أئمة العلم والزهد، فأئمة الفقهاء والصوفية لا يقولون هذا، لكن من جوَّز لمجتهد أو مقلد الترجيح بمجرد اختياره وإرادته فهو نظير من سوَّغ للسالك الترجيح بمجرد إرادته وذوقه.

لكن قد يُقال: القلب المعمور بالتقوى إذا رجّح بإرادته فهو ترجيح شرعي.
وعلى هذا التقدير: فمن غلب على قلبه إرادة ما يحبّه الله، وبغض ما يكرهه، إذا لم يدر في الأمر المعين: هل هو محبوب لله أو مكروه، ورأى قلبه يحبه أو يكرهه = كان هذا ترجيحاً عنده، كما لو أخبره مَنْ صِدْقُهُ اغلب مِنْ كَذِبِهِ، فإن الترجيح بخبر هذا عند =

Marfat.com

. . . . . .

انسداد وجوه الترجيح ترجيحٌ بدليل شرعي.

ففي الجملة متى حصل ما يُظن معه أنّ أحد الأمرين أحب إلى الله ورسوله كان هذا ترجيحاً بدليل شرعي. والذين أنكروا كَوْن الإلهام طريقاً شرعياً على الإطلاق، أخطأوا كما أخطأ الذين جعلوه طريقاً شرعياً على الإطلاق.

ولكن إذا اجتهد السالك في الأدلة الشرعية الظاهرة فلم ير فيها ترجيحاً، وألهم حينئذ رجحان أحد الفعلين مع حسن قصده وعمارته بالتقوى، فإلهام مثل هذا دليل في حقه، قد يكون أقوى من كثير من الأقيسة الضعيفة، والأحاديث الضعيفة، والظواهر الضعيفة، والاستصحابات الضعيفة التي يحتجُّ بها كثير من الخائضين في المذهب والخلاف وأصول الفقه.

وفي «الترمذي» عن أبي سعيد عن النبي ﷺ أنّه قال: «اتقوا فراسة المؤمن فإنّه ينظر بنور الله. ثم قرأ قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ﴾ [الحجر: ٧٥].

وقال عمر بن الخطاب: «اقتربوا من أفواه المطيعين، واسمعوا منهم ما يقولون، فإنه تتجلى لهم أمور صادقة».

وقد ثبت في «الصحيح» قول الله تعالى: ﴿ولا يزال عبدي يتقرّب إليَّ بالنوافل حتّى أحبه، فإذا أحببْته كُنْتُ سمعه الذي يَسْمَع به، وبَصَرَهُ الذي يُبْصِرُ به، ويدَه التي يَبْطُش بها، ورجله التي يمشي بها، فبي يسمع، وبي يبصر، وبي يبطش، وبي يمشي﴾.

وفي مثل هذا يقال [في] حديث وابصة عن النبي ﷺ أنه قال: «البر ما اطمأنت إليه النفس وسكن إليه القلب، والإثم ما حاك في نفسك، وإن أفتوك وأفتوك».

وفي «صحيح مسلم» [من] حديث النوّاس بن سمعان عن النبي ﷺ أنّه قال: «البر حسن الخلق، والإثم ما حاك في نفسك، وكرهت أن يطلع عليه الناس».

وقال ابن مسعود: الإثم حَوَّاز القلوب.

وأيضاً فالله تعالى فطر عباده على الحنيفية، وهي حب المعروف وبغض المنكر،

Marfat.com

. . . .

= فإذا لم تستحل الفطرة فالقلوب مفطورة على الحق، فإذا كانت الفطرة مقوَّمة بحقيقة الإيمان، منوَّرة بنور القرآن، وخفي عليها دلالة الأدلة السمعيّة الظاهرة، ورأى قلبه يرجّح أحد الأمرين، كان هذا من أقوى الأمارات عند مثله.

وذلك أنّ الله علَّم القرآن والإيمان. قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ اللهُ إِلَّا وَحْياً أَوْ مِن وَرَاءِ حِجَابٍ﴾ [الشورى: ٥١] ثم قال: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحاً مِّنْ أَمْرِنَا مَا كُنتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَٰكِن جَعَلْنَاهُ نُوراً نَّهْدِي بِهِ مَن نَّشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا﴾ [الشورى: ٥٢].

وقال جندب بن عبدالله وعبدالله بن عمر: «تعلمنا الإيمان، ثم تعلمنا القرآن، فازددنا إيماناً».

وفي «الصحيحين» عن حذيفة عن النبي ﷺ قال: «إنّ الأمانة نزلت في جذر قلوب الرجال، فعلّموا من القرآن، وعلّموا من السنة».

وفي «الترمذي» بإسناد جيد وغيره حديثُ النواس بن سمعان عن النبي ﷺ أنه قال: «ضرب الله مثلاً صراطاً مستقيماً، وعلى جنبتي الصراط سوران، وفي السورين أبواب مفتّحة، وعلى الأبواب ستور مرخاة وداع يدعو على رأس الصراط، وداع يدعو من فوق الصراط. فالصراط المستقيم هو الإسلام، والستور حدود الله، والأبواب المفتّحة محارم الله، فإذا أراد العبد أن يفتح باباً من تلك الأبواب، ناداه المنادي ـ أو كما قال ـ: يا عبدالله لا تفتحه، فإنّك إن تفتحه تلجه، والداعي على رأس الصراط كتاب الله، والداعي فوق الصراط واعظُ الله في قلب كل مؤمن».

فقد بيّن أن في قلب كل مؤمن واعظاً، والواعظ الأمر والنهي بترغيب وترهيب، فهذا الأمر والنهي الذي يقع في قلب المؤمن مطابق لأمر القرآن ونهيه، ولهذا يقوى أحدهما بالآخر، وقد يُؤتى العبد أحدهما ولا يؤتى الآخر.

كما في «الصحيحين» عن أبي موسى الأشعري عن النبي ﷺ أنّه قال: «مثل المؤمن الذي يقرأ القرآن كمثل الأُتْرُجَّة ريحها طيب وطعمها طيب، ومثل المؤمن الذي لا يقرأ القرآن كمثل التمرة لا ريح لها وطعمها طيب، ومثل المنافق الذي يقرأ القرآن =

Marfat.com

. . . . . .

مثل الريحانة ريحها طيب وطعمها مر، ومثل المنافق الذي لا يقرأ القرآن كمثل الحنظلة ليس لها ريح وطعمها مر».

وقد قال بعض السلف في قوله: ﴿نُورٌ عَلَى نُورٍ﴾ [النور: ٣٥] قال: هو المؤمن ينطق بالحكمة وإن لم يسمع فيها بأثر، فإذا سمع بالأثر كان نوراً على نور، نور الإيمان الذي في قلبه يطابق نور القرآن، كما أنَّ الميزان العقلي يطابق الكتاب المنزَّل، فإنَّ الله أنزل الكتاب والميزان، ليقوم الناس بالقسط.

والإلهام في القلب تارة يكون من جنس القول والعلم والظن والاعتقاد، وتارة يكون من جنس العمل والحب والإرادة والطلب، فقد يقع في قلبه أن هذا القول أرجح وأظهر وأصوب، وقد يميل قلبه إلى أحد الأمرين دون الآخر.

وفي «الصحيحين» عن النبي ﷺ أنّه قال: «قد كان في الأمم قبلكم مُحَدَّثون فإن يكن في أمّتي أحدٌ فعمر منهم» والمحدَّث هو الملهم المخاطب.

وأيضاً فإذا كانت الأمور الكونية قد تنكشف للعبد المؤمن يقيناً أو ظنّاً، فالأمور الدينية كذلك بطريق الأولى، فإنّه إلى كشفها أحْوَج، لكن هذا في الغالب لا بدّ أن يكون كشفاً بدليل، وقد يكون بدليل ينقدح في قلب المؤمن لا يمكنه التعبير عنه، وهذا أحد ما فُسِّر به معنى الاستحسان.

وقد قال من طعن في ذلك، كأبي حامد وأبي محمد: «مالا يُعَبَّر عنه فهو هوس». وليس كذلك، فإنّه ليس كل أحدٍ يمكنه إبانة المعاني القائمة بقلبه، وكثير من الناس يبيِّنها بياناً ناقصاً، وكثير من أهل الكشوف يُلقى في قلبه أنّ هذا الطعام حرام، أو أن هذا الرجل كافرٌ أو فاسق، من غير دليل ظاهر، وبالعكس قد يُلقى في قلبه محبة شخص، وأنّه ولي الله، أو أنّ هذا المال حلال.

وليس المقصود هنا بيان أنّ هذا وحده دليل على الأحكام الشرعية، لكن أن مثل هذا يكون ترجيحاً لطالب الحق إذا تكافأت عنده الأدلة السمعية الظاهرة، فالترجيح بها خير من التسوية بين الأمرين المتناقضين قطعاً، فإن التسوية بينهما باطلة قطعاً، كما قلنا: إنّ العمل بالظن الناشىء عن ظاهر أو قياس، خير من العمل بنقيضه إذا احتيج إلى العمل بأحدهما. —

Marfat.com

والصواب الذي عليه السلف والجمهور، أنّه لا بد في كل حادثة من دليل شرعي، فلا يجوز تكافؤ الأدلة في نفس الأمر، ولكن قد تتكافأ عند الناظر لعدم ظهور الترجيح له، وأمّا من قال: إنّه ليس في نفس الأمر حق معيّن، بل كل مجتهد عالم بالحق الباطن في المسألة، وليس لأحدهما على الآخر مَزيَّة في علم ولا عمل، فهؤلاء قد يجوِّزون ـ أو بعضهم ـ تكافؤ الأدلة، ويجعلون الواجب التخيير بين القولين.

وهؤلاء يقولون: ليس على الظن دليل في نفس الأمر، وإنّما رجحان أحد القولين هو من باب الرجحان بالميل والإرادة، كترجيح النفس الغضبية للانتقام، والنفس الحليمة للعفو.

وهذا القول خطأ، فإنّ لا بدّ في نفس الأمر من حق معين يصيبه المستدل تارة ويخطئه أخرى، كالكعبة في حق من اشتبهت عليه القبلة، والمجتهد إذا أدّاه اجتهاده إلى جهة، وسقط عنه الفرض بالصلاة إليها، كالمجتهد إذا أدّاه اجتهاده إلى قول فعمل بموجبه: كلاهما مطيع لله، وهو مصيب، بمعنى أنّه مطيع لله وله أجر على ذلك، وليس مصيباً بمعنى أنّه علم الحق المعيّن، فإنّ ذلك لا يكون إلاّ واحداً ومُصِيبُهُ له أجران.

وهذا في كشف الأنواع التي يكون عليها دليل شرعي، لكن قد يخفى على العبد، فإنّ الشارع بيّن الأحكام الكلية. وأمّا أحكام المعيَّنات التي تسمّى تنقيح المناط، مثل كون الشخص المعيّن عدلاً أو فاسقاً، ومؤمناً أو منافقاً، ووليّاً لله أو عدواً له، وكون هذا العقار ليتيم أو فقير يستحق الإحسان إليه، وكون هذا المعيّن عدواً للمسلمين يستحق القتل، وكون هذا المال يُخاف عليه من ظلم ظالم، فإذا زهد فيه الظالم انتفع به أهله.

فهذه الأمور لا يجب أن تُعلم بالأدلة الشرعية العامة الكلية، بل تعلم بأدلة خاصة تدل عليها. ومن طرق ذلك الإلهام، فقد يُلهم الله بعضَ عباده★ حال هذا المال المعين، وحال هذا الشخص، وإن لم يكن هناك دليل ظاهر يشركه فيه غيره.

★ ـ ممن عرف في الأمة بالعلم والتقوى، كما قيده المؤلف بذلك قبل صفحات.

Marfat.com

. . . . . .

= وقصة الخضر مع موسى هي من هذا الباب، ليس فيها مخالفة لشرع الله، فإنّه لا يجوز قط لأحد: لا نبي ولا ولي أن يخالف شرع الله، لكن فيها علمُ حالِ ذلك المعيّن بسببٍ باطنٍ يوجبُ فيه الشرعُ ما فعله الخضر، كمن دخل إلى دار وأخذ ما فيها من المال لعلمه بأنّ صاحبها أذن له، وغيره لم يعلم، ومثل من رأى ضالة أخذها ولم يعرفها، لعلمه بأنّه أتى بها هدية له، ونحو ذلك. ومثل هذا كثير عند أهل الإلهام الصحيح.

والنوع الثاني عكس هذا. وهو أنهم يتبعون هواهم لا أمر الله، فهؤلاء لا يفعلون ولا يأمرون إلّا بما يحبونه بهواهم، ولا يتركون وينهون إلّا عمّا يكرهونه بهواهم. وهؤلاء شر الخلق، قال تعالى: ﴿أَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ أَفَأَنْتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلاً﴾ [الفرقان: ٤٣]. قال الحسن: «هو المنافق لا يهوى شيئاً إلّا ركبه».

وقال تعالى: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ اللهِ﴾ [القصص: ٥٠]. وقال عمر بن عبدالعزيز: «لا تكن ممن يتّبع الحق إذا وافق هواه، ويخالفه إذا خالف هواه، فكذا أنت لا تثاب على ما اتّبعته من الحق، وتُعاقب على ما خالفته». وهو كما قال رضي الله عنه، لأنّه في الموضعين إنّما قصد اتّباع هواه، لم يعمل لله.

ألا ترى أنّ أبا طالب نصر النبي ﷺ وذبّ عنه أكثر من غيره، لكن فَعَل ذلك لأجل القرابة لا لأجل الله تعالى، فلم يتقبل الله ذلك منه ولم يُثبه على ذلك؟ وأبو بكر الصديق رضي الله عنه، أعانه بنفسه وماله لله، فقال الله تعالى: ﴿وَسَيُجَنَّبُهَا الْأَتْقَى * الذي يُؤْتِي مَالَهُ يَتَزَكَّى * وَمَا لأَحَدٍ عِنْدَهُ مِن نِّعْمَةٍ تُجْزَى * إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِ الأَعْلَى * وَلَسَوْفَ يَرْضَى﴾ [الليل: ١٧ - ٢١].

والقسم الثالث: الذي يريد تارة إرادة الله، وتارة إرادةً يبغضها الله، وهؤلاء أكثر المسلمين: فإنّهم يطيعون الله تارة ويريدون ما أحبه، ويعصونه تارة فيريدون ما يبغضه، وإن كان يكرهه.

والقسم الرابع: أن يخلو عن الإرادتين، فلا يريد لله ولا لهواه، وهذا يقع لكثير من الناس في بعض الأشياء، ويقع لكثير من الزهّاد والنسّاك في كثير من الأمور. =

. . . . . .

= وأمّا خلو الإنسان من الإرادة مطلقاً فممتنع، فإنّه مفطور على إرادة ما لا بد له منه، وعلى كراهة ما يضره ويؤذيه. والزاهد الناسك إذا كان مسلماً فلا بدّ أن يريد اشياء يحبها الله، مثل أداء الفرائض وترك المحارم، بل وكذلك عموم المؤمنين لا بد ان يريد أحدهم أشياء يحبها الله، وإلاّ فمن لم يحب الله ولا أحب شيئاً لله، فلم يحب شيئاً من الطاعات: لا الشهادتين ولا غيرهما، ولا يريد ذلك، فإنّه لا يكون مؤمناً.

فلا بد لكل مؤمن من أن تكون له إرادة لبعض ما يحبه الله. وأمّا إرادة العبد لما يهواه ولا يحبه الله، فهذا لازم لكل من عصى الله، فإنّه أراد المعصية والله لا يحبها ولا يرضاها.

وأمّا الخلو عن الإرادتين المحمودة والمذمومة، فيقع على وجهين: أحدهما: مع إعراض العبد عن عبادة الله وطاعته وإن علم بها، فإنّه قد يعلم كثيراً من الأمور أنّه مأمور بها وهو لا يريدها ولا يكره من غيره فعلها. وإذا اقتتل المسلمون والكفار لم يكن مريداً لانتصار هؤلاء الذي يحبه الله، ولا لأنتصار هؤلاء الذي يبغضه الله.

والوجه الثاني: يقع من كثير من الزُهّاد العُبّاد الممتثلين لما يعلمون أن الله أمر به، المجتنبين لما يعلمون أنّ الله نهى عنه. وأمور أخرى لا يعلمون أنّها مأمور بها ولا منهي عنها، فلا يريدونها ولا يكرهونها لعدم العلم، ويرضون بها من جهة كونها مخلوقة مقدرة، وقد يعاونون عليها، ويَرَوْن هذا موافقة لله، وأنّهم لما خلوا عن هوى النفس كانوا مأمورين بالرضا بكل حادث بل والمعاونة عليه.

وهذا موضع يقع فيه الغلط، فإنّ ما أحبّه الله ورسوله علينا أن نحب ما أحبّ الله ورسوله، ونبغض ما يبغضه الله ورسوله، وأمّا ما لا يحبّه الله ورسوله ولا يبغضه الله ورسوله، كالأفعال التي لا تكليف فيها، مثل أفعال النائم والمجنون، فهذه إذا كان الله لا يحبها ولا يرضاها ولا يكرهها ويذمها، فالمؤمن أيضاً لا ينبغي أن يحبّها ويرضاها ولا يكرهها.

وأمّا كونها مقدورة ومخلوقة لله فذاك لا يختص بها، بل هو شامل لجميع المخلوقات. والله تعالى خلق ما خلقه لما شاء من حكمته، وقد أحسن كل شيء خلقه. =

Marfat.com

. . . . . .

= والرضا بالقضاء ثلاثة أقسام:

أحدها: الرضا بالطاعات، فهذا طاعة مأمور بها.

والثاني: الرضا بالمصائب فهذا مأمور بها: إمّا مستحب وإمّا واجب.

والثالث: الكفر والفسوق والعصيان، فهذا لا يؤمر بالرضا به، بل يؤمر ببغضه وسخطه، فإنّ الله لا يحبّه ولا يرضاه. كما قال تعالى: ﴿إِذْ يُبَيِّتُونَ مَا لَا يَرْضَى مِنَ القَوْلِ﴾ [النساء: ١٠٨]، وقال: ﴿والله لَا يُحِبُّ الفَسَادَ﴾ [البقرة: ٢٠٥]، وقال: ﴿وَلَا يَرْضَى لِعِبَادِهِ الكُفْرَ﴾ [الزمر: ٧]، وقال: ﴿فَإِنَّ الله لَا يُحِبُّ الكافرين﴾ [آل عمران: ٣٢]، وقال: ﴿إِنَّ الله لَا يُحِبُّ المُعْتَدِينَ﴾ [المائدة: ٨٧]، وقال: ﴿وَالله لَا يُحِبُّ المُفْسِدِينَ﴾ [المائدة: ٦٤].

وهو، وإن خلقه لما له في ذلك من الحكمة، فلا يمتنع أن يخلق ما لا يحبه لإفضائه إلى الحكمة التي يحبها، كما خلق الشياطين. فنحن راضون عن الله بأن يخلق ما يشاء، وهو محمود على ذلك.

وأمّا نفس هذا الفعل المذموم وفاعله، فلا نرضى به ولا نحمده، وفرق بين ما يُحَبُّ لنفسه، وما يُراد لإفضائه إلى المحبوب مع كونه مبغَضاً من جهة أخرى، فإنّ الأمر الواحد يراد من وجه، ويكره من وجه آخر، كالمريض الذي يتناول الدواء الكريه؛ فإنّه يبغض الدواء ويكرهه، وهو مع هذا يريد استعماله لإفضائه إلى المحبوب، لا لأنّه في نفسه محبوب.

وفي الحديث الصحيح: «يقول الله تعالى: ما ترددت عن شيء أنا فاعله كترددي عن قبض نفس عبدي المؤمن: يكره الموت، وأكره مساءته، ولا بد له منه». فهو سبحانه لمّا كره مساءة عبده المؤمن الذي يكره الموت، كان هذا مقتضياً أن يكره إماتته، مع أنّه يريد إماتته لما له في ذلك من الحكمة سبحانه وتعالى.

فالأمور التي يبغضها الله وينهى عنها لا تُحب ولا تُرضى لكن نرضى بما يرضى الله به حيث خلقها، لما له في ذلك من الحكمة، فكذلك الأفعال التي لا يحبها ولا يبغضها لا ينبغي أن تُحب ولا تُرضى كما لا ينبغي أن تُبغض. =

. . . . . .

= والرضا الثابت بالنص هو أن يرضى بالله رباً، وبالإسلام ديناً، وبمحمد نبياً.

وقد ثبت في «الصحيح» عن النبي ﷺ أنّه قال: «من رضي بالله رباً، وبالإسلام ديناً وبمحمد نبياً، كان حقّاً على الله أن يرضيه».

وأمّا بالنسبة إلى القدر فيرضى عن الله، إذ له الحمد على كل حال، ويرضى بما يرضاه من الحكمة التي خلق لأجلها ما خلق، وإن كنّا نبغض ما يبغضه من المخلوقات، فحيث انتفى الأمر الشرعي أو خفي الأمر الشرعي لا يكون الامتثال والرضا والمحبة، كما يكون في الأمر الشرعي، وإن كان ذلك مقدوراً.

وهذا موضع غلط فيه كثير من خاصة السالكين وشيوخهم، فضلاً عن عامتهم، ويتفاوتون في ذلك بحسب معرفتهم بالأمر الشرعي وطاعتهم له، فمنهم من هو أعرف من غيره بالأمر الشرعي وأطوع له، فهذا يكون حاله أحسن ممن نقص عنه في المعرفة بالأمر الشرعي والطاعة له، ومنهم من يبعد عن الأمر الشرعي ويسترسل حتى ينسلخ من الإسلام بالكلية، ويبقى واقفاً مع هواه والقدر.

ومن هؤلاء من يموت كافراً، ومنهم من يتوب الله عليهم، ومنهم من يموت فاسقاً، ومنهم من يتوب الله عليه. وهؤلاء ينظرون إلى الحقيقة القدرية معرضين عن الأمر الشرعي، ولا بد مع ذلك من اتّباع أمرٍ ونهي غير الأمر الشرعي، إمّا من أنفسهم وإمّا من غير الله ورسوله، إذ الاسترسال مع القدر مطلقاً ممتنع لذاته، لما تقدم من أنّ العبد مفطور على محبة أشياء وبغض أشياء.

وقول من قال: «إنّ العبد يكون مع الله كالميت مع الغاسل» لا يصح ولا يسوغ على الاطلاق عند أحد من المسلمين، وإنّما يُقال ذلك في بعض المواضع، ومع هذا فإنّما ذلك لخفاء أمرِ الله عليه، وإلّا فإذا علم ما أمر الله به وأحبه، فلا بد أن يحب ما أحبه الله، ويبغض ما أبغضه الله. =

. . . . . .

فصـل

= وكما أنّ الطريقة العلمية بصحة النظر من الأدلة والأسباب الموجبة للعلم، كتـدبـر القـرآن والحديث، فالطريقة العملية بصحة الإرادة والأسباب هي الموجبة للعمـل، كعـمارة الباطن بالمراقبة، والخوف من الله على كل حال، ولهذا يسمُّون السالك في ذلك: المريد، كما يسميه أولئك: الطالب.

والنـظر جنس تحته حق وباطل، ومحمود ومذموم، وكذلك الإرادة. فكما أنّ طريق العلم لا بدّ فيه من العلم النبوي الشرعي ، بحيث يكون معلومك المعلومات الدينية النبوية، ويكون علمك بها مطابقاً لما أخبرت به الرسل، وإلاّ فلا ينفعك أي معلوم علمته، ولا أي شيء اعتقدته فيما أخبرت به الرسل، بل لا بد من الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر، فكذلك الإرادة لا بد فيها من تعيين المراد وهو الله والطريق إليه، وهو ما أمرت به الرسل، فلا بد أن تعبد الله وتكون عبادتك إيّاه بما شُرِعَ على ألسنة رسله، إذ لا بد من تصديق الرسول فيما أخبرَ علماً، ولا بد من طاعته فيما أمرَ عملاً.

ولهذا كان الإيمان قولاً وعملاً مع موافقة السنة، فالعلم الحق ما وافق علم الله، والإرادة الصالحة ما وافقت محبة الله ورضاه، وهو حكمه الشرعي، والله عليم حكيم.

فالأمور الخبرية لا بد أن تطابق حب الله وأمره. فهذا حكمه، وذاك علمه.

وأمّا من جعل حكمه مجرد القدر، كما فعل صاحب «منازل السائرين» وجعل مشاهدة العارف الحكم يمنعه أن يستحسن حسنة أو يستقبح سيئة، فهذا فيه من الغلط العظيم ما قد نبهنا عليه في غير هذا الموضع.

فلا ينفع المريد القاصد ان يعبد أي معبود كان، ولا أن يعبد الله بأيّ عبادة كانت، بل هذه طريقة المشركين المبتدعين الذين لهم شركاء شرعوا لهم من الدين ما لم يأذن به الله، كالنصارى ومن أشبههم من أهل البدع، الذين يعبدون غير الله بغير أمر الله =

Marfat.com

. . . . . .

= وأمّا أهل الإسلام والسنة فهم يعبدون الله وحده، ويعبدونه بما شرع، لا يعبدونه بالبدع، إلاّ ما يقع من أحدهم خطأً. فالسالكون طريقَ الإرادة قد يغلطون تارة في المراد، وتارة في الطريق إليه، تارة يتألهون غير الله بالخوف منه والرجاء له، والتعظيم والمحبة له، وسؤاله والرغبة إليه، فهذا من الشرك المحرّم، فإنّ حقيقة التوحيد أن لا تعبد إلاّ الله.

والعبادة تتضمن كمال الحب، وكمال التعظيم، وكمال الرجاء، والخشية، والجلال، والإكرام. والفناء في هذا التوحيد هو فناء المرسلين وأتباعهم، وهو أن تفنى بعبادته عن عبادة ما سواه، وبطاعته عن طاعة ما سواه، وبسؤاله عن سؤال ما سواه، وبخوفه عن خوف ما سواه، وبرجائه عن رجاء ما سواه، وبحبه والحب فيه عن محبة ما سواه والحب فيه.

وأمّا الغالطون في الطريق فقد يريدون الله، لكن لا يتبعون الأمر الشرعي في إرادته، لكن تارة يعبده أحدهم بما يظنه يرضيه ولا يكون كذلك، وتارة ينظرون إلى القدر لكونه مراده، فيفنون في القدر الذي ليس لهم فيه غرض، وأمّا الفناء المطلق فيه فممتنع. وهؤلاء يبقى أحدهم متبعاً لذوقه ووَجْدِه المخالف للأمر الشرعي، أو ناظراً إلى القدر، وهذا يبتلى به كثير من خواصهم.

والشيخ عبدالقادر ونحوه من أعظم مشايخ زمانهم، أمَرَ بالتزام الشرع: الأمر والنهي، وتقديمه على الذوق والقدر، ومن أعظم المشايخ أمراً بترك الهوى والإرادة النفسية، فإنّ الخطأ في الإرادة من حيث هي إرادة، إنّما يقع من هذه الجهة.

فهو يأمر السالك أن لا تكون له إرادة من جهة هواه أصلاً، بل يريد ما يريده الرب عزّ وجلّ: إمّا إرادة شرعية إن تبين له ذلك، وإلاّ جرى مع الإرادة القدرية، فهو إمّا مع أمر الرب، وإمّا مع خَلْقِهِ، وهو سبحانه له الخلق والأمر.

وهذه طريقة شريفة صحيحة، إنّما يُخاف على صاحبها مِنْ ترك إرادة شرعية لا يعلم أنّها شرعية، أو من تقديم إرادة قدرية على [إرادة] الشرعية، فإنّه إذا لم يعلم الشرعية فقد يتركها، وقد يريد ضدها، فيكون تَرَك مأموراً أو فعل محظوراً وهو لا يعلم. =

Marfat.com

. . . . . .

= فإنّ طريق الإرادة يُخاف على صاحبها من ضعف العمل، وما يقترن بالعلم من العمل والوقوع في الضلال، كما أنّ طريقة العلم يُخاف على صاحبها من ضعف العمل، وضعف العلم الذي يقترن بالعمل.

لكن لا يكلف الله نفساً إلاّ وسعها من هذا وهذا. قال تعالى: ﴿فَاتَّقُوا اللهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ﴾ [التغابن: ١٦] فإذا تفقه السالك وتعلّم الأمر والنهي بحسب اجتهاده، وكان عمله وإرادته بحسب ذاك، فهذا مستطاعه، وإذا أدّى الطالب ما أُمر به وترك ما نُهي عنه، وكان علمه مطابقاً لعمله، فهذا مستطاعه.

* * *

Marfat.com

في التواصي بالخير

قال رضي الله عنه وأرضاه:

اتبعوا ولا تبتدعوا، وأطيعوا ولا تمرُقوا، ووحّدوا ولا تشركوا، ونزّهوا الحق ولا تَتَّهِمُوا، وصدّقوا ولا تشكوا، واصبروا ولا تجزعوا، واثبتوا ولا تفِرُّوا، واسألوا ولا تسأموا، وانتظروا وترقبوا ولا تيأسوا، وتآخَوْا ولا تعادَوْا، واجتمعوا على الطاعة ولا تتفرقوا، وتحابّوا ولا تباغضوا، وتطهروا عن الذنوب، وبها لا تتدنسوا ولا تتلطخوا، وبطاعة ربكم فتزيّنوا، وعن باب مولاكم فلا تبرحوا، وعن الإقبال عليه فلا تتولوا، وبالتوبة فلا تسوِّفوا، وعن الاعتذار إلى خالقكم في آناء الليل وأطراف النهار فلا تملوا، فلعلكم ترحمون وتسعدون، وعن النار تُبْعَدُون، وفي الجنة تُحْبَرُوْن، وإلى الله تصلون، وبالنعيم وافتضاض الأبكار في دار السلام تشتغلون، وعلى ذلك أبداً تخلَّدون، وعلى النجائب تركبون، وبحور العين وأنواع الطيب وصوت القيان مع ذلك النعيم تحبرون، ومع الأنبياء والصديقين والشهداء والصالحين تُرْفَعون.

* * *

Marfat.com

4

في الابتـــلاء

قال رضي الله تعالى عنه وأرضاه:

إذا ابتـلي العبـد ببلية تحرّك أولاً في نفسه بنفسه، فإن لم يتخلّص منها استعان بالخلق كالسلاطين وأرباب المناصب وأرباب الدنيا وأصحاب الأحوال وأهل الطب في الأمراض والأوجاع، فإن لم يجد في ذلك خلاصا رجع إلى ربه بالدعاء والتضرع والثناء. [فـ] ما دام يجد بنفسه نصرة لم يرجع إلى الخلق، وما دام يجـد عنـد الخلق نصرة لم يرجع إلى الخالق، ثم إذا لم يجد عند الخالق نصرة استطرح بين يديه مديماً للسؤال والدعاء، والتضرع والثناء، والافتقار مع الخوف والرجاء، ثم يعجزه الخالق عزّ وجلّ عن الدعاء، ولم يجبه حتى ينقطع عن جميع الأسباب، فحينئذ ينفذ فيه القدر، ويفعل فيه الفعل، فيفنى العبد عن جميع الأسباب والحركات، فيبقى روحاً فقط، فلا يرى إلّا فعل الحق، فيصير موقناً موحداً ضرورةً، يقطع أن لا فاعل في الحقيقة إلّا الله، ولا محرّك ولا مسكّن إلّا الله، ولا خير ولا شر، ولا ضر ولا نفع، ولا عطاء ولا منع، ولا فتح ولا غلق، ولا موت ولا حياة، ولا عزّ ولا ذلّ إلّا بيد الله، فيصير في القدر كالطفل الرضيع في يد الظئر، والميت الغسيل في يد الغاسل، والكرة في صولجان الفارس، يقلّب ويغيّر ويبدلّ، ويكون ولا حراك به في نفسه ولا في غيره، فهو غائب عن نفسه في فعل مولاه، فلا يرى غير مولاه وفعله، ولا يسمع ولا يعقل من غيره، إن بصر وإن سمـع، فلكـلامه سمع، ولعلمه علم، وبنعمته تنعم، وبقربـه سعد، وبتقريبه تزيّن وتشرّف، وبوعده طاب وسكن، به اطمأن، وبحديثه انس، وعن غيره استوحش ونفر، وإلى ذكره التجأ وركن، وبه عزّ وجلّ وثق، وعليه توكل، وبنور معرفته اهتدى وتقمص وتسربل، وعلى غرائب علومه اطّلع، وعلى أسرار قدرته اشرف، ومنه سمع ووعى، ثم على ذلك حمد وأثنى، وشكر ودعا.

Marfat.com

المقالة الرابعة

في الموت المعنوي

قال رضي الله تعالى عنه وأرضاه:

إذا مت عن الخلق، قيل لك: رحمك الله وأماتك عن الهوى.

وإذا مت عن هواك، قيل لك: رحمك الله وأماتك عن إرادتك ومناك.

وإذا مت عن الإرادة قيل لك: رحمك الله، وأحياك حياة لا موت بعدها، وتغنى غنى لا فقر بعده، وتعطى عطاء لا منع بعده، وتراح براحة لا شقاء بعدها، وتنعم بنعمة لا بؤس بعدها، وتعلم علماً لا جهل بعده، وتؤمن أمناً لا خوف بعده، وتسعد فلا تشقى، وتُعَزُّ فلا تُذَلُّ، وتقرب فلاتبعد، وترفع فلا توضع، وتعظّم فلا تحقّر، وتطهر فلا تدنس، لتتحقق فيك الأماني، وتصدق فيك الأقاويل، فتكون كبريتاً أحمر فلا تكاد ترى، وعزيزاً فلا تماثل، وفريداً فلا تشارك، وحيداً فلا تجانس، فرداً لفرد، ووتراً لوتر، وغيب لغيب، وسر لسر، فحينئذ تكون وارث كل نبي وصدّيق ورسول، بك تختم الولاية، وإليك تصير الأبدال وبك تنكشف الكروب، وبك تسقى الغيوث، بك تنبت الزروع، وبك يُدْفَعُ البلاء والمحن عن الخاص والعام وأهل الثغور والراعي والرعايا والأئمة والأمّة وسائر البلايا، فتكون شحنة[1] البلاد والعباد، فتنطلق إليك الرِجْلُ بالسعي والترحال، والأيدي بالبذل والعطاء والخدمة، بإذن خالق الأشياء في سائر الأحوال، والألسن بالذكر الطيب، والحمد والثناء وجميع المحال، ولا يختلف فيك اثنان من أهل الإيمان، يا خير من سكن البراري وجال بها ﴿ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم﴾ [الجمعة: ٤].

* * *

Marfat.com

في بيان الدنيا والحث على عدم الالتفات إليها

قال رضي الله عنه وأرضاه:

إذا رأيت الدنيا في أيدي أربابها بزينتها وأباطيلها، وخدعها ومصائدها، وسمومها القتالة، مع لين مس ظاهرها، وضراوة باطنها، وسرعة إهلاكها، وقتلها لمن مسّها واغترّ بها، وغفل عن وليها، وغدرها بأهلها ونقض عهدها؛ فكن كمن رأى إنساناً على الغائط بالبراز بادية سوءته، وفائحة رائحته؛ فإنّك تغض بصرك عن سوءته، وتسد أنفك من رائحته ونتنه، فهكذا كن في الدنيا، إذا رأيتها غُضَّ بصرَك عن زينتها، وسُدَّ أنفَك عما يفوح من روائح شهواتها ولذاتها، فتنجو منها ومن آفاتها، ويصل إليك قسمك منها وأنت مهنّأ؛ قال الله تعالى لنبيه المصطفى ﷺ ﴿ولا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إلى ما مَتَّعْنَا بِهِ أزْوَاجاً مِنْهُمْ زَهْرَةَ الحياةِ الدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ، وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأبْقَى﴾ [طه: ١٣١].

* * *

Marfat.com

في الفناء عن الخلق

قال رضي الله تعالى عنه وأرضاه:

افن عن الخلق بإذن الله تعالى، وعن هواك بأمر الله تعالى ﴿وعلى الله فتوكَّلُوا إنْ كُنْتُمْ مؤمنين﴾ [المائدة: ٢٣]. وعن إرادتك بفعل الله تعالى، وحينئذ تصلح أن تكون وعاءً لعلم الله تعالى.

قلت: فحكمهُ يتناول خلقَهُ وأمرَهُ، أي: افن عن عبادة الخلق والتوكل عليهم بعبادة الله والتوكل عليه، فلا تطعهم في معصية الله، ولا تتعلق بهم في جلب منفعة ولا دفع مضرّة.

وأمّا الفناء عن الهوى بالأمر، وعن الإرادة بالفعل، بأن يكون فعلهُ موافقاً للأمر الشرعي لا لهواه، وأن تكون إرادته لما يخلق تابعةً لفعل الله لا لإرادة نفسه، فالإرادة تارة تتعلق بفعل نفسه وتارة بالمخلوقات.

فالأوّل يكون بالأمر، والثاني لا تكون له إرادة. ولا بد في هذا أن يُقَيَّد بأن لا تكون له إرادة لم يؤمر بها، وإلّا فإذا أُمر بأن يريد من المقدورات شيئاً دون شيء، فليرد ما أمر بإرادته، سواء كان موافقاً للقدر ام لا.

وهذا الموضع قد يغلط فيه طائفة من السالكين، والغالب على الصادقين منهم أنّهم لم يعرفوا الإرادة الشرعية في ذلك المعين، وهم ليس لهم إرادة نفسانية، فتركوا إرادتهم لغير المقدور.

Marfat.com

فعلامة فنائك عن خلق الله تعالى انقطاعك عنهم، وعن التردد إليهم، واليأس مما في أيديهم[1].

وعلامة فنائك عن هواك تركُ التكسب والتعلق بالسبب في جلب النفع، ودفع الضرر، فلا تحرك فيك ولا تتعمد عليك ولا لك ولا تذب عنك، ولا تنفر نفسك، تكل ذلك كله إلى الله تعالى، لأنّه تولاه أولاً فيتولاه آخراً، كما كان ذلك موكولاً إليه في حال كونك مغيباً في الرحم؛ وكونك رضيعاً طفلاً في مهدك[2].

---

(١) وهـو كما قال: فإذا كان القلب لا يرجوهم ولا يخافهم، لم يتردد إليهم لطلب شيء منهم، وهذا يشتبه بما يكون مأموراً به من المشي إليهم لأمرهم بما أمر الله به، ونهيهم عن ما نهاهم الله عنـه، كذهـاب الرسل وأتباع الرسل إلى من يبلغونه رسالات الله، فإن التوكل إنّما يصح مع القيام بما أُمر به العبد، ليكون عابداً لله متوكلاً عليه، وإلاّ فمن توكل عليه ولم يفعل ما أُمر به، فقد يكون ما أضاعه من الأمر أوْلى به مما قام به من التوكل، أو مثله أو دونه، كما أنّ من قام بأمرٍ ولم يتوكل عليه ولم يستعن به فلم يقم بالواجب، بل قد يكون ما تركه من التوكل والاستعانة أوْلى به ممّا فعله من الأمر أو مثله أو دونه.

(٢) قلت: وهـذا لأنّ النفس تهوى وجود ما تحبه وينفعها، ودفع ما تبغضه ويضرها، فإذا فني عن ذاك بالأمر فعل ما يحبه الله وترك ما يبغضـه، فاعتاض بفعل محبوب الله عن محبوبه، وبترك ما يبغضه الله عمّا أبغضه. وحينئذ فالنفس لا بد لها من جلب المنفعة ودفع المضرة، فيكون في ذلك متوكلاً على الله.

والشيخ رحمه الله ذكر هنا التوكل دون الطاعة، لأنّ النفس لا بد لها من جلب المنفعة ودفع المضرة، فإن لم تكن متوكلة على الله في ذلك، واثقة به لم يمكن أن تنصرف عن ذلـك، فتمتثل الأمر مطلقاً، بل لا بد أن تعصي الأمر في جلب المنفعة ودفع المضرة، فلا تصح العبادة لله وطاعة أمره دون التوكل عليه، كما أنّ التوكل عليه لا يصح دون عبادته وطاعته. =

Marfat.com

وعلامة فنائك عن إرادتك بفعل الله أنّك لا تريد مراداً قط، ولا يكون لك غرض، ولا يبقى لك حاجة ولا مرام، فإنّك لا تريد مع إرادة الله سواها، بل يجري فعـل الله فيك، فتكون أنت عند إرادة الله وفعله ساكن الجوارح، مطمئن الجنان، منشرح الصدر، منور الوجه، عامر الباطن، غنياً عن الأشياء بخـالقهـا، تقلبـك يدُ القـدرة، ويدعوك لسان الأزل، ويعلمك رب الملل، ويكسـوك أنواراً منه والحلل، وينزلك منازل من سلف من أولي العلم الأول، فتكـون منكسراً أبـداً، فلا يثبت فيك شهـوة وإرادة كالإناء المنثلم، الذي لا يثبت فيه مائع وكدر، فتبقّى عن أخلاق البشرية، فلن يقبل باطنك شيئاً غير إرادة الله عزّ وجلّ، فحينئذ يضاف إليك التكوين وخرق العادات، فيرى ذلك منك في ظاهر الفعل والحكم، وهو فعل الله وإرادته حقاً في العالم، فتـدخـل حينئـذ في زمـرة المنكسرة قلوبهم، الذين كسرت إراداتهم البشرية، وأزيلت شهـواتهم الـطبيعية، فاستؤنفت لهم إرادة ربانية، كما قال النبي ﷺ «حبّب إلي من دنياكم: الـطيب، والنسـاء، وجعلت قرّة عيني في الصـلاة» فأضيف ذلك إليه بعد أن خرج منه وزال عنه تحقيقاً بما أشرنا وتقدم. قال الله تعالى: «أنا عند المنكسرة قلوبهم من أجلي» فإنّ الله تعالى لا يكون عندك حتى

= قال تعالى: ﴿فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ﴾ [هود: ١٢٣] وقال تعالى: ﴿وَمَن يَتَّقِ الله يَجْعَـلْ لَهُ مَخْرَجـاً * وَيَرْزُقْـهُ مِنْ حَيْثُ لاَ يَحْتَسِبُ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى الله فَهُوَ حَسْبُهُ﴾ [الطلاق: ٢، ٣]، وقال تعالى: ﴿وَاذْكُرْ اسْمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلاً * رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ فَاتَّخِذْهُ وَكِيلاً﴾ [المزمل: ٨، ٩].

والمقصود أن امتثال الأمر على الإطلاق لا يصح دون التوكل والاستعانة، ومن كان واثقاً بالله أن يجلب له ما ينفعه ويدفع عنه ما يضره، أمكن أن يدع هواه ويطيع أمر مولاه وإلاّ فنفسه لا تدعه يترك ما يقول إنّه محتاج فيه إلى غيره.

تنكر جملة هواك وإرادتك، فإذا انكسرت ولم يثبت فيك شيء، ولم يصلح فيك شيء، أنشأك الله، فجعل فيك إرادة، فتريد بتلك الإرادة.

فإذا صرت في تلك الإرادة المنشأة فيك كسرها الرب تعالى بوجودك فيها، فتكون منكسر القلب أبداً، فهو لا يزال يجدد فيك إرادة، ثم يزيلها عند وجودك فيها، هكذا إلى أن يبلغ الكتاب أجله، فيحصل اللقاء، فهذا هو معنى «عند المنكسرة قلوبهم من أجلي».

ومعنى قولنا (عند وجودك فيها) هو ركونك وطمأنينتك إليها. قال الله تعالى في حديثه القدسي، الذي يرويه ﷺ: «لا يزال عبدي يتقرب إليّ بالنوافل حتى أحبّه، فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصره به، ويده التي يبطش بها، ورجله التي يمشي بها» وفي لفظ آخر «فبي يسمع، وبي يبطش، وبي يعقل»[1].

---

(١) قلت: هذا المقام هو آخر ما يشير إليه الشيخ عبدالقادر. وحقيقته أنّه لا يريد كون شيء إلّا أن يكون مأموراً بإرادته، فقوله: «علامة فناء إرادتك بفعل الله أنّك لا تريد مراداً قط» أي: لا تريد مراداً لم تؤمر بإرادته، فأمّا ما أمرك الله ورسوله بإرادتك إيّاه، فإرادته إمّا واجب وإمّا مستحب، وترك إرادة هذا إمّا معصية وإمّا نقص.

وهذا الموضع يلتبس على كثير من السالكين، فيظنون أنّ الطريقة الكاملة أن لا يكون للعبد إرادة أصلاً، وأن قول أبي يزيد: «أريد أن لا أريد» لمّا قيل له: «ماذا تريد؟» نقص وتناقض، لأنّه قد أراد، ويحملون كلام المشايخ الذين يُمدحون بترك الإرادة على ترك الإرادة مطلقاً.

وهذا غلط منهم على الشيوخ المستقيمين، وإن كان من الشيوخ من يأمر بترك الإرادة مطلقاً، فإنّ هذا غلط ممن قاله، فإن ذلك ليس بمقدور ولا مأمور. =

Marfat.com

. . . . . .

= فإنّ الحي لا بد له من إرادة، فلا يكون حي من الناس إلّا أن تكون له إرادة. وأمّا الأمر فإنّ الإرادة التي يحبّها الله ورسوله، ويأمر بها أمر إيجاب أو امر استحباب، لا يدعها إلّا كافر أو فاسق أو عاصٍ إن كانت واجبة، وإن كانت مستحبة كان تاركها تاركاً لما هو خيرٌ له.

والله تعالى قد وصف الأنبياء والصدّيقين بهذه الإرادة، فقال تعالى: ﴿وَلاَ تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ﴾ [سورة الأنعام: ٥٢]، وقال تعالى: ﴿وَمَا لأَحَدٍ عِنْدَهُ مِنْ نِّعْمَةٍ تُجزى * إلاَّ ابْتِغَاء وَجْهِ رَبِّهِ الأَعْلَى﴾ [الليل: ١٩، ٢٠] وقال تعالى: ﴿إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ الله لاَ نُرِيدُ مِنْكُمْ جَزَاء ولاَ شُكُوراً﴾ [الإنسان: ٩]، وقال تعالى: ﴿وَإِنْ كُنتُنَّ تُرِدْنَ الله وَرَسُولَهُ والدَّارَ الآخِرَةَ فَإِنَّ الله أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَاتِ مِنكُنَّ أَجْراً عَظِيماً﴾ [الأحزاب: ٢٩]، وقال تعالى: ﴿وَمَنْ أَرَادَ الآخرةَ وَسَعَى لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ كَانَ سَعْيُهُمْ مَشْكُوراً﴾ [الإسراء: ١٩]، وقال تعالى: ﴿فاعْبُدُ الله مُخْلِصاً لَهُ الدِّينَ﴾ [الزمر: ٢]، وقال تعالى: ﴿قُلِ الله أَعْبُدُ مُخْلِصاً لَهُ دِينِي﴾ [سورة الزمر: ١٤] وقال تعالى: ﴿وَاعْبُدُوا الله وَلاَ تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئاً﴾ [النساء: ٣٦]، وقال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الجِنَّ والإِنْسَ إلاَّ لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦].

ولا عبادة إلّا بإرادة الله ولما أمر به قال تعالى: ﴿بَلَى مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لله وَهُوَ مُحْسِنٌ﴾ [البقرة: ١١٢] أي أخلص قصده لله. وقال تعالى: ﴿وَمَا أُمِرُوا إلاَّ لِيَعْبُدُوا الله مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ [البيّنة: ٥] وإخلاص الدين له هو إرادته وحده بالعبادة.

وقال تعالى: ﴿يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ﴾ [المائدة: ٥٤]، وقال: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبّاً لله﴾ [البقرة: ١٦٥]، وقال تعالى: ﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ الله فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ الله﴾ [آل عمران: ٣١]. وكل محب فهو مريد.

وقال الخليل عليه السلام: ﴿لاَ أُحِبُّ الآفِلِينَ﴾ [الأنعام: ٧٦] ثم قال: ﴿إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمواتِ وَالأَرْضَ حَنِيفاً وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام: ٧٩]. =

Marfat.com

. . . . . .

= ومثل هذا كثير في القرآن، يأمر الله بإرادته وإرادة ما يأمر به، وينهى عن إرادة غيره، وإرادة ما نهى عنه. وقد قال النبي ﷺ: «إنّما الأعمال بالنيات وإنّما لكل امرىء ما نوى، فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله فهجرته إلى الله ورسوله، ومن كانت هجرته إلى دنيا يصيبها أو إمرأة يتزوجها، فهجرته إلى ما هاجر إليه».

فهما إرادتان: إرادة يحبها الله ويرضاها، وإرادة لا يحبها ولا يرضاها، بل إمّا نهى عنها وإمّا لم يأمر بها ولا ينهى عنها.

والناس في الإرادة ثلاثة أقسام:

قوم يريدون ما يهوونه، فهؤلاء عبيد أنفسهم والشيطان.

وقوم يزعمون أنّهم فرغوا عن الإرادة مطلقاً، ولم يبقَ لهم مراد إلّا ما يقدّره الرب، وأن هذا المقام هو أكمل المقامات. ويزعمون أنّ من قام بهذا فقد قام بالحقيقة، وهي الحقيقية القدرية الكونية، وأنّه شهد القيومية العامة، ويجعلون الفناء في شهود توحيد الربوبية هو الغاية، وقد يسمون هذا: الجمع والفناء والاصطلام ونحو ذلك، وكثير من الشيوخ زلقوا في هذا الموضع.

وفي هذا المقام كان النزاع بين الجنيد بن محمد وبين طائفة من أصحابه الصوفية، فإنّهم اتفقوا على شهود توحيد الربوبية، وأنّ الله خالق كل شيء وربه ومليكه، وهو شهود القدر، وسموا هذا مقام الجمع. فإنّه خرج به عن الفرق الأول، وهو الفرق الطبيعي بإرادة هذا وكراهة هذا، ورؤية فعل هذا وترك هذا، فإنّ الإنسان قبل أن يشهد هذا التوحيد يرى للخلق فعلاً يتفرّق به قلبه في شهود أفعال المخلوقات، ويكون متبعاً لهواه فيما يريده، فإذا أراد الحق خرج بإرادته عن إرادة الهوى والطبع، ثم يشهد أنّه خالق كل شيء، فخرج بشهود هذا الجمع عن ذاك الفرق، فلمّا اتفقوا على هذا ذكر لهم الجنيد بن محمد الفرق الثاني، وهو بعد هذا الجمع، وهو الفرق الشرعيُ: ألّا ترى أنّك تريد ما أُمرت به، ولا تريد ما نُهيت عنه، وتشهد أنّ الله هو [الذي] يستحق العبادة دون ما سواه وأنّ عبادته هي بطاعة رسله، فتفرّق بين المأمور والمحظور وبين أوليائه وأعدائه، وتشهد توحيد الألوهية؟ =

. . . . . .

= فنازعوه في هذا الفرق: منهم من أنكره، ومنهم من لم يفهمه، ومنهم من ادّعى أنّ المتكلم فيه لم يصل إليه. ثم إنّك تجد كثيراً من الشيوخ إنّما ينتهي إلى ذلك الجمع، وهو توحيد الربوبية والفناء فيه، كما في كلام صاحب «منازل السائرين» مع جلالة قدره، مع أنّه قطعاً كان قائماً بالأمر والنهي المعروفَيْن.

لكن قد يدّعون أنّ هذا لأجل العامة، ومنهم من يتناقض، ومنهم من يقول: الوقوف مع الأمر لأجل مصلحة العامة، وقد يعبر عنهم بأهل المارستان.

ومنهم من يسمّي ذلك مقام التلبيس.

ومنهم من يقول: إنّما التكليف على الإنسان ما دام عبداً، فإذا ترقّى من منزلة العبودية إلى منزلة الحرية سقط عنه التكليف، فلا يبقى عليه تكليف، لأنّ الحر لا تكليف عليه لأحد.

ومنهم من يقول: التحقيق أن يكون الجمع في قلبك مشهوداً، والفرق على لسانك موجوداً فيشهد بقلبه استواء المأمور والمحظور، مع تفريقه بلسانه بينهما.

ومنهم من يرى أنّ هذه هي الحقيقة، التي هي منتهى سلوك العارفين، وغاية منازل الأولياء الصدّيقين.

ومنهم من يظن أنّ الوقوف مع إرادة الأمر والنهي يكون في السلوك والبداية. وأمّا في النهاية فلا تبقى إلّا إرادة القدر. وهو في الحقيقة قولٌ بسقوط العبادة والطاعة، فإنّ العبادة لله والطاعة له ولرسوله إنّما تكون في امتثال الأمر الشرعي، لا في الجري مع المقدور وإن كان كفراً وفسوقاً وعصياناً.

ومن هنا صار كثير من السالكين من أعوان الكفّار والفجّار وخفرائهم، حيث شهدوا القدر معهم، ولم يشهدوا الأمر والنهي الشرعيين. ومن هؤلاء من يقول: من شهد القدر سقط عنه الملام، ويقول: إنّ الخضر إنّما سقط عنه الملام لمّا شهد القدر.

وأصحاب شهود القدر قد يؤتى أحدهم ملكاً من جهة خرق العادة بالكشف والتصرف، فيظن ذلك كمالاً في الولاية، وتكون تلك الخوارق إنّما حصلت بأسباب شيطانية وأهواء نفسانية، وإنّما الكمال في الولاية أن يُستعمل خرق العادات في إقامة =

Marfat.com

. . . . . .

الأمر والنهي الشرعيين، مع حصولها بفعل المأمور وترك المحظور، فإذا حصلت بغير الأسباب الشرعية فهي مذمومة، وإن حصلت بالأسباب الشرعية، لكن استُعملت ليُتوصل بها إلى محرَّم كانت مذمومة، وإن تُوصِّل بها إلى مباح لا يُستعان بها على طاعةٍ كانت للأبرار دون المقرَّبين، وأمّا إن حصلت بالسبب الشرعي، واستعين بها على فعل الامر الشرعي، فهذه خوارق المقرَّبين السابقين.

فلا بد ان يُنظر في الخوارق في أسبابها وغاياتها: من أين حصلت؟ وإلى ماذا أوصلت؟ كما يُنظر في الأموال: في مستخرجها ومصروفها ومن استعملها ـ أعني الخوارق ـ في إرادته الطبيعية كان مذموماً.

ومن كان خالياً عن الإرادتين الطبيعية والشرعية فهذا حسبه أن يُعفى عنه، لكونه لم يعرف الإرادة الشرعية، وأمّا إن عرفها وأعرض عنها، فإنّه يكون مذموماً مستحقاً للعقاب إن لم يُعف عنه، وهو يُمدح بكون إرادته ليست بهواه، لكن يجب مع ذلك أن تكون موافقةً لأمر الله ورسوله، لا يكفيه أن تكون لا من هذا ولا من هذا، مع أنّه لا يمكن خلوه عن الإرادة مطلقاً، بل لا بد له من إرادة، فإن لم يرد ما يحبُّه الله ورسوله أراد مالا يحبه الله ورسوله، لكن إذا جاهد نفسه على ترك ما يهواه، بقي مريداً لما يظن أنّه مأمور به، فيكون ضالاً.

فإن هذا يشبه حال الضالين من النصارى. وقد قال تعالى: ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ * صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ﴾ [الفاتحة: ٦، ٧] قد قال النبي ﷺ: «اليهود: مغضوب عليهم والنصارى: ضالّون».

فاليهود لهم إرادات فاسدة منهي عنها، كما أُخبر عنهم بأنّهم عصوا وكانوا يعتدون، وهم يعرفون الحق ولا يعملون به، فلهم علم، لكن ليس لهم عمل بالعلم، وهم في الإرادة المذمومة المحرَّمة يتّبعون أهواءهم، ليسوا في الإرادة المحمودة المأمور بها، وهي إرادة ما يحبه الله ورسوله.

والنصارى لهم قصد وعبادة وزهد، لكنهم ضُلّال يعملون بغير علم، فلا =

. . . . . .

يعرفون الإرادة التي يحبها الله ورسوله، بل غاية أحدهم تجريد نفسه عن الإرادات، فلا يبقى مريداً لما أمر الله به ورسوله، كما لا يريد كثيراً مما نهى الله عنه ورسوله.

وهؤلاء ضالون عن مقصودهم، فإنّ مقصودهم إنّما هو في طاعة الله ورسوله. ولهذا كانوا ملعونين، أي بعيدين عن الرحمة التي تُنال بطاعة الله عزّ وجلّ.

والعالِمُ الفاجرُ يشبه اليهود، والعابد الجاهل يشبه النصارى. ومن أهل العلم من فيه شيء من الأوّل، ومن أهل العبادة من فيه شيء من الثاني. وهذا الموضع تفرّق فيه بنو آدم وتباينوا تبايناً عظيماً لا يحيط به إلاّ الله، ففيهم من لم يخلق الله خلقاً أكرم عليه منه، وهو خير البرية، ومنهم من هو شر البرية.

وأفضل الأحوال فيه حالُ الخليلين: إبراهيم ومحمد صلى الله عليهما وسلم. ومحمد سيد ولد آدم، وأفضل الأوّلين والآخرين، وخاتم النبيين، وإمامهم إذا اجتمعوا، وخطيبهم إذا وفدوا، وهو المعروج به إلى ما فوق الأنبياء كلهم: إبراهيم وموسى وغيرهما.

وأفضل الأنبياء بعده إبراهيم، كما ثبت في «الصحيح» عن أنس بن مالك، عن النبي ﷺ أنّ إبراهيم خير البرية.

وقد ثبت في «صحيح مسلم» عن جابر، عن النبي ﷺ أنّه كان يقول في خطبة يوم الجمعة: «خير الكلام كلام الله، وخير الهدى هدى محمدٍ». وكذلك كان عبدالله بن مسعود يخطب بذلك يوم الخمس كما رواه البخاري في «صحيحه».

وقد ثبت في «الصحيحين» عن عائشة قالت: ما ضرب رسول الله ﷺ بيده خادماً له، ولا إمرأة ولا دابة ولا شيئاً قط، إلاّ أن يجاهد في سبيل الله، وما نيل منه قط شيء فانتقم لنفسه، إلاّ أن تُنتهك محارم الله، فإذا انتُهكت محارم الله لم يقم لغضبه شيء حتى ينتقم لله.

وقال أنس خدمت رسول الله ﷺ عشر سنين فما قال لي: أفٍ قط، وما قال لي لشيء فعلته: لم فعلته؟ ولا لشيء لم أفعله: لم لا فعلته؟ وكان بعض أهله إذا عتبني على شيء قال: «دعوه فلو قُضي شيء لكان». =

Marfat.com

. . . . . .

= ورسول الله ﷺ هو أفضل الخلائق، وسيد ولد آدم، وله الوسيلة في المقامات كلها، ولم يكن حاله أنّه لا يريد شيئاً، ولا أنّه يريد كل واقع، كما أنّه لم يكن حاله أنّه يتبع الهوى، بل هو منزَّه عن هذا وهذا.

قال تعالى: ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ الهَوَى * إِنْ هُوَ إِلاَّ وَحْيٌ يُوحَى﴾ [النجم: ٣] وقال تعالى: ﴿وَأَنَّهُ لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللهِ يَدْعُوهُ﴾ [الجن: ١٩]. وقال: ﴿وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَى عَبْدِنَا﴾ [البقرة: ٢٣]، وقال: ﴿سُبْحَانَ الذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلاً﴾ [الإسراء: ١]. والمراد بعبده: عابده المطيع لأمره، وإلاّ فجميع المخلوقين عبادٌ بمعنى أنّهم مُعَبَّدون مخلوقون مُدَبَّرون.

وقد قال الله تعالى لنبيه: ﴿وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ﴾ [الحجر: ٩٩]. قال الحسن البصري: «لم يجعل الله لعمل المؤمن أجلاً دون الموت».

وقد قال الله تعالى له: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ [القلم: ٤] قال ابن عبّاس - ومن وافقه كابن عيينة وأحمد بن حنبل -: «على دين عظيم» والدين فعل ما أمر به.

وقالت عائشة: «كان خُلُقُه القرآن» رواه مسلم، وقد أخبرت أنّه لم يكن يعاقب لنفسه ولا ينتقم لنفسه، لكن يعاقب لله وينتقم لله، وكذلك أخبر أنس أنّه كان يعفو عن حظوظه.

وأمّا حدود الله فقد قال: «والذي نفسي بيده لو أنّ فاطمة بنت محمد سرقت لقطعت يدها» أخرجاه في «الصحيحين».

وهذا هو كمال الإرادة، فإنّه أراد ما يحبه الله ويرضاه من الإيمان والعمل الصالح وأمر بذلك، وكره ما يبغضه الله من الكفر والفسوق والعصيان ونهى عن ذلك، كما وصفه الله تعالى بقوله: ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ، فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ، وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ، وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ * الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوباً عِندَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنجِيلِ، يَأْمُرُهُمْ بِالمَعْرُوفِ، وَيَنْهَاهُمْ عَنِ المُنْكَرِ، وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ، وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الخَبَائِثَ، وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالأَغْلاَلَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ، فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ، وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنْزِلَ مَعَهُ، أُولَئِكَ هُمُ المُفْلِحُونَ﴾ [سورة الأعراف: ١٥٦، ١٥٧]. =

Marfat.com

. . . . . .

= وأما لحظ لنفسه فلم يكن يعاقب ولا ينتقم، بل يستوفى حق ربه ويعفو عن حظ نفسه، وفي حظ نفسه ينظر إلى القدر فيقول: «لو قُضي شيء لكان». وفي حق الله يقوم بالأمر فيفعل ما أمره الله به، ويجاهد في سبيل الله أكمل الجهاد الممكن، فجاهدهم أولاً بلسانه بالقرآن الذي أُنزل عليه.

كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَبَعَثْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ نَذِيراً * فَلَا تُطِعِ الكَافِرِينَ وَجَاهِدْهُمْ بِهِ جِهَاداً كَبِيراً﴾ [الفرقان: ٥١، ٥٢].

ثم لما هاجر إلى المدينة وأُذن له في القتال، جاهدهم بيده.

وهذا مطابق لما اخرجاه في «الصحيحين» عن أبي هريرة وهو معروف ايضاً من حديث عمر بن الخطاب، عن النبي ﷺ في حديث احتجاج آدم وموسى، لما لامَ موسى آدمَ لكونه أخرج نفسه وذريته من الجنة بالذنب الذي فعله، فأجابه آدمُ بأنّ هذا كان مكتوباً عليَّ قبل أن أُخلق بمدة طويلة. قال النبي ﷺ: «فحجَّ آدمُ موسى».

وذلك لأنّ ملام موسى لآدم لم يكن لحق الله، وإنّما كان لما لحقه وغيره من الآدميين من المصيبة بسبب ذلك الفعل، فذكر له آدم أنّ هذا كان أمراً مقدّراً لا بدّ من كونه، والمصائب التي تصيب العباد يُؤمرون فيها بالصبر، فإنّ هذا هو الذي ينفعهم. وأمّا لومهم لمن كان سبباً فيها فلا فائدة لهم في ذلك. وكذلك ما فاتهم من الأمور التي تنفعهم، يؤمرون في ذلك بالنظر إلى القدر، وأمّا التأسّف والحزن فلا فائدة فيه، فما جرى به القدر من فَوْت منفعة لهم، أو حصول مضرة لهم، فلينظروا في ذلك إلى القدر، وأمّا ما كان بسبب أعمالهم فليجتهدوا في التوبة من المعاصي والإصلاح في المستقبل، فإنّ هذا الأمر ينفعهم، وهو مقدور لهم بمعونة الله لهم.

وفي «صحيح مسلم» عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ أنّه قال: «المؤمن القوي خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف، وفي كل خير. احرص على ما ينفعك واستعن بالله ولا تعجز، وإن أصابك شيء فلا تقل: لو أني فعلت لكان كذا وكذا، ولكن قل: قدّر الله وما شاء فعل، فإن لو تفتح عمل الشيطان».

أمر النبي ﷺ بحرص العبد على ما ينفعه والاستعانة بالله، ونهاه عن العجز. =

Marfat.com

. . . . . .

= وأنفع ما للعبد طاعة الله ورسوله، وهي عبادة الله تعالى. وهذان الأصلان هما حقيقة قوله تعالى: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الفاتحة: ٥]، ونهاه عن العجز، وهو الإضاعة والتفريط والتواني، كما قال في الحديث الآخر: «الكيِّس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت، والعاجز من اتبع نفسه هواها وتمنَّى على الله الأماني» رواه الترمذي.

وفي «سنن أبي داود» أنّ رجلين تحاكما إلى النبي ﷺ، فقضى على أحدهما، فقال المقضي عليه: حسبيَ الله ونعم الوكيل، فقال النبي ﷺ: «إن الله يلوم على العجز، ولكن عليك بالكَيْس، فإذا غلبك أمر فقل: حسبي الله ونعم الوكيل» فالكَيْس ضد العجز.

وفي الحديث: «كل شيء بقدر حتى العجز والكَيْس» رواه مسلم.

وليس المراد بالعجز في كلام النبي ﷺ ما يُضاد القدرة، فإن من لا قدرة له بحال لا يُلام، ولا يُؤمر بما لا يقدر عليه بحال. ثم لما أمره بالاجتهاد والاستعانة بالله ونهاه عن العجز، أمره إذا غلبه أمرٌ أن ينظر إلى القدر ويقول: قدَّر الله وما شاء فعل، ولا يتحسَّر ويتلهف ويحزن، ويقول: لو أني فعلت كذا وكذا لكان كذا وكذا، فإن لو تفتح عمل الشيطان.

وقد قال بعض الناس في هذا المعنى: الأمر أمران: أمرٌ فيه حيلة، وأمر لا حيلة فيه، فما فيه حيلة لا تعجز عنه، وما لا حيلة فيه لا تجزع منه. وهذا هو الذي يذكره أئمة الدين كما ذكر الشيخ عبدالقادر وغيره، فإنّه لا بد من فعل المأمور، وترك المحظور، والرضا أو الصبر على المقدور.

وقد قال تعالى حكاية عن يوسف: ﴿أَنَا يُوسُفُ وَهَٰذَا أَخِي، قَدْ مَنَّ اللهُ عَلَيْنَا، إِنَّهُ مَنْ يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [يوسف: ٩٠]، فالتقوى تتضمن فعل المأمور وترك المحظور، والصبر يتضمن الصبر على المقدور.

وقد قال تعالى: ﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا بِطَانَةً مِّن دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا وَدُّوا مَا عَنِتُّمْ، قد بدت البغضاء من أفواههم، وما تُخْفِي صُدُورُهُمْ أكبرُ، قد بَيَّنَّا لكم الآيات إن كنتم تعقلون * ها أنتم أولاء تحبونهم ولا يحبونكم، وتؤمنون =

Marfat.com

. . . . . .

5 =بالكتاب كله، وإذا لقوكم قالوا: آمنا، وإذا خلَوْا عضوا عليكم الأنامل من الغيظِ، قل: موتوا بغيظكم، إنّ الله عليم بذات الصُدور * إن تمسسكم حسنةٌ تسؤهم، وإن تصبكم سيئةٌ يفرحوا بها، وَإنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا لاَ يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئاً إنّ الله بما يعملون محيطٌ﴾ [آل عمران: ١١٨ ـ ١٢٠] فبيّن سبحانه أنّه مع التقوى والصبر لا يضر المؤمنين كيد أعدائهم المنافقين.

وقال تعالى: ﴿بَلَى إن تَصْبِرُوا وتَتَّقُوا وَيَأْتُوكُمْ مِّن فَوْرِهِمْ هذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُمْ بِخَمْسَةِ آلاَفٍ مِّنَ المَلائِكَةِ مُسَوِّمِينَ﴾ [آل عمران: ١٢٥] فبيّن أنّه مع الصبر والتقوى يمدّهم بالملائكة وينصرهم على أعدائهم الذين يقاتلونهم.

وقال تعالى: ﴿لَتُبْلَوُنَّ فِي امْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الكِتَابَ من قَبْلِكُمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا أَذًى كَثِيراً وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ذلِكَ مِنْ عَزْمِ الأُمُورِ﴾ [آل عمران: ١٨٦] فأخبرهم أن أعداءهم من المشركين وأهل الكتاب لا بد أن يؤذوهم بألسنتهم، وأخبر أنّهم إن يصبروا ويتقوا فإنّ ذلك من عزم الأمور، فالصبر والتقوى يدفع شر العدو المظهر للعداوة، [وهم] المؤذون بالسنتهم والمؤذون بأيديهم، وشر العدو المبطن للعداوة وهم المنافقون.

وهذا الذي كان [من] خُلق الرسول ﷺ وهديه، هو أكمل الأمور. فأمّا من أراد ما يحبه الله تارة وما لا يحبه تارةً، أو لم يرد لا هذا ولا هذا، فكلاهما دون خُلق رسول الله ﷺ، وإن لم يكن على واحد منهما إثم، كالذي يريد ما أُبيحَ له من نَيْل الشهوة المباحة والغضب والانتقام المباح، كما هو خلق بعض الأنبياء والصالحين، فهو وإن كان جائزاً لا إثم فيه، فخلق رسول الله ﷺ أكمل منه.

وكذلك من لم يرد الشهوات المباحة، وإن كان يستعان بها على أمر مستحب، ولم يُرد أن يغضب وينتقم ويجاهد إذا جاز العفو وإن كان الانتقام لله ارضى لله، كما هو أيضاً خلق بعض الأنبياء والصالحين، فهذا وإن كان جائزاً لا إثم فيه، فخُلق رسول الله ﷺ أكمل منه.

وهذا والذي قبله إذا كان شريعة لنبي، فلا عيب على نبي فيما شرع الله له، =

لكن قد فضّل الله بعض النبيين على بعض، وفضَّل بعض الرسل على بعض.

والشريعة التي بُعث بها محمد ﷺ أفضل الشرائع، إذ كان محمد ﷺ أفضل الأنبياء والمرسلين، وامّته خير امّة أُخرجت للناس.

قال أبو هريرة في قوله: ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخرجت لِلنَّاس﴾ [آل عمران: ١١٠]: «كنتم خير الناس للناس، تأتون بهم في الأقياد والسلاسل حتى تُدخلوهم الجنة»: يبذلون انفسهم واموالهم في الجهاد لنفع الناس، فهم خير الأمم للخلق.

والخلق عيالُ الله، فأحبهم إلى الله أنفعهم لعياله. وأمّا غير الأنبياء فمنهم من يكون ذلك شرعةً لاتّباعه لذلك النبي، وامّا من كان من أهل شريعة محمد ﷺ ومنهاجه، فإن كان ما تركه واجباً عليه وما فعله محرّماً عليه، كان مستحقاً للذم والعقاب، إلاّ أن يكون متأوّلاً مخطِئاً، فالله قد وضع عن هذه الأمة الخطأ والنسيان، وذنب أحدهم قد يعفو الله عنه بأسباب متعددة.

ومن أسباب هذا الانحراف، أن من الناس من تغلّب عليه طريقة الزهد في إرادة نفسه، فيزهد في موجب الشهوة والغضب، كما يفعل ذلك من يفعله من عُبَّاد المشركين وأهل الكتاب، كالرهبان وأشباههم. وهؤلاء يَرْون الجهاد نقصاً لما فيه من قتل النفوس وسبي الذرية وأخذ الأموال، ويَروْن أنّ الله لم يجعل عمارة بيت المقدس على يد داود، لأنّه جرى على يديه سفك الدماء، ومنهم من لا يرى ذبح شيء من الحيوان، كما عليه البراهمة، ومنهم من لا يحرِّم ذلك، لكنّه يتقرّب إلى الله بأن لا يذبح حيواناً ولا يأكل لحمه، بل ولا ينكح النساء، ويقول في مُمادحه: فلان ما نكح ولا ذبح.

وقد انكر النبي ﷺ على هؤلاء. كما في «الصحيحين» عن انس أنّ نفراً من أصحاب النبي ﷺ سالوا ازواج النبي ﷺ عن عمله في السرّ. فقال بعضهم: لا اتزوج النساء. وقال بعضهم: لا آكل اللحم. وقال بعضهم: لا انام على فراش. فبلغ ذلك النبي ﷺ، فحمد الله واثنى عليه وقال: «ما بالُ أقوام قالوا كذا وكذا، لكنّي اصلي وانام، واصوم وافطر، واتزوج النساء، وآكل اللحم، فمن رغب عن سنتي فليس مني».

. . . . . .

= وقد قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُحَرِّمُوا طَيِّبَاتِ مَا أَحَلَّ اللهُ لَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾ [المائدة: ٨٧]، نزلت في عثمان بن مظعون وطائفة معه: كانوا قد عزموا على التبتل ونوع من الترهّب.

وفي «الصحيحين» عن سعد أنّه قال: «ردَّ رسول الله ﷺ على عثمان بن مظعون التبتل، ولو أذن له لاختصينا».

والزهد النافع المشروع الذي يحبه الله ورسوله هو الزهد فيما لا ينفع في الآخرة، فأمّا ما ينفع في الآخرة وما يُستعان به على ذلك، فالزهد فيه زهد في نوع من عبادة الله وطاعته، والزهد إنّما يُراد لأنّه زهد فيما يضر، أو زهد فيما لا ينفع، فأمّا الزهد في النافع فجهل وضلال. كما قال النبي ﷺ: «احرص على ما ينفعك واستعن بالله ولا تعجز».

والنافع للعبد هو عبادة الله وطاعته وطاعة رسوله، وكل ما صدّه عن ذلك فإنّه ضار لا نافع، ثم الأنفع له أن تكون كل أعماله عبادة لله وطاعة له، وإن أدّى الفرائض وفعل مباحاً لا يعينه على الطاعة، فقد فعل ما ينفعه وما لا ينفعه ولا يضرّه.

وكذلك الورع المشروع هو الورع عمّا قد تُخاف عاقبته، وهو ما يُعلم تحريمه وما يُشك في تحريمه وليس في تركه مفسدة أعظم من فعله، مثل فعل محرم يتعين، مثل من يترك أخذ الشبهة ورعاً مع حاجته إليها، ويأخذ بدل ذلك محرَّماً بيّناً تحريمه، أو يترك واجباً تركه أعظمُ فساداً من فعله مع الشبهة، كمن يكون على أبيه أو عليه ديون هو مطالب بها، وليس له وفاء إلّا من مال فيه شبهة فيتورع عنها، ويدع ذمته وذمة أبيه مرتهنة.

وكذلك من الورع الاحتياط بفعل ما يُشك في وجوبه، لكن على هذا الوجه. وتمام الورع أن يعلم الإنسان خير الخيرين وشرّ الشرين، ويعلم أن الشريعة مبناها على تحصيل المصالح وتكميلها، وتعطيل المفاسد وتقليلها، وإلّا فمن لم يوازن ما في الفعل والترك من المصلحة الشرعية والمفسدة الشرعية، فقد يدع واجبات ويفعل محرّمات، ويرى ذلك من الورع. كمن يدع الجهاد مع الأمراء الظلمة، ويرى ذلك ورعاً، ويدع الجمعة والجماعة خلف الأئمة الذين فيهم بدعة أو فجور، ويرى ذلك =

Marfat.com

. . . . . .

من الورع، ويمتنع عن قبول شهادة الصادق وأخذ علم العالم، لما في صاحبه من بدعةٍ خفيةٍ، ويرى ترك قبول سماع هذا الحق الذي يجب سماعه من الورع.

وكذلك الزهد والرغبة: من لم يراع ما يحبه الله ورسوله من الرغبة والزهد، وما يكرهه من ذلك، وإلّا فقد يدع واجبات ويفعل محرمات، مثل من يدع ما يحتاج إليه من الأكل أو أكل الدسم حتى يفسد عقله، أو تضعف قوته عمّا يجب عليه من حقوق الله وحقوق عباده، أو يدع الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والجهاد في سبيل الله، لما في فعل ذلك من أذي بعض الناس والانتقام منهم، حتى يستولي الكفّارُ والفجّارُ على الصالحين الأبرار، فلا ينظر المصلحة الراجحة في ذلك.

وقد قال تعالى: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ وَصَدٌّ عَن سَبِيلِ اللهِ وَكُفْرٌ بِهِ وَالْمَسْجِدِ الحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِ مِنْهُ أَكْبَرُ عِندَ اللهِ والْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ الْقَتْلِ﴾ [البقرة: ٢١٧]، يقول سبحانه: وإن كان قتل النفوس فيه شر، فالفتنة الحاصلة بالكفر وظهور أهله أعظم من ذلك، فيُدفع أعظم الفسادين بالتزام أدناهما.

وكذلك الذي يدع ذبح الحيوان أو يرى أنّ في ذبحه ظلماً له هو جاهل، فإنّ هذا الحيوان لا بد أن يموت، فإذا قُتِلَ لمنفعة الآدميين وحاجتهم كان خيراً من أن يموت موتاً لا ينتفع به أحد. والآدمي أكمل منه، ولا تتم مصلحته إلّا باستعمال الحيوان في الأكل والركوب ونحو ذلك، لكن ما لا يُحتاج إليه من تعذيبه نهى الله عنه، كصبر البهائم وذبحها في غير الحلق واللبة مع القدرة على ذلك، وأوجب الله الإحسان بحسب الإمكان فيما أباحه من القتل والذبح، كما في «صحيح مسلم» عن شدّاد بن أوس عن النبي ﷺ أنّه قال: «إن الله كتب الإحسان على كل شيء، فإذا قتلتم فأحسنوا القتلة، وإذا ذبحتم فأحسنوا الذبحة، وليحدّ أحدكم شفرته، وليرح ذبيحته».

وهؤلاء الذين زهدوا في الإرادات، حتى فيما يحبه الله ورسوله من الإرادات، بإزائهم طائفتان: طائفة رغبت فيما كره الله ورسوله الرغبة فيه من الكفر والفسوق والعصيان، وطائفة رغبت فيما أمر الله ورسوله، لكن لهوى انفسهم لا لعبادة الله،

. . . . . .

= وهؤلاء الذين يأتون بصور الطاعات مع فساد النيات، كما في «الصحيحين» عن النبي ﷺ، أنّه قيل له: يا رسول الله: الرجل يقاتل شجاعة، ويقاتل حميَّةً ويقاتل رياء، فأيّ ذلك في سبيل الله؟ فقال: من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله».

قال الله تعالى: ﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ يُخَادِعُونَ اللهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ وَإِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلَاةِ قَامُوا كُسَالَى يُرَاؤُونَ النَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ اللهَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [النساء: ١٤٢]، وهؤلاء أهل إرادات فاسدة مذمومة، فهم مع تركهم الواجب فعلوا المحرم، وهؤلاء يشبهون اليهود كما يشبه أولئك النصارى.

قال تعالى: ﴿ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ أَيْنَمَا ثُقِفُوا إِلَّا بِحَبْلٍ مِنَ اللهِ وَحَبْلٍ مِنَ النَّاسِ وَبَاؤُوا بِغَضَبٍ مِنَ اللهِ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الْمَسْكَنَةُ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللهِ وَيَقْتُلُونَ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ﴾ [آل عمران: ١١٢].

وقال تعالى: ﴿سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ، وَإِنْ يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لَا يُؤْمِنُوا بِهَا، وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا، وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الْغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا﴾ [الأعراف: ١٤٦].

وقال تعالى: ﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ * وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَثْ، ذَلِكَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الأعراف: ١٧٥، ١٧٦].

فهؤلاء يتبعون أهواءهم غياً مع العلم بالحق، واولئك يتبعون أهواءهم مع الضلال والجهل بالحق. كما قال تعالى: ﴿لَا تَتَّبِعُوا أَهْوَاءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا مِن قَبْلُ وَأَضَلُّوا كَثِيراً وَضَلُّوا عَن سَوَاءِ السَّبِيلِ﴾ [المائدة: ٧٧]، وكلا الطائفتين تاركة ما أمر الله ورسوله به من الإرادات والأعمال الصالحة، مرتكبة لما نهى الله ورسوله عنه من الإرادات والأعمال الفاسدة.

Marfat.com

وهـذا إنّما يكون في حالة الفناء لا غير، فإذا فنيت عنك وعن الخلق؛ والخلق إنّما هو خير وشر، وكذلك أنت خير وشر، فَلِمَ ترجو خيرهم، ولا تخاف شرهم، بقي الله وحـده كما كان، ففي قدر الله خير وشر، فيؤمنـك من شره ويغرقك في بحار خيره، فتكون وعاء كل خير، ومنبعاً لكل نعمة وسرور وحبور وضياء أمن وسكون.

فللفناء والمنى والمبتغى والمنتهى حد ومرد ينتهي إليه مسير الأولياء، وهو الاستقامة التي طلبها من تقدم من الأولياء والأبدال أن يفنوا عن إرادتهم، وتبدل

فصـل

فأمْـرُ الشيخ عبـدالقـادر، وشيخـه حماد الـدبّاس وغيرهما من المشايخ أهل الاستقامة رضي الله عنهم بأنّه لا يريد السالك مراداً قط، وأنّه لا يريد مع إرادة الله عزّ وجلّ سواها، بل يجري فعله فيه فيكون هو مراد الحق: إنّما قصدوا به فيما لم يعلم العبد أمر الله ورسوله فيه، فأمّا ما علم أنّ الله أمر به، فعليه أن يريده ويعمل به، وقد صرّحوا بذلك في غير موضع، وإن كان غيرهم من الغالطين يرى القيام بالإرادة الخلقية هو الكمال، وهو الفناء في توحيد الربوبية، وأنّ السلوك إذا انتهى إلى هذا الحد، فصاحبه إذا قام بالأمر فلأجل غيره، أو أنّه لا يحتاج أن يقوم بالأمر، فتلك أقوال وطرائق فاسدة، قد تُكُلِّم عليها في غير هذا الموضع.

فأمّا المستقيمون من السالكين، كجمهور مشايخ السلف، مثل الفضيل بن عيّاض، وإبـراهيم بن أدهم، وأبي سليمان الـداراني ومعـروف الكرخي، والسري السقطي، والجنيد بن محمد، وغيرهم من المتقدمين، ومثل الشيخ عبدالقادر، والشيخ حماد، والشيخ أبي البيان، وغيرهم من المتأخرين، فهم لا يسوّغون للسالك، ولو طار في الهواء أو مشى على الماء، ان يخرج عن الأمر والنهي الشرعيين، بل عليه ان يفعل المامور ويدع المحظور إلى ان يموت، وهذا هو الحق الذي دلّ عليه الكتاب والسنّة وإجماعُ السلف.

Marfat.com

بإرادة الحق عزّ وجلّ، فيريدون بإرادة الحق أبداً إلى الوفاة، فلهذا سموا أبداً رضي الله عنهم، فذنوب هؤلاء السادة أن يشركوا إرادة الحق بإرادتهم على وجه السهو والنسيان وغلبة الحال والدهشة، فيدركهم الله تعالى برحمته بالتذكرة واليقظة، فيرجعوا عن ذلك ويستغفروا ربهم، إذ لا معصوم عن الإرادة إلاّ الملائكة، عُصموا عن الإرادة، والأنبياء عُصموا عن الهوى، وبقية الخلق من الإنس والجن المكلفين لم يُعصموا منهما، غير انّ الأولياء بعضهم يحفظون عن الهوى، والأبدال عن الإرادة، ولا يعصمون منهما على معنى يجوز في حقهم الميل اليهما في الأحيان، ثم يتداركهم الله عزّ وجلّ باليقظة برحمته.

Marfat.com

في إذهاب غمّ القلب

قال رضي الله عنه وأرضاه:

أخرج من نفسك وتنح عنها، وانعزل عن ملكك، وسلم الكل إلى الله، فكن بوابه على باب قلبك، وامتثل أمره في إدخال من يأمرك بإدخاله، وانته بنهيه في صد من يأمرك بصده، فلا تدخل الهوى قلبك بعد أن أخرج منه، فإخراج الهوى من القلب بمخالفته، وترك متابعته في الأحوال كلها، وإدخاله في القلب بمتابعته وموافقته، فلا ترد إرادة غير إرادته، وغير ذلك منك تمن، وهو وادي الحمقى، وفيه حتفك وهلاكك وسقوطك من عينه وحجابك عنه، احفظ أبداً أمره، وانته أبداً بنهيه، وسلم أبداً لمقدوره، ولا تشركه بشيء من خلقه، فإرادتك وهواك وشهواتك كلها خلقه، فلا ترد ولا تهو ولا تشته كيلا تكون مشركاً: قال الله تعالى: ﴿فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملاً صالحاً ولا يشرك بعبادة ربه أحداً﴾ [الكهف: ١١٠].

ليس الشرك عبادة الأصنام فحسب، بل هو متابعتك هواك، وأن تختار مع ربك شيئاً سواه من الدنيا وما فيها والآخرة وما فيها، فما سواه عزّ وجلّ غيره، فإذا ركنت إلى غيره فقد أشركت به عزّ وجلّ غيره، فاحذر ولا تركن، وخف ولا تأمن، وفتش ولا تغفل فتطمئن، ولا تضف إلى نفسك حالاً ولا مقاماً، ولا تدّع شيئاً من ذلك، فإنْ أعطيت حالاً او اقمت في مقام فلا تخبر احداً بشيء من ذلك، فإنّ الله ﴿كل يوم هو في شأن﴾[الرحمن: ٢٩] في تغيير وتبديل، وانّه

Marfat.com

يحول بين المرء وقلبه، فيزيلك عما أخبرت به، ويغيرك عما تخيلت ثباته وبقاءه، فتخجل عند من أخبرته بذلك، بل احفظ ذلك فيك، ولا تعده إلى غيرك، فإن كان الثبات والبقاء، فتعلم أنّه موهبة وتسأل التوفيق للشكر، واستر رؤيته، وإن كان غير ذلك كان فيه زيادة علم ومعرفة ونور وتيقظ وتأديب. قال الله عزّ وجلّ: ﴿ما ننسخ من آية، أو نُنْسِهَا نأتِ بخيرٍ مِنْها أو مِثْلِهَا، ألم تعلم أنّ الله على كل شيء قدير﴾ [البقرة: ١٠٦]. فلا تعجز الله في قدرته، ولا تتهمه في تقديره ولا تدبيره، ولا تشك في وعده، فليكن لك في رسول الله ﷺ أسوة حسنة، نسخت الآيات والسور النازلة عليه، المعمول بها، المقروءة في المحاريب، المكتوبة في المصاحف، ورفعت وبدلت وأثبت غيرها مكانها، ونقل ﷺ إلى غيرها، هذا في ظاهر الشرع، وأمّا في الباطن والعلم والحال فيما بينه وبين الله عزّ وجل فكان يقول: «إنّه ليغان على قلبي فأستغفر الله في كل يوم سبعين مرة» ويروى «مائة مرة».

وكان ﷺ ينقل من حالة إلى أخرى ويُسار به في منازل القرب وميادين الغيب، ويغير عليه خلع الأنوار، فتبين الحالة الأولى عند ثانيها ظلمة ونقصاناً وتقصيراً في حفظ الحدود، فيلقن الاستغفار لأنّه أحسن حال العبد، والتوبة في سائر الأحوال لأنّ فيها اعترافه بذنبه وقصوره، وهما صفتا العبد في سائر الأحوال؛ فهما وراثة من أبي البشر آدم عليه السلام إلى المصطفى ﷺ حين اعتورت صفاء حاله ظلمةُ النسيان للعهد والميثاق، وإرادة الخلود في دار السلام؛ ومجاورة الحبيب الرحمن المنان، ودخول الملائكة الكرام عليه بالتحية والسلام، فوجدت هناك نفسه مشاركة إرادته لإرادة الحق، فانكسرت لذلك تلك الإرادة، وزالت تلك الحالة، وانعزلت تلك الولاية، فانهبطت تلك المنزلة، وأظلمت تلك الأنوار، وتكدر ذلك الصفاء، ثم تنبه وذكر صِفِي الرحمن، فعرف الاعتراف بالذنب والنسيان، ولقن الإقرار فقال: ﴿ربّنا ظلمنا أنفسنا، وإن لم

Marfat.com

تغفر لنا وترحمنا لنكوننّ من الخاسرين﴾ [الأعراف: ٢٣] فجاءت أنوار الهداية وعلوم التوبة ومعارفها، والمصالح المدفونة فيها ما كان غائباً من قبل، فلم تظهر إلاّ بها، فبدلت تلك الإرادة بغيرها، والحالة الأولى بأخرى، وجاءته الولاية الكبرى والسكون في الدنيا. ثم في العقبى، فصارت الدنيا له ولذريته منزلاً، والعقبى لهم موئلاً ومرجعاً وخلداً، فلك برسول الله وحبيبه المصطفى وأبيه آدم صفي الله عنصر الأحباب والأخلاء أسوةً في الاعتراف بالقصور والاستغفار في الأحوال كلها.

Marfat.com

في التقرّب إلى الله

قال رضي الله عنه وأرضاه:

إذا كنت في حالة لا تختر غيرها أعلى منها ولا أدنى، فإذا كنت على باب دار الملك لا تختر الدخول إلى الدار حتى تدخل إليها جبراً لا اختياراً، وأعني بالجبر أمراً عنيفاً متأكداً متكرراً، ولا تكتف بمجرد إذن في الدخول، لجواز أن يكون ذلك مكراً وخديعة من الملك، لكن اصبر حتى تجبر على الدخول، فتدخل الدار جبرا محضا وفضلا من الملك، فحينئذ لا يعاقبك الملك على فعله، إنّما تتعرض العقوبة لك لشؤم تخيرك وشرهك، وقلة صبرك وسوء أدبك، وترك الرضى بحالتك التي أقمت فيها، فإذا حصلت فكن مطرِقاً غاضاً لبصرك متأدباً، محافظاً لما تؤمر به من الشغل والخدمة فيها غير طالب للترقي إلى الذروة العليا. قال الله عزّ وجلّ: ﴿ولا تمدن عينيك إلى ما متعنا به أزواجاً منهم زهرةَ الحياة الدنيا لنفتنهم فيه، ورزقُ ربك خير وأبقى﴾ [طه: ١٣١] فهذا تأديب منه عزّ وجلّ لنبيه المختار ﷺ في حفظ الحال، والرضا بالعطاء، بقوله: ﴿ورزق ربك خير وأبقى﴾ [طه: ١٣١] أي ما أعطيتك من الخير والنبوة والعلم والقناعة والصبر وولاية الدين، والعزوة فيه أولى مما أعطيت غيرك وأحرى، فالخير كله في حفظ الحال، والرضا بها، وترك الالتفات إلى ما سواها، لأنّه لا يخلو إمّا ان يكون قسمك أو قسم غيرك، او أنّه لا قسم لأحد، بل أوجده الله فتنة، فإن كان قسمك وصل إليك شئت أم أبيت، فلا ينبغي أن يظهر منك سوء الأدب والشره

في طلبه، فإنّ ذلك غير محمود في قضية العلم والعقل، وإن كان قسم غيرك فلا تتعب فيما لم تناله، ولا يصل إليك أبداً، وإن كان ليس بقسم لأحد بل هو فتنة فكيف يرضى العاقل ويستحسن أن يطلب لنفسه فتنة ويستجلبها لها، فقد ثبت أنّ الخير كله والسلامة في حفظ الحال؛ فإذا رقيت إلى الغرفة ثم إلى السطح فكن كما ذكرنا من الحفظ والإطراق والأدب، بل يتضاعف ذلك منك، لأنّك أقرب إلى الملك وأدنى إلى الخطر،فلاتتمن الانتقال منها إلى أعلى منها ولا إلى أدنى، ولا ثباتها وبقاءها، ولا تغيّر وصفها وأنت فيها، ولا يكن لك اختيار البتة، فإن ذلك كفر بنعمة الحال، والكفر يحل بصاحبه الهوان في الدنيا والآخرة.

فاعمل على ما ذكرنا أبداً، حتى ترقى إلى حالة تصير لك مقاماً تقام فيه فلا تُزَال عنه، فتعلم حينئذ أنّه موهبة ظهر بيانها ودليلها فتمسكه ولا تزل، فالأحوال للأولياء، والمقامات للأبدال، والله يتولى هداك.

* * *

Marfat.com

المقالة التاسعة

في الكشف والمشاهدة

قال رضي الله عنه وأرضاه:

يكشف للأولياء والأبدال من أفعال الله ما يبهر العقول ويخرق العادات والرسوم، وهي على قسمين: جلال وجمال؛ فالجلال والعظمة يورثان الخوف المقلق والوجل المزعج، والغلبة العظيمة على القلب بما يظهر على الجوارح، كما روي أن النبي ﷺ «كان يسمع من صدره أزيز كأزيز المرجل في الصلاة من شدة الخوف» لما يَرى من جلال الله عزّ وجلّ، وينكشف له من عظمته.

ونُقِل مثل ذلك عن إبراهيم خليل الرحمن صلوات الله عليه وسلامه وعمر الفاروق رضي الله عنه.

أمّا مشاهدة الجمال: فهي تحلي القلوب بالأنوار والسرور والألطاف، والكلام اللذيذ والحديث الأنيس، والبشارة بالمواهب الجسام والمنازل العالية، والقرب منه عزّ وجلّ مما سيئول أمرهم إلى الله. وجف به القلم من أقسامهم في سابق الدهور فضلاً منه ورحمة، وإثباتاً منه لهم في الدنيا إلى بلوغ الأجل وهو الوقت المقدور، لئلا تفرط بهم المحبة من شدة الشوق إلى الله تعالى فتنفطر مرائرهم، فيهلكون ويضعفون عن القيام بالعبودية إلى أن يأتيهم اليقين الذي هو الموت، فيفعل ذلك بهم لطفاً منه ورحمة ومداواة، وتربية لقلوبهم ومداراة لها ﴿إنّه حكيم عليم﴾ [الحجر: ٢٥] لطيف بهم ﴿رؤوف رحيم﴾ [التوبة: ١١٧] ولهذا روي عن النبي ﷺ أنّه كان يقول لبلال المؤذن رضي الله عنه «أرحنا بها يا بلال» أي بالإقامة، لندخل في الصلاة لمشاهدة ما ذكرنا من الحال، ولهذا قال «وجعلت قرة عيني في الصلاة».

* * *

Marfat.com

في النفس وأحوالها

قال رضي الله عنه وأرضاه:

إنّما هو الله ونفسك، وأنت المخاطب، والنفس ضد الله وعدوه، والأشياء كلهـا تابعـة لله، والنفس له خَلقـاً وملكـاً، وللنفس ادعاء وتمن وشهوة ولذة بملابستها، فإذا وافقت الحق عزّ وجلّ في مخالفة النفس وعدوانها فكنت مع الله خصماً على نفسك كما قال الله عزّ وجلّ لداود عليه الصلاة والسلام: يا داود أنا بدك اللازم فالزم بدك، العبودية أن تكون خصماً على نفسك فتحققت حينئذ موالاتك وعبوديتك لله عزّ وجلّ، وأتتك الأقسام هنيئاً مريئاً مطيباً، وأنت عزيز ومكرم، وخدمَتْك الأشياء وعظمتك وفخمتك، لأنّها بأجمعها تابعة لربها، موافقة له، إذ هو خالقها ومنشئها، وهي مقرة له بالعبودية. قال الله تعالى: ﴿وإن من شيء إلّا يسبّحُ بِحمدِهِ ولكن لا تفقهون تسبيحهم﴾ [الإسراء: ٤٤]، ﴿فقال لها وللأرض ائتيا طوعاً أو كَرهاً قالتا أتينا طائعين﴾ [فصلت: ١١] فالعبادة كل العبادة في مخالفة نفسك. قال الله تعالى: ﴿ولا تتبع الهوى فيضلك عن سبيل الله﴾ [ص: ٢٦] وقال لداود عليه الصلاة والسلام: «اهجر هواك فإنّه منازع».

والحكاية المشهورة عن أبي يزيد البسطامي رحمه الله لما رأى رب العزة في المنام فقال له: كيف الطريق إليك؟ قال اترك نفسك وتعال، فقال: فانسلخت من نفسي كما تنسلخ الحية من جلدها، فإذا الخير كله في معاداتها في الجملة في الأحوال كلها، فإن كنت في حال التقوى فخالف النفس، بأن تخرج من حرام الخلق وشبههم ومنتهم والاتكال عليهم والثقة بهم والخوف منهم، والرجاء لهم

Marfat.com

والطمع فيما عندهم من أحكام الدنيا، فلا تبرح عطاياهم على طريق الهداية والزكاة والصدقة أو النذر، فاقطع همك منهم من سائر الوجوه والأسباب حتى إن كان لك نسب ذو مال لا تتمن موتـه لترث ماله، فاخرج من الخلق جداً واجعلهم كالباب يرد ويفتح، وشجرة توجد فيها ثمرة تارة وتخلو أخرى، وكل ذلك بفعل فاعل، وتدبير مدبر، وهو الله جلاّ وعلا، لتكون موحداً للرب، ولا تنس مع ذلك كسبهم لتخلص من مذهب الجبرية، وأعتقد أن الأفعال لا تتم بهم دون الله، لا تعبدهم وتنسى الله. ولا تقل فعلهم دون الله فتكفر فتكون قدرياً، لكن قل هي لله خلقاً، وللعباد كسباً، كما جاءت به الآثار، لبيان موضع الجزاء من الثواب والعقاب، وامتثل أمر الله فيهم، وخلص قسمك منهم بأمره ولا تجاوزه، فحكم الله قائم بحكمه عليك وعليهم، فلا تكن أنت الحاكم، وكونك معهم قدر، والقدر ظلمة، فادخل في الظلمة بالمصباح، وهو كتاب الله وسنّة رسوله ﷺ، لا تخرج عنهما، فإنْ خطر خاطر؛ أو وجد إلهام، فاعرضه على الكتـاب والسنـة، فإن وجدت فيها تحريم ذلك، مثل أن تلهم بالزنا والرياء ومخالطة أهل الفسق والفجور وغير ذلك من المعاصي، فادفعه عنك واهجره، ولا تقبله ولا تعمل به، واقطع بأنّه من الشيطان اللعين، وإن وجدت فيها إباحة كالشهوات المباحة من الأكل أو الشرب أو اللبس أو النكاح فاهجره أيضاً ولا تقبله، واعلم أنّه من إلهام النفس وشهواتها، وقد أمرتَ بمخالفتها وعداوتها(١) وإن لم تجد في الكتاب والسنة تحريمه وإباحته، بل هو أمر لا تعقله مثل السائق

---

(١) ـ قلت: ومراده بهجر المباح: إذا لم يكن مأموراً به، كما قد بيّن مراده في غير هذا الموضع، فإنّ المباح المأمور به إذا فعله بحكم الأمر كان ذلك من أعظم نعم الله عليه، وكان واجباً عليه. وقد قدّمت أنّه يدعو إلى طريقة السابقين المقرّبين، لا يقف عند طريقة الأبرار أصحاب اليمين.

Marfat.com

لك، ائت موضع كذا وكذا، الق فلاناً صالحاً، ولا حاجة لك هناك ولا في الصالح لاستغنائك عنه بما أولاك الله من نعمته من العلم والمعرفة، فتوقف في ذلك، ولا تبادر إليه فتقول: هذا إلهام من الحق جل وعلا، فاعمل به، بل انظر الخير كله في ذلك، وفعل الحق عزّ وجلّ بأن يتكرر ذلك الإلهام وتؤمر بالسعي، أوعلامة تظهر لأهل العلم بالله عزّ وجلّ يعقلها العقلاء من الأولياء والمؤيدون من الأبدال، وإنّما لم يتبادر إلى ذلك لأنّك لا تعلم عاقبته وما يؤول الأمر إليه، وما كان فيه فتنة وهلاك ومكر من الله وامتحان فاصبر حتى يكون هو عزّ وجلّ الفاعل فيك، فإذا تجرد الفعل وحملت إلى هناك، واستقبلتك فتنة كنت محمولاً محفوظاً فيها، لأنّ الله تعالى لا يعاقبك على فعله، وإنّما تتطرق العقوبة نحوك لكونك في الشيء[1]، وإن كنت في حالة الحقيقة وهي حالة الولاية، فخالف هواك واتبع الأمر في الجملة.

---

(١) ـ قلت: فقد أمر رحمه الله بأنّ ما كان محظوراً في الشرع يجب تركه، ولا بُدَّ. وما كان معلوماً أنّه مباح بعينه، لكونه يُفعل بحكم الهوى لا بأمر الشارع فيترك أيضاً، وأمّا ما لم يعلم هل هو بعينه مباح لا مضرة فيه أو منه، مثل السفر إلى مكان معين، أو شخص معين، والذهاب إلى مكان معين أو شخص معين، فإنّ جنس هذا العمل ليس محرَّماً، ولا كل أفراده مباحة؛ بل يحرم على الإنسان أن يذهب إلى حيث يحصل له ضرر في دينه، فأمره بالكف عن الذهاب حتى يُقهر أو يتبيّن له في الباطن أنّ هذا مصلحة، لأنّه إذا لم يتبين له أنّ الذهاب واجب أو مستحب، لم ينبغ له فعله، وإذا خاف الضرر انبغى له تركه، فإذا أُكره على الذهاب لم يكن عليه حرج، فلا يؤاخذ بالفعل، بخلاف ما إذا فعله باختياره وشهوته، وإذا تبين أنّه مصلحة راجحة كان حسناً.

وقد جاءت شواهدُ السنّة بأنّ من ابتلى بغير تعرّض منه أعين، ومن تعرّض للبلاء خِيف عليه. مثل قوله ﷺ لعبدالرحمن بن سمرة: «لا تسأل الإمارة، فإنّك إن أعطيتها عن مسألة وُكِلت إليها، وإن أعطيتها عن غير مسألة أعنت عليها». =

واتباع الأمر على قسمين:

أحدهما: أن تأخذ من الدنيا القوت الذي هو حق النفس وتترك الحظ، وتؤدي الفرض، وتشتغل بترك الذنوب ما ظهر منها وما بطن.

والقسم الثاني: ما كان بأمر باطن، وهو أمر الحق عزّ وجلّ، يأمر عبده وينهاه، وإنّما يتحقق بهذا الأمر في المباح الذي ليس له حكم في الشرع على معنى ليس من قبيل النهي ولا من قبيل الأمر الواجب، بل هو مهمل، تُرِكَ العبدُ يتصرف فيه باختياره، فسمي مباحاً، فلا يُحْدِث العبد فيه شيئاً من عنده، بل ينتظر الأمر فيه، فإذا أمر امتثل، فتصير حركاته وسكناته بالله عزّ وجلّ، ما في الشرع حكمه فبالشرع وما ليس له حكم في الشرع فبالأمر الباطن، فحينئذ يصير محقاً من أهل الحقيقة، وما ليس فيه أمر باطن فهو مجرد الفعل حالة التسليم، وإن كنت في حالة حق الحق، وهي حالة المحو والفناء، وهي حالة الأبدال المنكسري القلوب لأجله، الموحدين العارفين أرباب العلوم والعقل، السادة الأمراء الشحن، خفراء الخلق، خلفاء الرحمن وأخلائه وأعيانه وأحبائه عليهم السلام، فاتباع الأمر فيها بمخالفتك إيّاك بالتبري من الحول والقوة، وأن لا يكون لك إرادة وهمة في شيء البتة دنيا وعقبى، فتكون عبدالمَلِك لا عبد المُلك، وعبد الأمر لا عبد الهوى، كالطفل مع الظئر، والميت الغسيل مع الغاسل، والمريض المقلوب على جنبيه بين يدي الطبيب فيما سوى الأمر والنهي والله أعلم.

ـــ وعنه قوله: «لا تتمنوا لقاء العدو، واسألوا الله العافية فإذا لقيتموهم فاصبروا».

وفي «السنن»: «من سأل القضاء واستعان عليه وُكِل إليه، ومن لم يسأل القضاء ولم يستعن عليه انزل الله عليه مَلَكاً يسدده»، وفي رواية: «وإن اكره عليه».

وفي «الصحيحين» أنّه ﷺ قال في الطاعون: «إذا سمعتم به بأرض فلا تقدموا عليه، وإذا وقع بأرض وأنتم بها، فلا تخرجوا فراراً منه». ومنه أنّه ﷺ نهى عن النذر.

في الشـــهوة

قال رضي الله عنه وأرضاه:

وإذا ألقيت عليك شهـوةُ النكاح في حالة الفقر، وعجزت عن مؤنته، فصبرت عنه منتظر الفرَج من الباري عزّ وجلّ، إمّا بزوالها وإقلاعها عنك بقدرته التي ألقاها عليك، وأوجدها فيك فيعينك أو يصونك وحياتك عن حمل مؤنتها أيضاً، أو بإيصالها إليك هبة مهنئاً مكفياً من غير ثقل في الدنيا ولا تعب في العقبى، وسماك الله عزّ وجلّ صابراً شاكراً لصبرك عنها، راضياً بقسمته، فزادك عصمـة وقـوة، فإن كانت قسماً لك ساقها إليك مكفياً مهنئاً، فينقلب الصبر شكراً، وهو عزّ وجلّ وَعَدَ الشاكرين بالزيادة في العطاء، قال عزّ وجلّ: ﴿لئن شكرتم لأزيدَنَّكم ولئن كفرتم إنّ عذابي لشديد﴾ [إبراهيم: ٧].

وإن لم تكن قسماً لك فالغنى عنها بقلعها من القلب إن شاءت النفس أو أبت، فلازم الصـبر، وخـالف الهوى، وعانق الأمر، وارض بالقضاء، وارج بذلك الفضل والعطاء، وقد قال الله تعالى: ﴿إنّما يوفى الصابرون أجرهم بغير حساب﴾ [الزمر: ١٠].

Marfat.com

* * *

المقالة الثانية عشرة

في النهي عن حب المال

قال رضي الله عنه وأرضاه:

إذا أعطاك الله عزّ وجلّ مالاً فاشتغلت به عن طاعته حجبك به عنه دنيا وأخرى، وربما سلبك إيّاه وغيّرك وأفقرك لاشتغالك بالنعمة عن المنعم، وإن اشتغلت بطاعته عن المال جعله لك هبة، ولم ينقِص منه حبة واحدة، وكان المال خادمك، وأنت خادم المولى، فتعيش في الدنيا مدللاً، وفي العقبى مكرماً مطيباً في جنة المأوى مع الصديقين والشهداء الصالحين.

* * *

Marfat.com

في التسليم لأمر الله

قال رضي الله عنه:

لا تختر جلب النعماء، ولا دفع البلوى، فالنعماء واصلة إليك، إن كانت قسمك استجلبتها أو كرهتها، والبلوى حالّة بك إن كانت قسمك مقضية عليك، سواء كرهتها أو رفعتها بالدعاء أو صبرت أو تجلدت لرضى المولى، بل سلّم في الكل، فيفعل الفعل فيك، فإن كانت النعماء فاشتغل بالشكر، وإن كانت البلوى فاشتغل بالتصبر والصبر، أو الموافقة والتنعم بها أو العدم أو الفناء فيها على قدر ما تعطى من الحالات وتنقل فيها، وما تسير في المنازل في طريق المولى الذي أمرت بطاعته والموالاة، لتصل إلى الرفيق الأعلى، فتقام حينئذ مقام من تقدم ومضى من الصديقين والشهداء والصالحين، لتعاين من سبقك إلى المليك، ومنه دنا، ووجد عنده كل طريفة وسروراً وأمناً، وكرامة ونعماً.

دع البلية تزورك، خل من سبيلها، ولا تقف ولا تجزع من مجيئها وقربها، فليس نارها أعظم من نار جهنم ولظى، فقد ثبت في الخبر المروي عن خير البرية، وخير من حملته الأرض وأظلته السماء محمد المصطفى ﷺ أنّه قال: «إنّ نار جهنم تقول للمؤمن جُزْ يا مؤمن فقد أطفأ نورك لهبي» فهل كان نور المؤمن الذي أطفأ لهب النار في لظى إلاّ الذي صحبه في الدنيا الذي لن يمر من أطاعها وعصى، فليطفى هذا النور لهب البلوى، ولتجد برد صبرك وموافقتك للمولى، وهيح ما حلّ بك من ذلك ومنك دنا، فالبلية لم تأتك لتُهْلِكَك، لكنها تأتيك

Marfat.com

لتجرّبك وتحقق صحة إيمانك، وتوثيق عروة يقينك، ويبشرك باطنها من مولاك بمباهاته بك، قال الله تعالى: ﴿ولنبلونكم حتى نعلم المجاهدين منك والصابرين ونبلو أخباركم﴾ [محمد: ٣١] فإذا ثبت مع الخلق إيمانك، ووافقته في فعله بيقينك كل ذلك بتوفيق منه ومنة، فكن حينئذ أبداً صابراً موافقاً مسلماً لا تحدث فيك ولا في غيرك حادثة ما خرج عن الأمر والنهي، فإذا كان أمره عزّ وجلّ فتسامع وتسارع وتحرك ولا تسكن ولا تسلم للقدر والفعل، بل ابذل طوقك ومجهودك لتؤدي الأمر، فإن عجزت فدونك الالتجاء إلى مولاك عزّ وجلّ، فالتجىء إليه وتضرع واعتذر، وفتش عن سبب عجزك عن أداء أمره، وصدك عن التشوق لطاعته لعل ذلك لشؤم دعائك، وسوء أدبك في طاعته، ورعونتك واتكالك على حولك وقوتك، وإعجابك بعلمك وشركك إيّاك بنفسك وخلقه، فصدك عن بابه، وعزلك عن طاعته وخدمته، وقطع عنك مدد توفيقه، وولّى عنك وجهه الكريم، ومقتك وقلاك، وشغلك ببلائك دنياك وهواك وإرادتك ومناك.

أما تعلم أنّ كل ذلك مشغول عن ذلك، وقاطعك عن عين الذي خلقك ورباك، وخوّلك وأعطاك وحيّاك.

احذر لا يلهيك عن مولاك غير مولاك، وكل من سوى مولاك غيره، فلا تؤثر عليه غيره فإنّه خلقك له؛ فلا تظلم نفسك فتشغل بغيره عن أمره، فيدخلك النار التي وقودها الناس والحجارة فتندم، فلا ينفعك الندم، وتعتذر فلا تُعذر، وتستعتب فلا تتَب، وتسترجع إلى الدنيا لتستدرك وتصلح فلا ترجع.

ارحم نفسك وأشفق عليها، واستعمل الآلات والأدوات التي أعطيتها في طاعة مولاك من الفعل والإيمان والمعرفة والعلم.

استضيء بنورها في ظلمات الأقدار، وتمسك بالأمر والنهي، وسيرهما في

طريق مولاك، وسلم ما سواهما إلى الذي خلقك وأنشاك، فلا تكفر بالذي خلقك من تراب وربّاك، ثم من نطفة ثم رجلاً سواك؛ ولا ترد غير أمره، ولا تكره غير نهيه.

اقنع من الدنيا والأخرى بهذا المراد، واكره فيهما هذا المكروه، فكل ما يراد تبعٌ لهذا المراد، وكل مكروه تبعٌ لهذا المكروه.

إذا كنت مع أمره كانت الأكوان في أمرك، وإذا كرهت نهيه فرت منك المكاره أينما كنت وحللت.

قال الله عزّ وجلّ في بعض كتبه: «يا ابن آدم أنا الله لا إله إلاّ أنا أقول للشيء كن فيكون، أطعني أجعلك تقول للشيء كن فيكون». وقال عزّ وجلّ: «يا دنيا من خدمني فاخدميه، ومن خدمك فأتعبيه» فإذا جاء نهيه عزّ وجلّ فكن كأنّك مسترخي المفاصل، مسكن الحواس، مضيق الذرع، متهاوت الجسد، زائل الهوى، منطمس الوسوم، منمحي الرسوم، منسي الأثر، مظلم الفناء متهدم البناء، خاوي البيت، ساقط العرش، لاحس ولا أثر، فليكن سمعك كأنّه أصم، وعلى ذلك مخلوق، وبصرك كأنّه معصب أو مرمود أو مطموس، وشفتاك كأن بهما قرحة وبثوراً، ولسانك كأنّه به خرساً وكلولاً، وأسنانك كأنّ بهما ضرياناً وألماً ونشوراً، ويداك كأنّ بهما شللاً وعن البطش قصوراً، ورجلاك كأنّ بهما رعدة وارتعاشاً وجروحاً، وفرجك كأن به عنة وبغير ذلك الشأن مشغولاً، وبطنك كأن به امتلاء وارتواء، وعن الطعام غنى، وعقلك كأنّك مجنون ومخبول، وجسدك كأنّك ميت وإلى القبر محمول، فالتسامع والتسارع في الأمر، والتقاعد والتعاجز والتقاصر في النهي، والتهاوت والتعادم والتفاني في القدر، فاشرب هذه الشربة، وتداو بهذا الدواء، وتغذ بهذا الغذاء تنجح وتشفى، وتعافى من أمراض الذنوب وعلل الأهواء، بإذن الله تعالى إن شاء الله.

Marfat.com

في اتّباع أحوال القوم

قال رضى الله عنه وأرضاه:

لا تدع حالة القوم يا صاحب الهوى أنت تعبد الهوى وهم عبيد المولى.

أنت رغبتك في الدنيا ورغبة القوم في العقبى.

أنت ترى الدنيا، وهم يرون رب الأرض والسماء.

وأنت أنسك بالخلق وأنس القوم بالحق.

أنت قلبك متعلق بمن في الأرض، وقلوبُ القوم [متعلقة] برب العرش.

أنت يصطادك من ترى، وهم لَا يَرَوْن من ترى، بل يَرون خالقَ الأشياء وما يَرَى، فاز القوم به وحصلت لهم النجاة، وبقيت أنت مرتهناً بما تشتهي من الدنيا وتهوى، فنوا عن الخلق والهوى والإرادة والمنى فوصلوا إلى الملك الأعلى، فأرفقهم على غاية ما رام منهم من الطاعة والحمد والثناء ﴿ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء﴾ [المائدة: ٥٤] فلازموا ذلك، وواظبوا بتوفيق منه وتيسير بلا عناء، فصارت الطاعة لهم روحاً وغذاء، وصارت الدنيا إذ ذاك في حقهم نقمة وخزياً، فكأنّها لهم جنّة المأوى إذ ما يرون شيئاً من الأشياء حتى يروا قبلَه فعلَ الذي خلق وأنشأ فيهم ثبات الأرض والسماء، وقرار الموت والأحياء، إذ جعلهم مليكُهم أوتاداً للأرض التي دحى، فكلٌّ كالجبل الذي رسا، فتنح عن طريقهم، ولا تزاحم من لم يحده عن قصده الآباء والأبناء، فهم خير من خلق ربي وبث في الأرض وذرأ، فعليهم سلام الله وتحياته ما دامت الأرض والسماء.

Marfat.com

المقالة الخامسة عشرة

في الخوف والرجاء

قال قُدِّس سرُّه العزيز:

رايت في المنام كأنّي في موضع شبه مسجد، وفيه قوم منقطعون، فقلت: لو كان لهؤلاء فلان يؤدبهم ويرشدهم، فأشرت إلى رجل من الصالحين، فاجتمع القـــوم حولي، فقـــال واحـد منهم: فأنت لأي شيء لا تتكلم؟ فقلت: إن رضيتموني ذلك، ثم قلت: إذا انقطعتم من الخلق إلى الحق فلا تسألوا الناس شيئاً بالسنتكم، فإذا تركتم ذلك فلا تسألوهم بقلوبكم، فإنّ السؤال بالقلب كالسؤال باللسان.

ثم اعلموا أنّ الله كل يوم هو في شأن، في تغيير وتبديل، ورفع وخفض، فقوم يرفعهم إلى عليين، وقوم يحطهم إلى أسفل سافلين، فخوف الذين رفعهم إلى عليين أن يحطهم إلى أسفل سافلين، ورجاؤهم أن يبقيهم ويحفظهم على ما هم عليه من الرفع، وخوف الذين حطهم إلى أسفل سافلين أن يبقهم ويخلدهم على ما هم فيه من الحط، ورجاؤهم أن يرفعهم إلى عليين، ثم انتبهت.

* * *

المقالة السادسة عشرة

في التوكل ومقاماته

قال رضي الله عنه:

ما حجبتَ عن فضـــل الله والبـــدء بنعمـه إلاّ لاتكـالـك على الخلق والأسبـاب، والصنـائع والاكتساب. فالخلق حجابك عن الأكل بالسنة وهو المكسب، فما دمت قائـماً مع الخلق، راجباً لعطاياهم وفضلهم، سائلاً لهم، متردداً إلى أبـوابهم، فأنت مشرك بالله خلقه، فيعاقبك بحرمان الأكل بالسنة الذي هو الكسب من حلال الدنيا، ثم إذا تبت عن القيام مع الخلق وشركك بربك عزّ وجلّ إيّاهم ورجعت إلى الكسب فتأكل بالكسب وتتوكل على الكسب وتطمئن إليه وتنسى فضل الرب عزّ وجلّ فانت مشرك ايضاً، إلاّ أنّه شرك خفي أخفى من الأوّل، فيعاقبك الله عزّ وجلّ، ويحجبك عن فضله والبداءة به، فإذا تبت عن ذلك وأزلت الشرك عن الوسط، ورفعت اتكالك عن الكسب والحول والقـوة، ورأيت الله عزّ وجلّ هو الرزاق، وهو المسبب والمسهل والمقوي على الكسب، والموفق لكل خير، والرزق بيده تارة يواصلك به بطريق الخلق على وجه المسألة لهم في حالة الابتلاء أو الرياضة أو عند سؤالك له عزّ وجلّ، وأخرى بطريق الكسب معـاوضـة وأخرى من فضله مبادأة من غير أن ترى الواسطة والسبب، فرجعت إليه، واستـطرحت بين يديه، ورفـع الحجاب بينك وبين فضله، وباداك وغداك بفضله، عند كل حاجة على قدر ما يوافق حالك، كفعل الطبيب الشفيق الرقيق الحبيب للمريض حماية منه عزّ وجلّ، وتنزيهاً لك عن

Marfat.com

الميل إلى من سواه، يرضيك بفضله، فإذاً ينقطع عن قلبك كل إرادة وكل شهوة ولذة ومطلوبة ومحبوب، فلا يبقى في قلبك سوى إرادته عزّ وجلّ، فإذا أراد أن يسوق إليك قسمك الذي لا بد من تناوله وليس هو رزقاً لأحد من خلقه سواك، أوجدك عندك شهوة ذلك القسم وساقه إليك، فيواصلك به عند الحاجة، ثم يوفقك ويعرفك أنّه منه وهو سائقه إليك ورازقه لك، فتشكره حينئذ وتعرف وتعلم، فيزيدك خروجاً من الخلق، وبعداً من الأنام، وأخليت الباطن عمّا سواه عزّ وجل، ثم إذا قوي علمك ويقينك، وشرح صدرك ونور قلبك، وزاد قربك من مولاك ومكانتك لديه عنده، وأهليتك لحفظ الأسرار علمت متى يأتيك قسمك كرامة لك وإجلالاً لحرمتك فضلاً منه ومنة وهداية.

قال الله عزّ وجلّ: ﴿وجعلنا منهم أئمة يهدون بأمرنا لما صبروا وكانوا بآياتنا يوقنون﴾ [السجدة: ٢٤] وقال الله تعالى: ﴿والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا﴾ [العنكبوت: ٦٩] وقال تعالى: ﴿واتقوا الله ويعلمكم الله﴾ [البقرة: ٢٨٢] ثم يرد عليك التكوين فتكون بالإذن الصريح الذي هو لا غبار عليه، والدلالات اللائحة كالشمس المنيرة، وبكلامه اللذيذ الذي هو ألذ من كل لذيذ، وإلهام صدق من غير تلبس، مصفى من هواجس النفس ووساوس الشيطان اللعين.

قال الله تعالى في بعض كتبه: «يا ابن آدم أنا الله الذي لا إله إلاّ أنا أقول للشيء كن فيكون، أطعني أجعلك تقول للشيء كن فيكون» وقد فعل ذلك بكثير من أنبيائه وأوليائه وخواصه من بني آدم.

* * *

Marfat.com

المقالة السابعة عشرة

في كيفية الوصول إلى الله بواسطة المرشد

قال رضي الله تعالى عنه:

إذا وصلت إلى الله وقربت بتقريبه وتوفيقه، ومعنى الوصول إلى الله عزّ وجلّ خروجك عن الخلق والهوى والإرادة والمنى، والثبوت مع فعله من غير أن يكون منك حركة فيك ولا في خلقه بك؛ بل بحكمه وأمره وفعله، فهي حالة الفناء يعبَّر عنها بالوصول، فالوصول إلى الله عزّ وجلّ ليس كالوصول إلى أحدٍ من خلقه المعقول المعهود ﴿ليس كمثله شيء وهو السميع البصير﴾ [الشورى: ١١] جلّ الخالق أن يشبَّه بمخلوقاته، أو يقاس على مصنوعاته، فالواصل إليه عزّ وجلّ معروف عن أهل الوصول بتعريفه عزّ وجلّ لهم كل واحد على حدة، لا يشاركه فيه غيره، وله عزّ وجلّ مع كل واحد مِن رسله وأنبيائه وأوليائه سر من حيث هو لايطلع على ذلك أحد غيره،حتى إنّه قد يكون للمريد سر لا يطلع عليه شيخه، وللشيخ سر لا يطلع عليه مريده الذي قددنا سيره إلى عتبه باب حالة شيخه، فإذا بلغ المريد حالة شيخه أفرد عن الشيخ وقطع عنه، فيتولاه الحق عزّ وجلّ فيفطمه عن الخلق جملة، فيكون الشيخ كالظئر والداية، لا رضاعَ بعد الحولين، ولا خلق بعد زوال الهوى والإرادة. الشيخ يُحتاج إليه ما دام ثَمَّ هوى وإرادة لكسرهما، وأمّا بعد زوالهما فلا، لأنّه لا كدورة ولا نقصان، فإذا وصلت إلى الحق عزّ وجلّ على ما بيّنّا فكن آمناً أبداً من سواه عزّ وجلّ، فلا ترى لغيره وجوداً البتة، لا في الضر ولا في النفع، ولا في العطاء ولا في المنع، ولا في الخوف ولا في الـرجاء، هو عزّ وجلّ أهل التقوى وأهل المغفرة، فكن أبداً ناظراً إلى فعله، مترقباً لأمره. مشتغلاً بطاعته، مبايناً عن جميع خلقه دنيا وأخرى.

Marfat.com

لا تعلق قلبك بشيء منهم، واجعل الخليقة أجمع كرجل كَتَّفَهُ سلطان عظيمٌ ملكُه، شديدٌ أمرُه، مهولةٌ صولته وسطوته، ثم جعل الغل في رقبته مع رجليه، ثم صلبه على شجرة الأذرة على شاطىء نهر عظيمٍ موجُه، فسيحٍ عَرْضُه، عميقٍ غَوْرُه، شديدٍ جَرْيُه، ثم جلس السلطان على كرسي عظيمٍ قدره، عال سماؤه، بعيد مرامه ووصوله، وترك إلى جنبه أحمالاً من السهام والرماح والنبل وأنواع السلاح والقسى مما لا يبلغ قدرها غيره، فجعل يرمي إلى المصلوب بما شاء من ذلك السلاح، فهل يحسن لمن يرى ذلك أن يترك النظر إلى السلطان والخوف منه والرجاء له وينظر إلى المصلوب ويخاف منه ويرجوه، أليس من فعل ذلك يسمّى في قضية العقل عديم العقل والحس مجنوناً. بهيمة غير إنسان؟ نعوذ بالله من العمى بعد البصيرة، ومن القطيعة بعد الوصول، ومن الصدود بعد الدنو والقرب، ومن الضلالة بعد الهداية، ومن الكفر بعد الإيمان، فالدنيا كالنهر العظيم الجاري الذي ذكرناه، كل يوم في زيادة ماء، وهي شهوات بني ادم ولذاتهم فيها، والبدواهي التي تصيبهم منها، وأمّا السهام وأنواع السلاح فالبلايا التي يجري بها القدر إليهم، فالغالب على بني آدم في الدنيا البلايا والنفع والآلام والمحن، وما يجدون من النعم واللذات فيها فمشوبة بالآفات إذا اعتبرها كل عاقل لا حياة له ولا عيش ولا راحة إلّا في الآخرة إن كان مؤمناً، لأنّ ذلك خصوصاً في حق المؤمن. قال النبي ﷺ «لا عيش إلّا عيش الآخرة» وقال عليه الصلاة والسلام: «لا راحة للمؤمن دون لقاء ربه» ذلك في حق المؤمنين. وقال ﷺ: «الدنيا سجن المؤمن وجنّة الكافر» وقال عليه الصلاة والسلام: «التقي ملجم» فمع هذه الأخبار والعيان كيف يدعى طيبُ العيش في الدنيا، فالراحة كل الراحة في الانقطاع إلى الله عزّ وجلّ وموافقته، والاستطراح بين يديه، فيكون العبد بذلك خارجاً عن الدنيا، فحينئذ يكون الدلال رأفة ورحمة، ولطفاً وصدقة وفضلاً، والله أعلم.

Marfat.com

في النهي عن الشكوى

قال رضي الله عنه:

الـوصية: لا تَشْكُرَنَّ إلى أحد ما نزل بك من خير، كائناً من كان؛ صديقاً أو عدواً؛ ولا تتهمن الرب عزّ وجلّ فيما فعل فيك وانزل بك من البلاء، بل أظْهِرِ الخـير والشكر، فكذبك بإظهارك للشكر من غير نعمة عندك خير من صدقـك في إخبارك جلية الحال بالشكوى، من الذي خلا من نعمة الله عزّ وجلّ؟ قال الله تعالى: ﴿وَإِنْ تَعُدُّوْا نِعْمَةَ الله لَا تُحْصُوهَا﴾ [إبراهيم: ٣٤] فكم من نعمة عندك وأنت لا تعرفها؟.

لا تسكن إلى أحد من الخلق، ولا تبتأنس به، ولا تُطْلِعْ أحداً على ما أنت فيه، بل يكون أنسك بالله عزّ وجلّ، وسكونك إليه، وشكواك منه إليه، لا ترى ثانياً، فإنّه ليس لأحد ضر ولا نفع، ولا جلب ولا دفع، ولا عزّ ولا ذل، ولا رفع ولا خفض، ولا فقر ولا غنى، ولا تحريك ولا تسكين، الأشياء كلها خلق الله عزّ وجلّ وبيد الله عزّ وجلّ، بأمره وإذنه جريانها، كلٌّ يجري لأجل مسمًّى، وكل شيء عنده بمقدار، لا مقدم لما أخر، ولا مؤخر لما قدم، قال الله عزّ وجلّ ﴿وإنْ يَمْسَسْكَ الله بِضَرٍ فلا كاشف له إلّا هو، وإن يردك بخير فلا راد لفضله، يصيب به من يشاء من عباده، وهو الغفور الرحيم﴾ [يونس: ١٠٧].

فإن شكوت منه عزّ وجلّ وأنت معافى وعندكم نعمة طالباً الزيادة وتعامياً عمّا له عندك من النعمة والعافية استهزاء بها غضب عليك وأزالها عنك، وحقق شكواك، وضاعف بلواك، وشدد عقوبتك، ومقتك وقلاك، وأسقطك من عينه.

احذر الشكوى جداً ولو قُطِّعْتَ وقُرِضَ لَك بالمقاريض.

Marfat.com

إيّاك إيّاك ثم إيّاك، الله الله ثم الله، النجاةَ النجاةَ، الحذرَ الحذرَ، فإنّ أكثر ما ينزل بابن آدم من أنواع البلاء بشكواه من ربِّه عزّ وجلّ. كيف يشتكي منه عز وجلّ، وهو أرحم الراحمين، وخير الحاكمين ـ حكيم خبير، رؤوف رحيم، لطيف بعباده، وليس بظلاّم للعبيد، كطبيب حكيم حبيب شفيق لطيف قريب، هل تُتَّهَمُ الوالدةُ الرحيمة؟ قال النبي ﷺ: «الله أرحم بعبده من الوالدة بولدها.

أحْسِنِ الأدبَ يا مسكينُ، تَصَبَّر عند البلاء إن ضعفت عن الصبر، ثم اصبر إن ضعفت عن الرضا والموافقة. ثم أرض ووافق إن وجدت، ثم أفنَ إذا فقدت، أيها الكبريت الأحمر أين أنت أين توجد وتُرى؟ أما تسمع إلى قوله عزّ وجلّ: ﴿كتب عليكم القتال وهو كره لكم، وعسى أن تكرهوا شيئاً وهو خير لكم، وعسى أن تحبوا شيئاً وهو شر لكم، والله يعلم وأنتم لا تعلمون﴾ [البقرة: ٢١٦]. طوى عنك علم حقيقة الأشياء وحجبك عنه، فلا تسىء الأدب فتكره بك أو تحب بك، بل اتبع الشرع في جميع ما ينزل بك إن كنت في حالة التقوى، التي هي القدم الأولى.

واتبع الأمر في حالة الولاية وخمود وجود الهوى، ولا تجاوزه، وهي القدم الثانية.

وأرض بالفعل ووافق، وافنَ في حالة البدلية والغوثية والقطبية والصديقية، وهي المنتهى.

تنح عن طريق القدر، خل عن سبيله، رد نفسك وهواك، كف لسانك عن الشكوى، فإذا فعلت ذلك، إن كان خيراً زادك المولى طيبة وسروراً ولذة، وإن كان شراً حفظك في طاعته فيه، وأزال عنك الملامة، وأفقدك فيه حتى يتجاوز عنك، ويرحل عند انقضاء أجله، كما ينقضى الليل فيسفر عن النهار، والبرد في الشتاء فيسفر عن الصيف، ذلك أنموذج عندك، فاعتبر بهم، ثم ذنوب وآثام وإجرام وتلويثات بأنواع المعاصي والخطيئات، ولا يصلح لمجالسة الكريم

Marfat.com

إلاّ الطاهر عن أنجاس الذنوب والزلات، ولا يقبل على سدته إلاّ طيباً من درن الدعاوى والهلوسات، كما لا يصلح لمجالسة الملوك إلاّ الطاهر من الأنجاس وأنواع النتن والأوساخ، فالبلايا مكفرات مطهرات قال النبي ﷺ: «حمى يوم كفارة سنة» صدق ﷺ(١).

---

(١) ـ قلت: فقد بين الشيخ رضي الله عنه أنّ لزوم الأمر والنهي لا بد منه في كل مقام، وذكر الأحوال الثلاث التي جعلها: حال صاحب التقوى، وحال الحقيقة، وحال حق الحق. وقد فسّر مقصوده بأنّه لا بد للعبد في كل حال من أن يريد فعل ما أُمر به في الشرع، وترك ما نُهي عنه في الشرع، وأنّه إذا أُمر العبد بترك إرادته، فهو فيما لم يؤمر به ولم ينه عنه، وهذا حق، فإنّه لم يؤمر به فيكون له إرادة في وجوده، ولا نُهي عنه فتكون له إرادة في عدمه، فيخلو في مثل هذا عن إرادة النقيضين.

وقد بيّن أنّ صاحب الحقيقة عليه أن يلزم الأمر دائماً: الأمر الشرعي الظاهر إنْ عرفه، أو الأمر الباطن، وبيّن أنّ الأمر الباطن إنّما يكون فيما ليس بواجب في الشرع ولا محرم، وأنّ مثل هذا يُنْتَظَرُ فيه الأمر الخاص حتى يفعله بحكم الأمر.

فإن قلت: فما الفرق بين هذا وبين صاحب التقوى الذي قبله؟ وصاحب حق الحق الذي بعده؟

قيل: أمّا الذين بعده الذين سمّاهم «الأبدال» فهم الذين لا يفعلون إلاّ بأمر الحق، ولا يفعلون إلاّ به، فلا يشهدون لأنفسهم فعلاً فيما فعلوه من الطاعات، بل يشهدون أنّه هو الفاعل بهم ما قام بهم من طاعة أمره. ولهذا قال: «فاتباع الأمر فيها بمخالفتك إيّاك بالتبري من الحول والقوة».

فهؤلاء يشهدون توحيد الربوبية مع توحيد الإلهية، فيشهدون أنّ الله هو الذي خلق ما قام بهم من أفعال البر والخير، فلا يرون لأنفسهم حمداً ولا منّةً على أحد، ويرون أنّ الله خالق أفعال العباد، فلا يرون أحداً مسيئاً إليهم، ولا يرون لهم حقّاً على أحدٍ، إذ قد شهدوا أنّ الله خالق كل شيء من أفعال العباد وغيرها، وهم يعلمون أنّ العباد لا يستحقون من أنفسهم ولا بأنفسهم على الله شيئاً، بل هو الذي كتب على نفسه الرحمة. =

Marfat.com

. . . . . .

= ويشهدون أنّه يستحق أن يُعبد لا يشرك به شيئاً، وأنّه يستحق أن يُتَّقى حق تُقاته، وحق تقاته أن يُطاع فلا يُعصى، ويُذكر فلا يُنسى، ويشكر فلا يُكْفَر، فيرون أن ما قام بهم من العمل الصالح فهو بفضله وجوده وكرمه، له الحمد في ذلك.

ويشهدون: أنّه لا حول ولا قوة إلاّ بالله. وأمّا ما قام بالعباد من أذاهم، فالله خالقه وهو من عدله، وما تركه الناس من حقوقهم التي يستحقونها على الناس فهو الذي لم يخلقه، وله الحمد على كل حال: على ما فعل وما لم يفعل.

ولهذا كانوا منكسرة قلوبهم، لشهودهم وجوده الكامل وعدمهم المحض، ولا أعظم انكساراً ممن لم يرَ لنفسه إلاّ العدم، لا يرى له شيئاً، ولا يرى به شيئاً.

وصاحب الحقيقة الذي هو دون هذا قد شاركه في إخلاص الدين لله، وأنّه لا يفعل إلاّ ما أُمر به، فلا يفعل إلاّ الله، لكن قصّر عنه في شهود توحيد الربوبية ورؤيته، وأنّه لا حول ولا قوة إلاّ بالله، وأنّه ليس له في الحقيقة شيء، بل الرب هو الخالق الفاعل لكل ما قام به، وأنّ كمال هذا الشهود لا يُبقي شيئاً من العجب ولا الكبر ونحو ذلك.

فكلاهما قائم بالأمر مطيع لله، لكن هذا يشهد أنّ الله هو الذي جعله مسلماً مصلياً، وإنّه هو في الحقيقة لم يُحدث شيئاً. وذاك وإن كان يؤمن بهذا ويصدّق به إذ كان مقرّاً بأنّ الله خالق أفعال العباد لكن قد لا يشهده شهوداً يجعله فيه بمنزله المعدوم.

وأيضاً بينهما فرق من جهة ثانية: وهي أنّ الأوّل تكون له إرادة في أمور فيتركها، فهو يميز في مراداته بين ما يؤمر به وما ينهى عنه، وما لا يؤمر به ولا ينهى عنه. وهذا لم يبق له مراد أصلاً إلاّ ما أراده الربّ: إمّا أمراً به فيمتثله هو بالله، وإمّا فعلاً فيه فيفعله الله به. ولهذا شبّهه بالطفل مع الظئر في غير الأمر والنهي.

وأمّا الأوّل: الذي هو في مقام التقوى العامة فإنّ له شهوات للمحرمات، وله التفات إلى الخلق، وله رؤية نفسه، فيحتاج إلى المجاهدة بالتقوى بأن يكف عن المحرمات، وعن تناول الشهوات بغير الأمر. فهذا يحتاج أن يميِّز بين ما يفعله وما لا=

Marfat.com

. . . . . .

7 = يفعله، وهو التقوى.

وصاحب الحقيقة: لم يبق له ما يفعله إلاّ ما يُؤمر به فقط، فلا يفعل إلاّ ما أُمر به في الشرع، وما كان مباحاً لم يفعل إلاّ ما أُمر به باطناً.

وأمّا الثالث: فقد تمّ شهوده في أنّه لا يفعل إلاّ الله وبالله، فلا يفعل إلاّ ما أمَرَ الله به لله، ويشهد أنّ الله هو الذي فعل ذاك في الحقيقة، ولا تكون له همة أو إرادة أن يفعل لنفسه ولا لغير الله، ولا يفعل بنفسه ولا بغير الله.

والثلاثة مشتركون في الطريق، في أنّ كُلاً منهم لا يفعل إلاّ الطاعة، لكن يتفاوتون بكمال المعرفة والشهادة، وبصفاء النية والإرادة، والله أعلم.

فإن قيل: كلام الشيخ كله يدور على أنّه يتّبع الأمر مهما أمكن معرفته ظاهراً وباطناً، وما ليس فيه أمر باطن ولا ظاهر يكون فيه مسلماً لفعل الرب، بحيث لم يكون له اختيار لا في هذا ولا في هذا، بل إن عرف الأمر كان معه، وإن لم يعرفه كان مع القدر، فهو مع أمر الرب إن عَرَف، وإلاّ فمع خلقه، فإنّه سبحانه له الخلق والأمر. وهذا يقتضي أنّ من الحوادث ما ليس فيه أمر ولا نهي، فلا يكون لله فيه حكم لا باستحباب ولا كراهة.

وقد صرح بذلك هو والشيخ حمّاد الدبّاس، وأنّ السالك يصل إلى أمور لا يكون فيها حكم شرعي بأمر ولا نهي، بل يقف العبد مع القدر.

وهذا الموضع هو الذي يكون السالك فيه عندهم مع الحقيقة القدرية المحضة، إذ ليس هنا حقيقة شرعية.

وهذا مما ينازعهم فيه أهل العلم بالشريعة، ويقولون: إنّ الفعل إمّا أن يكون بالنسبة إلى الشرع وجوده راجحاً على عدمه، وهو الواجب والمستحب. وإمّا أن يكون عدمه راجحاً على وجوده، وهو المحرَّم والمكروه. وإمّا أن يستوي الأمران، وهو المباح. وهذا التقسيم بحسب الأمر المطلق.

ثم الفعل المعين الذي يُقال: هو مباح: إمّا أن تكون مصلحته راجحة للعبد، لاستعانته به على طاعة ولحسن نيته، فهذا يصير ايضاً محبوباً راجح الوجود بهذا =

Marfat.com

الاعتبار. وإمّا أن يكون مفوِّتاً للعبد ما هو أفضل له، كالمباح الذي يشغله عن مستحب، فهذا عدمه خير له.

والسالك المتقرِّب إلى الله بالنوافل بعد الفرائض: لا يكون المباح المعين في حقه مستوي الطرفين، فإنّه إذا لم يستعن به على طاعة، كان تركه وفعل طاعة مكانه خيراً له، وإنّما قدر وجوده وعدمه سواء إذا كان مع عدمه يشتغل بمباح مثله.

فيقال: لا فرق بين هذا وهذا، فهذا يصلح للابرار أهل اليمين الذين يتقرَّبون إلى الله بالفرائض: أداء الواجبات وترك المحرَّمات، ويشتغلون مع ذلك بمباحات. فهؤلاء قد يكون المباح المعين يستوي وجوده وعدمه في حقهم، إذا كانوا عند عدمه يشتغلون بمباح آخر، ولا سبيل إلى أن تترك النفس فعلاً إن لم تشتغل بفعل آخر يضاد الأول؛ إذ لا تكون معطَّلة عن جميع الحركات والسكنات.

ومن هنا أنكر الكَعْبِيُّ المباح في الشريعة؛ لأنّ كل مباح فهو يشتغل به عن محرّم، وترك المحرّم واجب، ولا يمكنه تركه إلاّ أن يشتغل بضده، وهذا المباح ضده، والأمر بالشيء نهى عن ضده، والنهي عنه أمر بضده المعين إن لم يكن له إلاّ ضد واحد، وإلاّ فهو أمر بأحد أضداده، فاي ضد تلبَّس به كان واجباً من باب الواجب المخيّر.

وسؤال الكعبي هذا أشكل على كثير من النظَّار. فمنهم من اعترف بالعجز عن جوابه: كأبي الحسن الآمدي، وقوَّاه طائفة، بناء على أن النهي عن الشيء أمر بضده، كأبي المعالي.

ومنهم من قال: هذا فيما كانت أضداده محصورة، فأمّا ما ليست أضداده محصورة فلا يكون النهي عنه أمراً بأحدها، كما يفرّق بين الواجب المطلق والواجب المخير، فيقال في المخير: هو امر بأحد الثلاثة، ويقال في المطلق: هو أمر بالقدر المشترك، وجدي أبو البركات يميل إلى هذا.

وقد ألزموا الكعبيّ إذا ترك الحرامي بحرام آخر، وهو قد يقول: عليه ترك المحرّمات كلها إلى ما ليس بمحرم، بل إمّا مباح وإمّا مستحب، وإمّا واجب.

Marfat.com

. . . . . .

= وتحقيق الأمر أنّ قولنا: الأمر بالشيء نهي عن ضده وأضداده، والنهي عنه أمر بضده أو بأحد أضداده، من جنس قولنا: الأمر بالشيء أمر بلوازمه، وما لا يتم الواجب إلاّ به فهو واجب، والنهي عن الشيء نهي عن ما لا يتم اجتنابه إلاّ باجتنابه، فإنّ وجود المأمور به يستلزم وجود لوازمه وانتفاء أضداده، بل وجود كل شيء هو كذلك يستلزم وجود لوازمه وانتفاء أضداده، وعدم المنهى عنه، بل وعدم كل شيء يستلزم عدم ملزوماته، وإذا كان لا يعدم إلاّ بضد يخلقه كالأكوان، فلا بد عند عدمه من وجود بعض أضداده.

فهذا حق في نفسه، لكن هذه اللوازم جاءت من ضرورة الوجود، وإن لم تكن مقصودةً للآمر. والفرق ثابت بين ما يؤمر به قصداً، وبين ما يلزمه في الوجود.

فالأوّل هو الذي يُذم ويُعاقب على تركه، بخلاف الثاني. فإن من أُمر بالحج أو الجمعة وكان مكانه بعيداً، فعليه أن يسعى من المكان البعيد، والقريب يسعى من المكان القريب. فقطع تلك المسافات من لوازم المأمور به، ومع هذا فإذا ترك هذان الجمعةَ والحجَّ، لم تكن عقوبة البعيد أعظم من عقوبة القريب، بل ذاك بالعكس أوْلى، مع أنّ ثواب البعيد أعظم. فلو كانت اللوازم مقصودة للآمر لكان يُعاقب بتركها، فكان تكون عقوبة البعيد أعظم، وهذا باطل قطعاً.

وهكذا إذا فعل المأمور به فإنّه لا بد من ترك أضداده، لكن ترك الأضداد هو من لوازم فعل المأمور به، ليس مقصوداً للآمر، بحيث أنّه إذا ترك المأمور به عوقب على تركه لا على فعل الأضداد التي اشتغل بها، وكذلك المنهي عنه مقصود الناهي عدمُه، ليس مقصوده فعل شيء من أضداده، وإذا تركه متلبّساً بضد له كان ذلك من ضرورة الترك.

وعلى هذا إذا ترك حراماً بحرامٍ آخر فإنّه يعاقب على الثاني، ولا يقال: فَعَلَ واجباً وهو ترك الأوّل، لأنّ المقصود عدم الأوّل، فالمباح الذي اشتغل به عن محرّم لم يؤمر به ولا بامثاله كان أمراً مقصوداً، لكن نُهي عن الحرام، ومن ضرورة ترك المنهي عنه الاشتغال بضد من أضداده، فذاك يقع لازماً لترك المنهي عنه، فليس هو الواجب =

. . . . . .

=المحدود بقولنا: «الواجب ما يُذم تاركه، ويُعاقب تاركه» أو «يكون تركه سبباً للذم والعقاب».

فقولنا: «ما لا يتم الواجب إلاّ به فهو واجب» أو: «يجب التوصل إلى الواجب بما ليس بواجب»: يتضمن إيجاب اللوازم. والفرق ثابت بين الواجب الأوّل والثاني، فإنّ الأوّل يُذم تاركه ويعاقب، والثاني واجب وقوعاً، أي لا يحصل الأوّل إلاّ به، ويؤمر به أمراً بالوسائل، ويُثاب عليه، لكن العقوبة ليست على تركه.

ومن هذا الباب إذا اشتبهت المَيْتَة بالمذكّى، فإنّ المحرّم الذي يعاقب على فعله أحدهما، بحيث كذا أكلهما جميعاً لم يعاقب عقوبة من أكل مَيْتَتين، بل عقوبة من أكل مَيْتة واحدة، والأخرى وجب تركها وجوب الوسائل.

فقول من قال: كلاهما محرم، صحيح بهذا الاعتبار. وقول من قال: المحرم في نفس الأمر أحدهما، صحيح أيضاً بذلك الاعتبار. وهذا نظير قول من قال: يجب التوصل إلى الواجب بما ليس بواجب.

وإنكارُ أبي حامد الغزالي وأبي محمد المقدسي على من قال هذا، ومن قال: المحرَّم أحدهما، لا يناسب طريقة الفقهاء، وحاصله يرجع إلى نزاعٍ لفظي. فإنّ الوجوب والحرمة الثابتة لأحدهما ليست ثابتة للآخر، بل هي نوعٌ آخر، حتى لو اشتبهت مملوكته بأجنبية بالليل ووطئها [وهو] يعتقد حل وطء إحداهما وتحريم وطء الأخرى، كان ولده من مملوكته ثابتاً نسبهُ بخلاف الأخرى، ولو قدرنا أنّه اشتبهت أخته بأجنبية، وتزوج إحداهما فحُدَّ مثلاً، ثم تزوج الأخرى لم يحد حدين، مع أنّه لا حد في ذلك لجواز أن تكون المنكوحة هي الأجنبية.

وبهذا تنحل شبهة الكعبي، فإنّ المحرّم تركه مقصود، وأمّا الاشتغال بضد من أضداده فهو وسيلة.

فإذا قيل: المباح واجب، بمعنى وجوب الوسائل، أي قد يُتوسل به إلى فعل واجب وترك محرم، فهذا حق.

ثم إنّ هذا يُعتبر فيه القصد؛ فإن كان الإنسان يقصد أن يشتغل بالمباح ليترك=

Marfat.com

. . . . . .

المحرم، مثل من يشتغل بالنظر إلى إمرأته ووطئها ليدع بذلك النظر إلى الأجنبية ووطئها، أو يأكل طعاماً حلالاً ليشتغل به عن الطعام الحرام، فهذا يثاب على هذه النية والفعل.

كما بيّن ذلك النبي ﷺ بقوله: «وفي بضع أحدكم صدقة. قالوا: يا رسول الله اياتي احدنا شهوته ويكون له اجر؟ قال: ارايتم لو وضعها في حرام أما كان عليه وزر؟ قالوا: بلى. قال: فلم تعتدون بالحرام ولا تعتدون بالحلال؟».

ومنه قول النبي ﷺ: «إنّ الله يحب أن تؤخذ برخصه كما يكره أن تؤتى معصيته» رواه أحمد وابن خزيمة في «صحيحه».

وقد يقال: المباح يصير واجباً بهذا الاعتبار، وإنّ تعين طريقاً صار واجباً معيناً، وإلّا كان واجباً مخيّراً، لكن مع هذا القصد، وأمّا مع الذهول عن ذلك فلا يكون واجباً أصلاً، إلّا وجوب الوسائل إلى الترك.

وترك المحرم لا يشترط فيه القصد، فكذلك ما يُتوسل به إليه. وإذا قيل: هو مباح من جهة نفسه، وأنّه قد يجب وجوب المخيّرات من جهة الوسيل لم يُمنع ذلك. فالنزاع في هذا الباب نزاع لفظي اعتبلري، وإلّا فالمعاني الصحيحة لا ينازع فيها مَنْ فهمها.

والمقصود هنا أنّ الأبرار أصحاب اليمين قد يشتغلون عن مباح بمباح آخر، فيكون كل من المباحين يستوي وجوده وعدمه في حقهم، أمّا السابقون المقرّبون فهم إنّما يستعملون المباحات إذا كانت طاعةً لحسن القصد فيها، والاستعانة على طاعة الله، وحينئذ فمباحاتهم طاعات.

وإذا كان كذلك لم تكن الأفعال في حقهم إلّا ما يترجح وجوده، فيؤمرون به شرعاً أمرَ استحباب، أو ما يترجح عدمه فالافضل لهم أن لا يفعلوه، وإن لم يكن فيه إثم.

والشريعة قد بيّنتْ أحكام الأفعال كلها. فهذا سؤال. وسؤال ثانٍ، وهو أنّه إذا قُدّر أنّ من الأفعال ما ليس فيه أمر ولا نهي، كما في حق الأبرار، فهذا الفعل لا يُحمد =

Marfat.com

. . . . . .

ـ ولا يُذم، ولا يُحب ولا يُبغض، ولا يُنظر فيه إلى وجود القدر وعدمه، بل إن فعلوه لم يحمدوا، وإن لم يفعلوه لم يحمدوا، فلا يُجعل من ما يحمدون عليه أنّهم يكونون في هذا الفعل كالميت بين يَدَيْ الغاسل، مع كون هذا الفعل صدر باختيارهم وإرادتهم، إذ الكلام في ذلك.

وأمّا غير الأفعال الاختيارية، وهو ما فُعل بالإنسان بغير اختياره، كما يُحمل الإنسان وهو لا يستطيع الامتناع، فهذا خارج عن التكليف، مع أن العبد مأمور في مثل هذا أن يحبه إن كان حسناً، ويبغضه إن كان سيئاً، ويخلو عنهما إن لم يكن حسناً ولا سيئاً، فمن جعل الإنسان فيما يستعمله فيه القدر من الأفعال الاختيارية كالميت بين يدي الغاسل، فقد رفع الأمر والنهي عنه في الأفعال الاختيارية، وهذا باطل.

وسؤال ثالث، وهو أنّ حقيقة هذا القول طي بساط الأمر والنهي عن العبد في هذه الأحوال، مع كون أفعاله اختيارية، وهب أنّه ليس له هوى، فليس كل ما لا هوى فيه يسقط عنه فيه الأمر والنهي، بل عليه أن يحب ما أحبه الله ورسوله، ويبغض ما أبغضه الله ورسوله.

قيل: هذه الأسئلة أسئلة صحيحة.

وفصل الخطاب أنّ السالك قد يخفى عليه الأمر والنهي، بحيث لا يدري هل ذلك الفعل مأمور به شرعاً أو منهى عنه شرعاً، فينفي هواه لئلا يكون له هوى فيه، ثم يسلّم فيه للقدر، وهو فعل الرب لعدم معرفته برضا الرب وأمره وحبه في ذلك الفعل.

وهذا يُعرِضُ لكثير من أئمة العبّاد وائمة العلماء، فإنّه قد تكون عندهم أفعال وأقوال لا يعرفون حكم الله الشرعي فيها، بل قد تعارضت عندهم فيها الأدلة، أو خفيت الأدلة بالكلية، فيكونون معذورين لخفاء الشرع عليهم.

وحكم الشرع إنّما يثبت في حق العبد إذا تمكن من معرفته، فأمّا ما لم يبلغه ولم يتمكن من معرفته فلا يُطالب به، وإنّما عليه أن يتّقي الله ما استطاع. وهذا خطأ في العلم، وليس خطأ في العمل، وهو كالمجتهد المخطىء له أجر على قصده واجتهاده، =

Marfat.com

. . . . . .

= وخطؤه مرفوع عنه.

فإن قيل: فإذا كان الأمر هكذا، فالواجب على العبد أن يتوقف في مثل هذه الحال، إذا لم يتبين له أن ذلك الفعل مأمور به أو منهي عنه، وهو لا يريد أن يفعل شيئاً لا مدح فيه ولا ذم، فيقف لا يستسلم للقدر، ويصير محلاً لما يستعمل فيه من الأفعال، اللهم إلاّ إذا فعل غيره فعلاً، فهو لا يمدحه ولا يذمه، ولا يرضاه ولا يسخطه، إذا لم يتبين له حكمه.

فأمّا كونه هو من أفعاله الاختيارية يصير مستسلماً لما يستعمله القدر فيه، كالطفل مع الظئر، والميت مع الغاسل، فهذا ما لم يأمر الله به ولا رسوله، بل هذا محرّم، وإن عُفِيَ عن صاحبه. وحَسْبُ صاحبه أن يُعفى عنه لاجتهاده وحسن قصده.

أمّا كونه يحمد على ذلك، ويُجعل هذا أفضل المقامات، فليس الأمر كذلك. وكونه مجرداً عن هواه ليس مسوِّغاً له أن يستسلم لكل ما يُفعل به.

ثم يقال: الأمور مع هذا نوعان: أحدهما: أن يُفعل به بغير اختياره، كما يحمل الإنسان ولا يمكنه الامتناع، وكما تُضجع المرأة قهراً وتوطأ، فهذا لا إثم فيه باتفاق العلماء. وأمّا أن يُكره بالإكراه الشرعي حتى يفعل، فهذا أيضاً معفو عنه في الأفعال عند الجمهور، وهو أصح الروايتين عن أحمد، لقوله تعالى: ﴿ومن يُكرههنَّ فإنّ الله مِنْ بَعْدِ إكْرَاهِهِنَّ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [النور: ٣٣].

وأمّا إذا لم يكره الإكراه الشرعي، فاستسلامه للفعل المطلق الذي لا يُعرف أخير هو أم شر، ليس هو مأموراً به، وإنْ جرى على يده خرق عادة أو لم يجرِ، فليس هو مأموراً أن يفعل إلاّ ما هو خير عند الله ورسوله.

قيل: هذا السؤال صحيح، وحقيقة الأمر أنّ السالكين إذا وصلوا إلى هذا المقام فبحسن قصدهم وتسليمهم وخضوعهم لربهم، وطلبهم منه أن يختار لهم ما هو الأصلح، إذا استعملوا في أمر وهم لا يعرفون حكمه في الشرع رجوا أن يكون خيراً؛ لأنّ معرفتهم بحكمه قد تتعذر عليهم، والإنسان غير عالم في كل حال بما هو الأصلح له في دينه، وبما هو رضا الله ورسوله، فيبقى حالهم حال المستخير لله فيما لم يعلم عاقبته =

Marfat.com

. . . . . .

إذا قال: «اللهم إني استخيرك بعلمك واستقدرك بقدرتك، وأسالك من فضلك العظيم، فإنّك تقدر ولا أقدر، وتعلم ولا أعلم، وأنت علاّم الغيوب. اللهم إن كنت تعلم أنّ هذا الأمر خير لي في ديني ومعاشي وعاقبة أمري فاقدره لي، ويسره لي، ثم بارك لي فيه. وإن كنت تعلم أنّ هذا الأمر شر لي في ديني ومعاشي وعاقبه أمري، فاصرفه عني، واصرفني عنه، واقدر لي الخير حيث كان ثم رضّني به».

فإذا استخار الله كان ما شرح له صدره، وتيسر له من الأمور هو الذي اختاره الله له، إذ لم يكن معه دليل شرعي على أن عين هذا الفعل هو مامور به في هذه الحال. فإنّ الأدلة الشرعية إنّما تأمر بأمرٍ مطلق عام، لا بعين كل فعل من كل فاعل، إذ كان هذا ممتنعاً، وإن كان ذلك المعين يمكن إدراجه تحت بعض خطاب الشارع العام، إذا كانت الأفراد المعينة داخلة تحت الأمر العام الكلي، لكن لا يقدر كل أحد على استحضار هذا، ولا على استحضار أنواع الخطاب.

ولهذا كان الفقهاء يعدلون إلى القياس عند خفاء ذلك عليهم. ثم القياس أيضاً قد لا يحصل في كل واقعة، فقد يخفى على الأئمة المجتهدين، من الصحابة والتابعين لهم بإحسان، دخول الواقعة المعينة تحت خطاب عام، أو اعتبارها بنظير لها، فلا يعرف لها أصل ولا نظير. هذا مع كثرة نظرهم في خطاب الشارع ومعرفة معانيه ودلالته على الأحكام، فكيف بمن لم يكن كذلك؟

ثم السالك ليس قصده معرفة الحلال من الحرام، بل مقصوده أنّ هذا الفعل المعين خير من هذا، وهذا خير من هذا، وأيهما أحب إلى الله في حقه في تلك الحال.

وهذا باب واسع لا يحيط به إلاّ الله، ولكل سالك حال تخصه قد يؤمر فيها بما يُنهى عنه غيره، ويؤمر في حال بما يُنهى عنه في حال آخر.

فقالوا: نحن نفعل الخير بحسب الإمكان، وهو فعل ما علمنا أنا أُمرنا به، ونترك أصل الشر، وهو هوى النفس، ونلجأ إلى الله فيما سوى ذلك أن يوفقنا لما هو أحب إليه وارضى له؛ فما استعملنا فيه رجونا أن يكون من هذا الباب، ثم إن أصبنا فلنا أجران، وإلاّ فلنا أجر واحد، وخطؤنا محطوط عنا، فهذا هذا.

Marfat.com

. . . . . .

= وحينئذ فمن قدَّر أنّه عَلِمَ المشروع وفَعَلَه فهو أفضل من هذا، ولكن كثير ممن يعلم المشروع لا يفعله، ولا يقصد أحب الأمور إلى الله، وكثير منهم يفعله بشوب من الهوى، فيبقى هذا يفعل المشروع بهوى، وهذا يترك ما لم يعلم أنّه مشروع بلا هوى. فهـذا نقص في العلم، وذاك نقص في العمـل، إذ العمل بهوى النفس نقص في العمل، ولو كان المفعول واجباً.

فيقال: إن تاب صاحب الهوى من هواه كان أرفع بعلمه، وإن لم يتب فله نصيب من عالم السوء.

ولهذا تشاجر رجلان من المتقدمين عام الحكمين في مثل هذا. فقال أحدهما لصاحبه: إنّما مثلك مثل الكلب إن تحمل عليه يلهث أو تتركه يلهث. وقال الآخر: أنت كالحمار يحمل أسفاراً؛ فهذا احسن قصداً وأقوى علماً.

ولهـذا تجد أصحاب حسن القصد إنّما يعيبون على هؤلاء اتّباع الهوى وحب الدنيا والرئاسة، وأهل العلم يعيبون على أولئك نقص علمهم بالشرع، وعدولهم عن الأمر والنهي، فهذا هذا.

والله هو المسؤول أن يهدينا الصراط المستقيم، صراط الذين أنعم عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقاً.

وقد قال بعض أهل الفقه والزهد: من الناس من سلك الشريعة ومنهم من سلك الحقيقـة، ولعله اراد هؤلاء وهؤلاء. فإنّ هؤلاء يرجُحُون بما ييسَّره الله، مع حسن القصد واتّباع الأمر والنهي المعلوم لهم، مع خفاء الأدلة الشرعية في ذلك المتيسر لهم. وهؤلاء يرجحـون بالأدلـة الشرعية من الـظواهر، والأقيسة، وأخبار الآحاد، وأقوال العلماء، مع خفاء الأمر المتيسر لهم.

وايضـاً فهؤلاء قد يشهـدون ما في ذلك الفعل المقدور من المصلحة والخير، فيرجّحـونه بحكم الإيمان، وإن لم يعرفوا دليلاً من النص على حسنه، وأولئك إنّما يرجّحون بالنصوص وما استنبط منها. فهؤلاء لهم القرآن، وهؤلاء لهم الإيمان.

وسبب هذا انّ كلا من الطائفتين خَفِيَ عليه ما مع الأخرى من الحق، وكل =

Marfat.com

. . . . . .

من الطائفتين في طريقها حق وباطل. فأمّا المدّعون للحقيقة بدُون مراعاة الأمر والنهي الشرعيين، فهم ضالون، كالذين يعرفون الأمر والنهي ولا يفعلون إلّا ما يهوونه من الكبائر، فإنّهم فساق. وهؤلاء وهؤلاء الذين قيل فيهم: «احذروا فتنة العالم الفاجر والعابد الجاهل، فإنّ فتنتهما فتنة لكل مفتون».

والحقيقة قد تكون قدرية، وقد تكون ذوقية، وقد تكون شرعية. ولفظ «الشرع» يتناول المبدَّل المبدَّل والمؤوَّل والمنزَّل.

والمقصود هنا ذكر أهل الاستقامة من الطائفتين، والكلام على حال أهل العبادة والإرادة، الذين خرجوا عن الهوى، وهو الفرق الطبعي، وقاموا بما علموه من الفرق الشرعي. وبقي قسم ثالث ليس لهم فيه فرق طبعي ولا عندهم فيه فرق شرعي، فهو الذي جروا فيه مع الفعل والقدر.

وأمّا من جرى مع الفرق الطبعي: إمّا عالماً بأنّه عاصٍ، وهو العالم الفاجر، أو محتجاً بالقدر أو بذوقه ووجده معرضاً عن الكتاب والسنة، وهو العابد الجاهل ـ فهذا خارج عن الصراط المستقيم.

وهذا مما يبيّن كمال حال الصحابة، وأنّهم خير قرون هذه الأمة، إذ كانوا في خلافة النبوة يقومون بالفروق الشرعية في جليل الأمور ودقيقها، مع اتّساع الأمر. والواحد من المتأخرين قد يعجز عن معرفة الفروق الشرعية فيما يخصه، كما أنّ الواحد من هؤلاء يتّبع هواه في أمر قليل. فأولئك مع عظيم ما دخلوا فيه من الأمر والنهي، لهم العلم الذي يميّزون به بين الحسنات والسيئات، ولهم القصد الذي يفعلون فيه الحسنات. والكثير من المتأخرين العالمين والعابدين يفوت أحدهم العلم في كثير من الحسنات والسيئات، حتى يظن السيئة حسنة وبالعكس، أو يفوته القصد في كثير من الأعمال، حتى يتبع هواه فيما وضح له من الأمر والنهي.

فنسأل الله أن يهدينا الصراط المستقيم، صراط الذين أنعم عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين.

هذا لعمري إذا كان عند العالم ما هو أمر الشارع ونهيه حقيقة، وعند العابد=

Marfat.com

. . . . . .

حسن القصد الخالي عن الهوى حقيقة، فأمّا من خلط الشرع المنزَّل بالمبدل والمؤول، وخلط القصد الحسن باتباع الهوى، فهؤلاء وهؤلاء مخلِّطون في علمهم.

وتخليط هؤلاء في العلم سوى تخليطهم وتخليط غيرهم في القصد، وتخليط هؤلاء في القصد سوى تخليطهم وتخليط غيرهم في العلم. فإنّه من عمل بما علم ورّثه الله علم ما لم يعلم، وحسن القصد من أعْوَن الأشياء على نيل العلم ودركه، والعلم الشرعي من أعون الأشياء على حسن القصد والعلم الصالح، فإن العلم قائد والعمل سائق والنفس حَرُون، فإن ونى قائدها لم تستقم لسائقها، وإن ونى سائقها لم تستقم لقائدها. فإذا ضعف العلم حار السالك ولم يدر أين يسلك، فغايته أن يستطرح للقدر، وإذا ترك العمل حاد السالك عن الطريق فسلك غيره، مع علمه أنّه تركه، فهذا حائر لا يدري أين يسلك مع كثرة سيره، وهذا حائد عن الطريق زائغ عنه مع علمه به.

قال تعالى: ﴿فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللهُ قُلُوبَهُمْ﴾ [الصف: ٥] هذا جاهل وهذا ظالم. قال تعالى: ﴿وَحَمَلَهَا الإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُوماً جَهُولاً﴾ [الأحزاب: ٧٢]، مع أنّ الجهل والظلم متقاربان، لكن الجاهل لا يدري أنّه ظالم، والظالم جَهِلَ الحقيقة المانعة له من العلم. قال تعالى: ﴿إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٍ﴾ [النساء: ١٧].

قال أبو العالية: سألت أصحاب محمد ﷺ فقالوا لي: كل من عصى الله فهو جاهل، وكل من تاب قبل الموت فقد تاب من قريب.

وقد روى الخلال عن أبي حيّان التيمي قال: العلماء ثلاثة: فعالم بالله ليس عالماً بأمر الله، وعالم بأمر الله ليس عالماً بالله، وعالم بالله وبأمر الله.

فالعالم بالله الذي يخشاه، والعالم بأمر الله الذي يعرف أمره ونهيه.

قلت: والخشية تمنع اتّباع الهوى. قال تعالى: ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الهَوَى فَإِنَّ الجَنَّةَ هِيَ المَأْوَى﴾ [النازعات: ٤٠].

الكمال في عدم الهوى وفي العلم، وذلك هو لخاتم الرسل ﷺ الذي قال فيه:

. . . . . .

= ﴿وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَى، مَاضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَى، وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الهَوى، إِنْ هُوَ إِلاَّ وَحْيٌ يُوحَى﴾ [النجم: ١ ـ ٤]، فنفى عنه الضلال والغي، ووصفه بأنّه ما ينطق عن الهوى، إن هو إلاّ وحي يُوحى، فنفى الهوى وأثبت العلم الكامل، وهو الوحي. فهذا كمال العلم، وذاك كمال القصد، صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلّم تسليماً.

ووصف أعداءه بضد هذين، فقال تعالى: ﴿إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلاَّ الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الأَنْفُسُ وَلَقَدْ جَاءهُم مِّن رَّبِّهِم الهُدَى﴾ [النجم: ٢٣] فالكمال المطلق للإنسان هو تكميل العبودية لله علماً وقصداً.

قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الجِنَّ والإِنْسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦].

وقال تعالى: ﴿وَأَنَّهُ لَمَّا قَامَ عَبْدُ الله يَدْعُوهُ﴾ [الجن: ١٩].

وقال فيما حكاه عن إبليس: ﴿فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ، إِلاَّ عِبَادَكَ مِنْهُمُ المُخْلِصِينَ﴾ [ص: ٨٢، ٨٣] وقال: ﴿إِنَّ عِبادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ﴾ [الحجر: ٤٢]، وقال: ﴿كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوء وَالفَحْشَاء إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا المُخْلَصِينَ﴾[يوسف: ٢٤] وقال تعالى: ﴿إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الذِينَ آمَنُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُون، إِنَّمَا سُلْطَانُهُ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ وَالَّذِينَ هُم بِهِ مُشْرِكُونَ﴾ [النحل: ٩٩، ١٠٠] وعبادته تعالى هي طاعة أمره، وأمره لنا ما بلغه الرسول عنه، فالكمال في كمال طاعة الله ورسوله باطناً وظاهراً، ومن كان لم يعرف ما أمر الله به فترك هواه واستسلم للقدر، أو اجتهد في الطاعة فأخطأ فعل المأمور به إلى ما اعتقده مأموراً به، أو تعارضت عنده الأدلة فتوقف عمّا هو طاعة في نفس الأمر، فهؤلاء مطيعون لله يثابون على ما أحسنوه من القصد لله، واستفرغوه من وسعهم في طاعة الله، وما عجزوا عن علمه فأخطؤوه إلى غيره فمغفور لهم.

وهذا من أسباب فتن تقع بين الأمة، فإن أقواماً يقولون ويفعلون أموراً هم مجتهدون فيها، وقد أخطؤوا، فتبلغ أقواماً يظنون أنّهم تعمدوا فيها الذنب، أو يظنون أنّهم لا يُعذرون بالخطأ، وهم ايضاً مجتهدون مخطئون، فيكون هذا مجتهداً مخطئاً في فعله، وهذا مجتهداً مخطئاً في إنكاره، والكل مغفور لهم. وقد يكون أحدهما مذنباً،=

Marfat.com

. . . . . .

=كما قد يكونان جميعاً مذنبَيْن: «وخير الكلام كلام الله، وخير الهدي هدي محمد، وشر الأمور محدثاتها وكل بدعة ضلالة».

والـواحد من هؤلاء قد يعطى تصرفاً بالأمر والنهي، فيولّي ويعزل، ويعطى ويمنع، فيظن الظان أنّ هذا كمال، وإنّما يكون كمالاً إذا كان موافقاً للأمر، فيكون طاعة لله، وإلاّ فهو من جنس المُلك، وأفعال الملك إمّا ذنب، وإمّا عفو، وإمّا طاعة.

فالخلفاء الراشدون أفعالهم، طاعة وعبادة، وهم أتباع العبد الرسول، ﷺ، وهي طريق السابقين المقرّبين. وأمّا طريق الملوك العادلين، فإمّا طاعة، وإمّا عفو، وهي طريقة الأنبياء الملوك، وطريقة الأبرار أصحاب اليمين.

وأمّا طريقة الملوك الظالمين فتتضمن المعاصي. وهي طريقة الظالمين لأنفسهم. قال تعالى: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا الكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ، وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ، وَمِنْهُم سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ بِإِذْنِ الله، ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الكبِيرُ﴾ [فاطر: ٣٢]، فلا يخرج الواحد من المؤمنين عن أن يكون من أحد هذه الأصناف: إمّا ظالم لنفسه وإمّا مقتصد وإمّا سابق بالخيرات.

وخوارق العادات، إمّا مكاشفة، وهي من جنس العلم الخارق، وإمّا تصرف وهي من جنس القدرة الخارقة، وأصحابها لا يخرجون عن الأقسام الثلاثة.

فصـــل

وقـد تفرّق الناس في هذا المقام الذي هو غاية مطالب العباد، فطائفة من الفلاسفة ونحوهم يظنون أنّ كمال النفس في مجرد العلم، ويجعلون العلم الذي به يكمل ما يعرفونه هم من علم ما بعد الطبيعة، ويجعلون العبادات رياضة لأخلاق النفس حتى تستعد للعلم فتصير النفس عالماً معقولاً موازياً للعالم الموجود، وهؤلاء ضالّون، بل كافرون من وجوه:

منهـا: أنّهم اعتقـدوا الكمال في مجرد العلم، كما اعتقد جهم، والصالحي، =

. . . . . .

= والأشعري في المشهور من قوله*، وأكثر أتباعه: أنّ الإيمان مجرد العلم.

لكن المتفلسفة أسوأ حالاً من الجهمية، فإنّ الجهمية يجعلون الإيمان هو العلم بالله، وأولئك يجعلون كمال النفس في أن تعلم الوجود المطلق من حيث هو وجود، والمطلق بشرط الإطلاق إنّما يكون في الأذهان لا في الأعيان، والمطلق لا بشرط لا يوجد أيضاً في الخارج إلاّ معيناً، وإن علموا الوجود الكلي المنقسم إلى واجب وممكن، فليس لمعلوم علمهم وجود في الخارج.

وهكذا من تصوف وتألّه على طريقتهم كابن عربي وابن سبيعن ونحوهما.

وأيضاً فإنّ الجهمية مقرُّون بالرسل وبما جاؤوا به من حيث الجملة، مقرّون بأنّ الله خلق السموات والأرض في ستة أيام، وغير ذلك مما جاءت به الرسل، بخلاف المتفلسفة.

وبالجملة فكمال النفس ليس في مجرد العلم، بل لا بد مع العلم بالله من محبته وعبادته والإنابة إليه، فهذا عمل النفس وإرادتها، وذاك علمها ومعرفتها.

الوجه الثاني: أنّهم ظنّوا أنّ العلم الذي تكمل به النفس هو علمهم، وكثير منه جهل لا علم.

الثالث: أنّهم لم يعرفوا العلم الإلهي الذي جاءت به الرسل، وهو العلم الأعلى الذي تكمل به النفس، مع العمل بموجبه.

الرابع: أنّهم يرون أنّه إذا حصل لهم ذاك العلم سقطت عنهم واجبات الشرع وأبيحت لهم محرماته، وهذه طريقة الباطنية من الإسماعيلية وغيرهم، مثل أبي يعقوب السجستاني صاحب «الأقاليد الملكوتية» وأمثاله، وطريقة من وافقهم من ملاحدة الصوفية الذين يتأوّلون قوله: ﴿واعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ﴾ [الحجر: ٩٩] أنك تعمل حتى يحصل لك العلم، فإذا حصل العلم سقط عنك العمل. =

★ ـ بل المشهور قوله إن الإيمان قول وعمل وأنه يزيد وينقص انظر الإبانة ص/٢٠/ وسامح الله شيخ الإسلام ابن تيمية! ونحن نحب شيخ الإسلام ونحب الحق، ولكن الحق أحبّ إلينا مما سواه.

Marfat.com

. . . . . .

ـــ وقد قيل للجنيد: إنّ قوماً يقولون: إنّهم يصلون من طريق البر إلى أن تسقط عنهم الفرائض وتباح لهم المحارم، أو نحو هذا الكلام. فقال: الذي يزني ويسرق ويشرب الخمر أحسن حالاً من هذا.

ومن هؤلاء من يكون طلبه للمكاشفة ونحوها من العلم أعظم من طلبه لما فرض الله عليه، ويقولو في دعائه: اللهم إنّي أسألك العصمة في الحركات والسكنات، والخطرات والإرادات والكلمات، من الشكوك والظنون والأوهام الساترة للقلوب عن مطالعة الغيوب.

وأصل المتفلسفة أنّ الفلسفة التي هي الكمال عندهم هي التشبه بالإله على قدر الطاقة، وهم يقولون: إنّ حركات الأفلاك لأجل التشبّه بالأوّل.

وعلى هذا بني أبو حامد كتابه في «شرح الأسماء الحسنى»، وتخلق العبد بأخلاق الله، وأنكر ذلك عليه المازري وغيره، وقالوا: ليس لله خلق يتخلق به العبد.

وعدل أبو الحكم ابن برجان عن لفظ التخلق إلى لفظ التعبد.

وعلى هذا الأصل الفلسفي بني ابن عربي معنى ولي الله، وأنّه المتشبّه به المتخلّق بأخلاقه، كما يفسر أبو حامد التقرّب من الله بالتشبه به، وابن عربي ونحوه يجعلون الولي أفضل من النبيّ بناء على أصُولهم الفلسفيّة الاتحادية.

وطائفة أخرى عندهم أنّ الكمال في القدرة والسلطان والتصرّف في الوجود، بنفاذ الأمر والنهي، إمّا بالملك والولاية الظاهرة، وإمّا بالباطن، وتكون عبادتهم ومجاهدتهم كذلك.

وكثير من هؤلاء يدخل في الشرك والسحر، فيعبد الكواكب والأصنام لتعينه الشياطين على مقاصده، وهؤلاء أضل وأجهل من الذين قبلهم.

وعامة من يعبد الله لطلب خوارق العادات يكون فيه نصيبٌ من هذا.

ولهذا كان منهم من يموت فاسقاً او مسلوباً، وكلهم ضلّال جهال.

وطائفة تجعل الكمال في مجموع الأمرين، فيدخلون في أقوال وأعمال من الشرك

Marfat.com

والسحر، ليستعينوا بالشياطين على ما يطلبونه من الإخبار بالأمور الغائبة، وعلى ما ينفذ به تصرفهم في العالم.

وأمّا الحق المبين فهو أنّ كمال الإنسان في أن يعبد الله علماً وعملاً، كما أمره ربه. وهؤلاء هم عبادُ الله، وهم المؤمنون والمسلمون، وهم أولياء الله المتقون، وحزب الله المفلحون، وجند الله الغالبون، وهم أهل العلم النافع، والعمل الصالح، وهم الذين زكّوا نفوسهم وكمّلوها. كملوا القوّة النظرية العلمية، والقوة الإرادةي العملية.

كما قال تعالى: ﴿واذْكُرْ عِبَادَنَا إبْرَاهِيمَ وإسْحَاقَ وَيَعْقُوب أوْلِي الأيْدِي والأبْصَارِ﴾ [صَ: ٤٥]. وقال تعالى: ﴿ وَالنَّجْمِ إذَا هَوَى * مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَى * وَمَا يَنطِقُ عَنِ الهَوَى * إنْ هُوَ إلاَّ وَحْيٌ يُوحَى﴾ [النجم: ١ ـ ٤]. وقال تعالى: ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ * صِرَاطَ الَّذِينَ أنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ المَغْضُوب عَلَيْهِمْ وَلاَ الضَّالِينَ﴾ [الفاتحة: ٦، ٧]، وقال تعالى: ﴿فَإمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِّنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلاَ يَضِلُّ وَلاَ يَشْقَى﴾ [طه: ١٢٣]. وقال تعالى: ﴿أُوْلَئِكَ عَلَى هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ وَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [البقرة: ٥]، وقال تعالى: ﴿إلَيْهِ يَصْعَدُ الكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ﴾ [فاطر: ١٠]، وقال تعالى: ﴿ إلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوا بالحَقّ وَتَواصَوْا بِالصَّبْرِ﴾ [العصر: ٣].

* * *

هذا ما وجد في الأصل.

وصلّى الله على محمد النبي وآل وسلم تسليماً كثيراً.

كتبه محمد بن احمد بن علي الخطيب بقرية بيلا في ثاني عشر جمادى الاول سنة اربع وسبعمائة.

Marfat.com

في الأمر بوفاء الوعد والنهي عن خُلْفِه

قالِ رض الله عنه:

إذا كنت ضعيف الإيمان واليقين ووعدت بوعد وفَّ بوعدك، لاتخلف كيلا يزول إيمانك ويذهب يقينك. وإذا قوى ذلك في قلبك وتمكنت خوطبت بقوله: ﴿إنّك اليومَ لدينا مكين آمين﴾ [يوسف: ٥٤] وتكرر هذا الخطاب لك حالاً بعد حال، فكنت من الخواص، بل من خواص الخواص، ولم يبق لك إرادة ولا مطب، ولا عمل تعجب به ولا قربة تراها، ولا منزلة تلمحها، فتسمو همتك إليها، فصرت كالإناء المنثلم الذي لا يثبت فيه مائع، فلا يثبت فيك إرادة ولا خلق ولا همة إلى شيء من الأشياء دنيا وأخرى، وطهرت مما سوى الله تعالى، وأعطيت رضاك عن الله عزّ وجلّ، ووعدت برضوانه عزّ وجلّ عنك، ولذذت ونعمت بأفعال الله عزّ وجلّ أجمع، فحينئذ توعد بوعد، فإذا اطمأننت إليه، ووجدت فيه أمارة إرادة ما، نقلت عن ذلك الوعد إلى ماهو أعلى منه، وصرفت إلى أشرف منه، وعوضت عن الأوّل بالغنى عنه، وفتحت لك أبواب المعارف والعلوم، وأطلعت على غوامض الأمور وحقائق الحكمة والمصالح المدفونة في الانتقال من الأوّل إلى ما يليه، ويزاد حينئذ في مكانتك في حفظ الحال ثم المقال، وفي أمانتك في حفظ الأسرار وشرح الصدور وتنوير القلب وفصاحة اللسان والحكمة البالغة في إلقاء المحبة عليك، فجعلت محبوب الخليقة أجمع الثقلين وما سواهما دنيا وأخرى إذ صرت محبوب الحق عزّ وجلّ، والخلق تابع

Marfat.com

للحق جل وعلا، ومحبتهم مندرجة في محبته، كما أنّ بغضهم يندرج في بغضه عزّ وجلّ. فإذا بلغت هذا المقام الذي ليس لك فيه إرادة شيء البتة جعلت لك إرادة شيء من الأشياء، فإذا تحققت إرادتك لذلك الشيء أزيل الشيء وأعدم، وصرفت عنه فلم تعطه في الدنيا، وعوضت عنه في الأخرى بما يزيدك قربة وزلفى إلى العلي الأعلى، وما تقرّ به عيناك في الفردوس الأعلى وجنّة المأوى، وإن كنت لم تطلب ذلك وتأمله وترجوه وأنت في دار الدنيا التي هي دار الفناء والتكاليف والعناء، بل رجاؤك وأنت فيها وجه الذي خلق وبرأ ومنع وأعطى، وبسط الأرض ورفع السماء إذ ذاك هو المراد والمطلوب والمنى، وربما عوضت عن ذلك بما هو أدنى منه أو مثله في الدنيا بعد انكسار قلبك وبصرك، حينئذ يصدك عن ذلك المطلوب والمراد، وتحقيق العوض في الأخرى على ما ذكرنا وبينا، والله سبحانه أعلم.

* * *

Marfat.com

في قوله ﷺ «دع ما يَرِيبَك إلى ما لا يَرِيبك»

قال رضي الله عنه:

دع ما يريبك إذا اجتمع مع مالا يريبك، فخذ بالعزيمة الذي لا يشوبها ريب ولا شك، ودع ما يريبك، فأمّا إذا تجرّد المريب المشوب الذي لم يصفُ عن حز القلب وحكه، فتوقف فيه، وانظر الأمر فيه، فإن أُمرت بتناوله فدونك، وإن أمرت بالكف عنه ومنعت فكف، فليكن ذلك عندك كأنّه لم يكن ولم يوجد. ارجع إلى الباب، وابتغ عند ربك الرزق، وإن ضعفت عن الصبر أو الموافقة أو الرضا أو الفنا فهو عزّ وجلّ لا يحتاج أن يذكر، فليس بغافل عنك ولاعن غيرك، وهو عزّ وجلّ يطعم الكفّار والمنافقين والمدبرين عنه فكيف ينساك؟ أيّها المؤمن الموحد المقبل على طاعته والقائم بأمره في آناء الليل وأطراف النهار.

وجه آخر: دع ما في أيدي الخلق فلا تطلبه، ولا تعلّق قلبك به، ولا ترجو الخلق ولا تخافهم، وخذ من فضل الله عزّ وجلّ، وهو ما لا يريبك، وليكن لك مسؤول واحد، ومعط واحد، ومرجوٌ واحد، ومخوف واحد، وموجود واحد، وهمة واحدة، وهو ربك عزّ وجلّ الذي نواصي الملوك بيده، وقلوب الخلق بيده، التي هي أمراء الأجساد، وأموال الخلق له عزّ وجلّ، وهم وكلاؤه وأمناؤه، وحركة أيديهم بالعطاء لك بإذنه عزّ وجلّ وأمره وتحريكه،

وكفّهـا عن عطائـك كذلـك، قال عزّ من قائـل: ﴿واسألوا الله من فضله﴾ [النساء: ٣٢] وقال تعالى: ﴿إنّ الذين تعبدون من دون الله لا يملكون لكم رزقـاً، فابتغـوا عنـد الله الـرزق، واعبـدوه، واشكـروا له، إليه ترجعـون﴾ [العنكبوت: ١٧] وقال سبحانه: ﴿وإذا سألك عبادي عنّي فإنّي قريب أجيب دعـوة الـداع إذا دعـانِ﴾ [البقـرة: ١٨٦] وقـال تعالى: ﴿ادعوني أستجب لكم﴾ [غـافـر: ٦٠] وقـال تعـالى: ﴿إنّ الله هو الـرزاق ذو القـوة المتـين﴾ [الذاريات: ٥٨] وقال تعالى: ﴿إنّ الله يرزق من يشاء بغير حساب﴾.

[آل عمران: ٣٧]

* * *

Marfat.com

في مكالمة إبليس عليه اللعنة

قال رضي الله عنه:

رأيت إبليس اللعين في المنام وأنا في جمع كثير فهمّمت بقتله، فقال لي لعنه الله: لم تقتلني وما ذنبي إن جرى القدر بالشر فلا أقدر أغيره إلى خير وأنقله إليه، وإن جرى بالخير فلا أقدر أغيّره إلى شر وأنقله إليه، فأي شيء بيدي؟ وكانت صورته على صورة الخنائي، لين الكلام، مشوه الوجه، طاقات شعر في ذقنه، حقير الصورة، دميم الخلقة، ثم تبسم في وجهي تبسم خجل ووجل، وذلك في ليلة الأحد ثاني عشر ذي الحجة من سنة ستة عشر وخمسمائة، والله الهادي لكل خير.

* * *

في ابتلاء المؤمن على قدر إيمانه

قال رضي الله عنه وأرضاه:

لا يزال الله يبتلي عبده المؤمن على قدر إيمانه، فمن عظم إيمانه وكثر وتزايد عظم بلاؤه، والرسول بلاؤه أعظم من بلاء النبي، لأنّ إيمانه أعظم، والنبي بلاؤه أعظم من بلاء البدل، وبلاء البدل أعظم من بلاء الولي، كل واحد على قدر إيمانه ويقينه، وأصل ذلك قول النبي ﷺ «إنّا معشر الأنبياء أشد الناس بلاء، ثم الأمثل فالأمثل» فيديم الله تعالى البلاء لهؤلاء السادات الكرام حتى يكونوا أبداً في الحضرة، ولا يغفلوا عن اليقظة، لأنّه يحبهم، فهم أهل المحبة، يحبون الحق، والمحب أبداً لا يختار بعد محبوبه، فالبلاء خطاف لقلوبهم، وقيدٌ لنفوسهم، يمنعهم عن الميل إلى غير مطلوبهم، والسكون والركون إلى غير خالقهم، فإذا دام ذلك في حقهم ذابت أهويتهم، وانكسرت نفوسهم، وتميّز الحق من الباطل، فتنزوي الشهوات والإرادات، والميل إلى اللذات والراحات دنيا وأخرى بأجمعها إلى ما يلي النفس، ويصير السكون إلى وعد الحق عزّ وجلّ، والرضا بقضائه، والقناعة بعطائه، والصبر على بلائه، والأمن من شر خلقه إلى ما يلي القلب، فتقوى شوكة القلب، فتصير الولاية على الجوارح إليه، لأنّ البلاء يقوّي القلب واليقين. ويحقق الإيمان والصبر، ويضعف النفس والهوى، لأنّه كلّما وصل الألم ووجد من المؤمن الصبر والرضا والتسليم لفعل الرب عزّ وجلّ، رضي الرب تعالى عنه وشكره، فجاءه المدد

Marfat.com

والزيادة والتوفيق. قال الله تعالى: ﴿لئن شكرتم لأزيدنكم﴾ [إبراهيم: ٧].

وإذا تحركت النفس بطلب شهوة من شهواتها، ولذة من لذاتها من القلب، فأجابها القلب إلى مطلوبها ذلك من غير أمر من الله تعالى وإذن منه: حصلت بذلك غفلة عن الحق تعالى وشرك ومعصية، فعمهما الله تعالى بالخذلان والبلايا وتسليط الخلق، والأوجاع والأمراض، والايذاء والتشويش، فينال كل واحد من القلب والنفس حظ، وإن لم يجب القلب والنفس إلى مطلوبها حتى ياتيه الإذن من قبل الحق عزّ وجلّ بإلهام في حق الأولياء. ووحي صريح في حق المرسلين والأنبياء عليهم الصلاة والسلام، فعمل ذلك عطاء ومنعاً وعمهما الله بالرحمة والبركة، والعافية والرضا، والنور والمعرفة، والقرب والغنى والسلامة من الآفات، والنصر على الأعداء، فاعلم ذلك واحفظه، واحذر البلاء جداً في المسارعة إلى إجابة النفس والهوى، بل توقف وترقب في ذلك إذن المولى جلّ جلاله، فتسلم في الدنيا والعقبى إن شاء الله تعالى.

*

Marfat.com

المقالة الثالثة والعشرون

في الرضا بما قسم الله تعالى

قال رضي الله عنه وأرضاه:

ارض بالدون، والزمه جداً، حتى يبلغ الكتاب أجله، فتنقل إلى الأعلى والأنفَس، وبه تهنأ، وفيه تبقى وتحفظ، بلا عناء، دنيا وأخرى ولا تبعة ولا عدوى، ثم تترقى من ذلك إلى ما هو أقر عيناً منه وأهنأ.

واعلم أنّ القسم لا يفوتك بترك الطلب، وما ليس بقسم لا تناله بحرصك في الطلب والجد والاجتهاد، فاصبر والزم الحال وأرض به، لا تأخذ بك حتى تؤمر، ولا تعط بك حتى تؤمر ولا تتحرك بك ولا تسكن بك، فتبتلى بك وبمن هو شر منك من الخلق، لأنك بذلك تظلم والظالم لا يُغْفَلُ عنه. قال الله عزّ وجلّ: ﴿وكذلك نولي بعض الظالمين بعضاً﴾ [الأنعام: ١٢٩]، لأنك في دار ملك عظيم أمرهُ، شديد شوكته، كثير جندُه، نافذةٍ مشيئته، قاهرِ حكمُه، باقٍ ملكُه، دائمِ سلطانُه، دقيقِ علمُه، بالغةٍ حكمتُه عدلٍ قضاؤه، ﴿لا يعزب عنه مثقال ذرة في السماوات ولا في الأرض﴾ [سبأ: ٣] لا يجاوزه ظلم ظالم، فأنت أعظمهم ظلماً، وأكبرهم جريمة، لأنك أشركت بتصرفك فيك وفي خلقه عزّ وجلّ بهواك. قال الله تعالى: ﴿لا تشرك بالله إنّ الشرك لظلم عظيم﴾ [لقمان: ١٣] وقال تعالى: ﴿إنّ الله لا يغفر ان يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء﴾ [النساء: ١١٦] اتق الشرك جداً ولا تقربه، واجتنبه في حركاتك وسكناتك، وليلك ونهارك، في خلوتك وجلوتك، واحذر

Marfat.com

المعصية في الجملة في الجوارح والقلب، واترك الإثم ما ظهر منه وما بطن، لا تهرب منه عزّ وجلّ فيدركك، ولا تنازعه في قضائه فيقصمك، ولا تتهمه في حكمه فيخذلك، ولا تغفل عنه فينبهك ويبتليك، ولا تحدث في داره حادثة فيهلكك، ولا تقل في دينه بهواك فيرديك، ويظلم قلبك، ويسلب إيمانك ومعرفتك، ويسلط عليك شيطانك ونفسك وهواك وشهواتك وأهلك وجيرانك وأصحابك وأخلاءك وجميع خلقه حتى عقارب دارك وحَيّاتها وجنّها وبقية هوامها فينغّص عيشتك في الدنيا ويطيل عذابك في العقبى.

* * *

Marfat.com

في الحث على ملازمة باب الله تعالى

قال رضي الله عنه وأرضاه:

احـذر معصية الله عزّ وجـلّ جداً، والـزم بابـه حقـاً، وابـذل طوقك وجهدك في طاعته معتذراً متضرعاً مفتقراً خاضعاً، متخشعاً مطرقاً، غير ناظر إلى خلقـه ولا تابع لهواك، ولا طالب للأعواض دنيا وأخرى، ولا ارتقاء إلى المنازل العالية والمقامات الشريفة، واقطع بأنّك عبده، والعبد وما ملك لمولاه، لا يستحقّ عليه شيئاً من الأشياء.

أحْسِن الأدب ولا تتهم مولاك، فكل شيء عنده بمقدار، لا مقدم لما اخر ولا مؤخر لما قدم، يأتيك ما قدر لك عند وقته وأجله إن شئت أو أبيت، لا تشره على ما سيكون لك، ولا تطلب وتتلهف على ما هو لغيرك، فما ليس هو عندك لا يخلو إمّا أن يكون لك أو لغيرك، فإن كان لك فهو إليك صائر، وأنت إليه مقـاد ومسيّر، فاللقاء عن قريب حاصل، وما ليس لك فأنْت عنه مصروف، وهـو عنـك مولّ، فأنّى لكما التلاق، فاشتغل بإحسان الأدب فيما أنت بصدده من طاعة مولاك عزّ وجلّ في وقتك الحاضر، ولا ترفع رأسك، ولا تمل عنقـك إلى ما سواه: قال الله تعـالى: ﴿ولا تمدنّ عينيك إلى ما متعنا به أزواجـاً منهم زهرةَ الحياة الدنيا لنفتنهم فيه، ورزق ربك خير وأبقى﴾ [طه: ١٣١] فقد نهاك الله عزّ وجلّ عن الالتفات إلى غير ما أقامك فيه، ورزقك من طاعتـه، واعـطاك من قسمـه ورزقـه وفضله. ونبهك أنّ ما سوى ذلك فتنة

إفتتنهم به، ورضاك بقسمك خير لك وأبقى وأبرك وأحرى وأولى، فليكن هذا دابك ومنقلبك ومثواك، وشعارك ودثارك ومرادك ومرامك، وشهوتك ومناك، تنل به كل المرام، وتصل به إلى كل مقام، وترقى به إلى كل خير ونعيم وطريف وسرور ونفيس. قال الله تعالى: ﴿فلا تعلم نفس ما أخفى لهم من قرة أعين جزاء بما كانوا يعملون﴾ [السجدة: ١٧] ولا عمل بعد العبادات الخمس وترك الذنوب، ولا أجمع ولا أعظم ولا أشرف ولا أحب إلى الله عزّ وجلّ، ولا أرضى عنده مما ذكرنا لك، وفقنا الله وإيّاك لما يحب ويرضى بمنه.

* * *

Marfat.com

في شـجرة الإيمان

قال رضي الله عنه وأرضاه:

لا تقولن يا فقير اليد، يامزوياً عنه الدنيا وأبنائها، يا خامل الذكر بين ملوك الـدنيا وأربـابها، يا جائعاً يا نائعاً[1] يا عريان الجسد، يا ظمآن الكبد، يامشتتـاً في كل زاوية من الأرض من مسجد وبقاع خراب، ومردوداً من كل باب، ومدفوعاً عن كل مراد، ومنكسراً ومزدحماً في قلبه كل حاجة ومرام، إنّ الله تعالى أفقرني وزوى عنّي الدنيا وغرني، وتركني وقلاني، وفرقني ولم يجمعني، وأهـانني ولم يعـطني من الـدنيا كفـايه، وأخملني ولم يرفـع ذكـري بين الخليفة وإخواني، وأسبل على غيري نعمة منه سابغة يتقلب فيها ليله ونهاره، وفضله عليّ وعـلى أهل دياري، وكلانا مسلمان مؤمنان، ويجمعنا أبونا آدم وأمّنا حوّاء عليهما السلام، أمّا أنت فقد فعل الله ذلك بك، لأنّ طينتك حرة، وندى رحمة الله متـدارك عليك من الصبر والرضا واليقين والموافقة والعلم، وأنوارِ الإيمان والتـوحيد متراكم لديك، فشجـرة إيمانك وغرسها وبذورها ثابتة مكينة مورقة مثمـرة متزايدة متشعبة غضة مظلّة متفرعة، فهي كل يوم في زيادة ونمو، فلا حاجة بها إلى سباطة وعلف لتنمى بها وتربى، وقد فرغ الله عزّ وجلّ من أمرك على ذلـك، وأعطاك في الآخرة دار البقاء، وخوّلك فيها، وأجزل عطاءك في العقبى «ممّا لا عَيْنٌ رأتْ، ولا أذنٌ سمعتْ، ولا خطر على قلب بشر» قال الله تعالى: ﴿فَلا تَعْلَمُ نَفْسٌ ما أُخْفِيَ لهم مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزاء بما كانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [السجـدة: ١٧] اي ما عملوا في الـدنيا من اداء الاوامـر، والصبر على ترك

Marfat.com

المناهي، والتسليم والتفويض إليه في المقدور، والموافقة له في جميع الأمور، وأمّا الغير الذي أعطاه الله عزّ وجلّ الدنيا وخوله ونعّمه بها، وأسبغ عليه فضله فعل به ذلك، لأنّ محلَّ إيمانه أرضٌ سبخة(٢) وصخر لا يكاد ينبجس منها الماء، ولا تنبت فيها الأشجار، ولا يتربى فيها الزروع والثمار، فصبّ عليها أنواع سباطه، وغيرُها مما يربى به النبات والأشجار، وهي الدنيا وحطامها، ليحفظ بها ما أنبت فيها من شجرة الإيمان وغرس الأعمال، فلو قطع ذلك عنها لجف النبات والأشجار، وانقطعت الثمار، فخربت الديار، وهو عزّ وجلّ مريد عمارتها، فشجرة إيمان الغني ضعيفة المنبت، وخال عما هو مشحون به منبتُ شجرة إيمانك يا فقير، فقوتها وبقاؤها بما ترى عنده من الدنيا وأنواع النعيم، فلو قطع ذلك عنه مع ضعف الشجرة جفت، فكان كفراً وجحوداً وإلحاقاً بالمنافقين والمرتدين والكفار، اللهم إلاّ أن يبعث الله عزّ وجلّ إلى الغني عساكر الصبر والرضا، واليقين، والتوفيق، والعلم، وأنواع المعارف، فيتقوّى الإيمان بها، فحينئذ لا يبالي بانقطاع الغنى والنعيم، والله الهادي الموفق.

* * *

(١) ـ نائماً: مائلاً.

(٢) ـ سبخة: مالحة.

Marfat.com

في النهي عن كشف البرقع عن الوجه

قال رضي الله عنه وأرضاه:

لا تكشف البرقع والقناع عن وجهك حتى تخرج من الخلق، وتوليهم ظهر قلبك في جميع الأحوال، ويزول هواك، ثم تزول إرادتك ومناك، فتفنى عن الأكوان دنيا وأخرى، فتصيرَ كإناء منثلم لا يبقى فيك غير إرادة ربك عزّ وجلّ، فتمتلىء به عزّ وجلّ وبحكمه، إذا خرج الزُور دخل النور، فلا يكون لغير ربك في قلبك مكان، ولا مدخل، وجُعِلْتَ بواب قلبك، وأُعطِيْتَ سيف التوحيد والعظمة والجبروت، فكل من رأيته دنا في ساحة صدرك إلى باب قلبك بترت رأسه من كاهله، فلا يكون لنفسك وهواك وإرادتك ومناك في دنياك وأخراك عندك أي امتثال، ولا كلمة مسموعة، لا رأى متبع إلاّ اتباع أمر الرب عزّ وجلّ، والوقوف معه، والرضا بقضائه وقدره، بل الفناء في قضائه وقدره، فتكون عبد الرب عزّ وجلّ وأمره، لا عبد الخلق وآرائهم، فإذا استمرّ الأمر فيك كذلك ضربتْ حول قلبك سرادقاتُ الغَيرة، وخنادقُ العظمة، وسلطانُ الجبروت، وحف بجنود الحقيقة والتوحيد، ويقام دون ذلك حرّاس من الحق عزّ وجلّ، كيلا يخلص الخلق إلى تطلُّب القلب من الشيطان والنفس والهوى، والإرادات والأماني الباطلة، والدعاوى الكاذبة الناشئة من الطباع والنفوس الآمرة بالسوء، والضلالات الناشئة من الهوى، فحينئذ إن كان في القدر مجيء الخلق وتواترهم إليك وتتابعهم وتطابقهم عليك، ليصيبوا من الأنوار اللائحة والعلامات المنيرة والحكم البالغة، ويروا من الكرامات الظاهرة وخوارق العادات المستمرة، ويزدادوا بذلك من القربات والطاعات

Marfat.com

والمجاهدات والمكابدات في عبادة ربهم عزّ وجلّ، حُفِظْتَ عنهم اجمعين، وعن ميل النفس إلى هواها، وعُجْبها ومباهاتها، وتعاظمها بالتكبر بهم وبقبولهم لك وإقبال وجوههم إليك.

وكذلك إن قدر مجيء زوجة حسناء جميلة بكفايتها وسائر مؤنتها حفظت من شرها، وحمل أثقالها وأتباعها وأهلها، وصارت عندك هبة مكفاة مهناة منقاة مصفاة من الغش والخبث والدغل، والحقد والغضب، والخيانة في الغيب، فتكون لك مسخّرة، وهي وأهلها محمولة عنك مؤونتُها، مدفوعة عنك أذيتُها، وإن قُدِّرَ منها ولدٌ كان صالحاً ذرية طيبة قرة عين. قال الله تعالى: ﴿وأَصْلَحْنَا له زَوْجَـهُ﴾ [الأنبياء: ٩٠] وقال تعالى: ﴿ هَبْ لَنا مِنْ أَزْواجَنا وذُرِّياتِنا قرَّةَ أَعْـيُنٍ، وَاجْعَلْنَا للمُتَّقِينَ إماماً﴾ [الفرقان: ٧٤] وقال تعالى: ﴿وَاجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيّاً﴾ [مـريم: ٦] فتكون هذه الدعوات التي في هذه الآيات معمولاً بها، مستجابة في حقك إن دعوت بها أو لم تَدْعُ، إذ هي في محلها وأهلها، وأولى من يعامل بهذه النعمة ويقابل بها من كان أهلاً لهذه المنزلة، وأقيم في هذا المقام، وقدر له من الفضل والقُرْب هذا المقدار.

وكذلك إن قُدِّر مجيء شيء من الدنيا وإقبالها لا يضر إذ ذاك، فما هو قسمك منها فلا بد من تناوله وتصفيته لك بفعل الله عزّ وجلّ، وورود الأمر بتناوله وأنت ممتثل للأمر مثابٌ على تناوله، كما تثابُ على فعل صلاة الفرض وصيام الفرض، وتؤمر فيما ليس بقسمك منها بصرفه إلى أربابه من الأصحاب والجيران والإخوان المستحقين الفقراء منهم، وأصحاب الأقسام على ما يقتضي الحال، فالأحوال تكشفها وتميزها. ليس الخبر كالمعاينة، فحينئذ تكون من أمرك على بيضاء نقية لا غبار عليها ولا تلبيس ولا تخليط ولا شك ولا ارتياب. فالصبرَ الصبرَ، الرضا الرضا، حفظَ الحال حفظَ الحال، الخمولَ الخمولَ،

الخمودَ الخمودَ، السكوتَ السكوتَ، الصمتَ الصمتَ، الحذرَ الحذرَ، النجا النجا، النجا النجا، اللجا اللجا، الله الله ثم الله، الإطراقَ الإطراقَ، الإغماضَ الإغماضَ، الحياء الحياء: إلى أن يبلغ الكتاب أجله، فيؤخذ بيدك فتقدم، وينزع عنك ما عليك ثم تغوص في بحار الفضائل والمنن والرحمة، ثم تخرج منها فتخلع عليك خلع الأنوار والأسرار، والعلوم والغرائب المدنية، ثم تقرب وتحدث وتحدث فيه بإعلام وإلهام، وتكلم وتعطى، وتغنى وتشجع وترفع، وتخاطب: ﴿إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ﴾ [يوسف: ٥٤] فحينئذ اعتبرْ حال يوسف الصديق عليه السلام حين خوطب بهذا الخطاب على لسان ملك مصر وعظيمها وفرعونها، كان لسانُ الملك قائلاً معبراً بهذا الخطاب، والمخاطِبُ هو الله عزّ وجلّ على لسان المعرفة، سلم إليه الملكُ الظاهرُ وهو ملكُ مصر، وملك النفس وملك المعرفة والعلم والقربة والخصوصية وعلو المنزلة عنده عزّ وجلّ. قال تعالى في ملْكِ المُلْك ﴿وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الأَرْضِ﴾ [يوسف: ٢١] أي في أرض مصر ﴿يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَاءُ، نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَنْ نَشَاءُ، وَلا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [يوسف: ٥٦] قال تعالى في ملك النفس: ﴿كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ والفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ﴾ [يوسف: ٢٤] وقال تعالى في ملك المعرفة والعلم: ﴿ذَلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّي، إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لا يُؤْمِنُونَ بِاللهِ، وَهُمْ بِالآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ﴾ [يوسف: ٣٧].

فإذا خوطبت بهذا الخطاب يا أيها الصديق الأكبر، أعطيت الحظ الأوفر، من العلم الأعظم، ومنحت وهُنِّيتَ بالتوفيق والمنن، والقدرة والولاية العامة، والأمر النافذ على النفس وغيرها من الأشياء، والتكوين بإذن إله الأشياء في الدنيا قبل الآخرة. وأمّا في الأخرى - في دار السلام والجنّة العليا - فالنظر إلى وجه المولى الكريم زيادة ومنة، وهو المنى الذي لا غاية له ولا منتهى، والله الموفق لحقائق ذلك، إنّه رؤوف رحيم.

9

في أنّ الخير والشر ثمرتان

قال رضي الله عنه وأرضاه:

اجعل الخير والشر ثمرتين من غصنين من شجرة واحدة، أحد الغصنين يثمر حلواً والآخر مراً، فاترك البلاد والأقاليم ونواحي الأرض التي يحمل إليها هذه الثمرة المأخوذة من هذه الشجرة، وابعد منها ومن أهلها، واقترب من الشجرة، وكن سائسها وخادمها القائم عندها، واعرف الغصنين والثمرتين والجانبين، فكن إلى جانب الغصن المثمر حلواً، فحينئذ يكون غذاؤك وقوتك منها، واجتنب أن تتقدم إلى جانب الغصن الآخر فتأكل من ثمرته فتهلك من مرارتها؛ فإذا دمتَ على هذا، كنت في دعة وأمن وراحة وسلامة من الآفات كلها، إذ الآفات وأنواع البلايا تتولد من تلك الثمرة المرة، وإذا غبت عن تلك الشجرة، وهمت في الآفاق، وقدم بين يديك من تلك الثمرتين، وهي مختلطة غير متميزة الحلوة من المرة هنا فتناولت منها، فربما وقعت يدك على المرة فأدنيتها من فيك، فأكلت منها جزءاً ومضغته، فسرت المرارة إلى أعماق لهواتك، وباطن حلقك ودماغك وخياشيمك، فعملت فيك، وسرت في عروقك وأجزاء جسدك فهلكت بها، ولفْظُكَ الباقي من فيك، وغسلُ أثره لا ينفع ولا يدفع عنك ما قد سرى في جسدك ولا ينفعك، وإن أكلت ابتداء من الثمرة الحلوة، وسرت حلاوتها في أجزاء جسدك، وانتفعت بها وسررت، فلا يكفيك ذلك، فلا بد من تناول غيرها ثانياً، فلا تأمن أن تكون الثانية من المرة، فيحل بك ما ذكرته لك، فلا خير في البعد عن الشجرة والجهل بثمرتها والسلامة في

Marfat.com

قربها والقيام معها، فالخير والشر بفعل الله عزّ وجلّ، والله هو فاعلهما ومجريهما.
قال الله عزّ وجلّ: ﴿والله خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُون﴾ [الصافات: ٩٦] وقال النبي ﷺ «الله خلق الجازر وجزوره» وأعمال العباد خلقُ الله عزّ وجلّ وكسبهم قال تعالى: ﴿ادْخُلُوا الجَنَّةَ بِمَا كُنْتَمْ تَعْمَلُوْنَ﴾ [النحل: ٣٢] سبحانه ما أكرمه وأرحمه أضاف العمل إليهم وأنّهم استحقوا الدخول إلى الجنة بعملهم، وهو بتوفيقه ورحمته لهم في الدنيا والآخرة.

قال ﷺ: «لا يَدْخُلُ الجَنَّةَ أَحَدٌ بِعَمَلِهِ» فقيل له: ولا أنتَ يا رسول الله؟ فقال: «ولا أنا إلّا أن يَتَغَمَدَنِي الله بِرَحْمَتِهِ» ووضع يده على رأسه» مرويٌ ذلك في حديث عائشة رضي الله عنها.

فإذا كنت طائعاً لله عزّ وجلّ، ممتثلاً لأمره، منتهياً لنهيه، مسلماً له في قدره؛ حماك عن شره وتفضل عليك بخيره، وحماك عن الأسواء جميعها ديناً ودنيا.

أمّا دنيا فلقوله تعالى: ﴿كذلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُوْء والفَحْشَاء إنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا المُخْلِصينَ﴾ [يوسف: ٢٤] وأمّه ديناً فقوله عزّ وجلّ: ﴿مَايَفْعَلُ الله بِعَذابِكُمْ إنْ شَكَرْتُمْ وآمَنْتُمْ، وكانَ الله شَاكِراً عَلِيماً﴾ [النساء: ١٤٧] ومؤمن شاكر ما يفعل البلاء عنده وهو إلى العافية أقرب من البلاء، لأنه في محل المزيد أيضاً لأنّه شاكر: قال الله عزّ وجلّ: ﴿لئن شكرتم لأزيدنكم﴾ [إبراهيم: ٧] فإيمانك يطفىء لهب النار في الآخرة التي هي عقوبة كل عاص، فكيف لا يطفىء نار البلايا في الدنيا؟ اللهم إلّا أن يكون العبد من المجذوبين المختارين للولاية والاصطفاء والاجتباء، فلا بد من البلاء ليصفى به من خبث الهوى والميل إلى الطباع. والركون إلى شهوات النفس ولذاتها، والطمأنينة إلى الخلق والرضا بقربهم، والسكون إليهم والثبوت معهم والفرح بهم، فيبتلى حتى يذوب جميع ذلك، ويتنظف القلب بخروج الكل، ويبقى

توحيد الرب عزّ وجلّ ومعرفته وموارد الغيب من أنواع الأسرار والعلوم وأنوار القرب، لأنّه بيت لا يسعه اثنان. قال الله عزّ وجلّ: ﴿ما جعل الله لرجل من قلبين في جوفه﴾ [الأحزاب: ٤] وقال تعالى: ﴿إنّ الملوك إذا دخلوا قرية افسدوها وجعلوا أعزة أهلها أذلة﴾ [النمل: ٣٤] فأخرجوا الأعزة عن طيب المنازل ونعيم العيش، وكانت الولاية على القلب للشيطان والهوى والنفس، ـ والجوارح متحركة بأمرهم ـ من أنواع المعاصي والأباطيل والترهات، فزالت تلك الولاية، فسكنت الجوارح، وفرغت دار الملك التى هى القلب، وتنظفت الساحة التي هي الصدر، فأمّا القلب فصار مسكناً للتوحيد والمعرفة والعلم، وأمّا الساحة فمهبط الموارد والعجائب من الغيب، كل ذلك نتيجة البلايا وثمرتها، قال ﷺ «إنّا معاشر الأنبياء أشد الناس بلاء ثم الأمثل فالأمثل» وقال ﷺ: «أنا أعرفكم بالله وأشدكم منه خوفاً» فكل من قرب من الملك اشتد خطره وحذره، لأنّه في مرأى من الملك لا تخفى عليه تصاريفه وحركاته.

فإن قلت: فالخليقة عند الله عزّ وجلّ بأجمعهم كشخص واحد لا يخفى عليه منهم شيء، فأي فائدة لهذا الكلام؟.

فنقول لك: لما علت منزلته، وشرفت رتبته عظم خطره، لأنّه وجب عليه شكر ما أولاه من جسيم نعمه وفضله، فأدنى الالتفات عن خدمته تقصير في شكره، وذلك نقصان في طاعته، قال الله عزّ وجلّ: ﴿يا نساء النبي من يأت منكنّ بفاحشة مبينة يضاعَفْ لها العذاب ضعفين﴾ [الأحزاب: ٣٠] قال ذلك لهن لتمام نعمه عزّ وجلّ عليهن باتصالهن بالنبي ﷺ، فكيف من كان موصولاً بالله عزّ وجلّ وقربه، تعالى الله علواً كبيراً عن التشبه بخلقه: ﴿ليس كمثله شيء وهو السميع البصير﴾ [الشورى: ١١] والله الهادي.

* * *

Marfat.com

في تفصيل أحوال المريد

قال رضي الله عنه وأرضاه:

أتريد الراحة والسرور، والدعة والحبور، والأمن والسكون، والنعيم والدلال، وأنت بعد في كير السبك والتذويب وتمويت النفس ومجانبة الهوى وإزالة المرادات والأغراض دنيا وأخرى، وقد بقيت فيك بقية من ذلك ظاهرة لائحة؟ على رسلك يا مستعجل مهلاً مهلاً، يا مترقب الباب مسدود إلى ذلك، وقد بقيت عليك منه، وفيك ذرة، ومنه «المكاتب عبد ما بقي عليه درهم».

أنت مصدود عن ذلك ما بقي عليك من الدنيا مقدار مص نواة، والدنيا هواك ومرادك ورؤيتك بشيء من الأشياء، أو طلبك بشيء من الأشياء، وتشوق نفسك إلى شيء من الأعراض دنيا وأخرى.

فما دام فيك شيء من ذلك فأنْت في باب الفناء، فاسكن حتى يحصل الفناء على التمام والكمال، فتخرج من الكير، وتكمل صياغتك، وتجلى وتكسى وتطيّب وتبخّر، ثم ترفع إلى الملك الأكبر، فتخاطب بـ ﴿إنّك اليوم لدينا مكين أمين﴾ [يوسف: ٥٤] فتؤانس وتلاطف، وتطعم من الفضل، ومنه تسقى وتقرب، وتدنى وتطلع على الأسرار، وهي عنك لا تخفَى، فتغنَى بما تعطى من ذلك عن جميع الأشياء. ألا ترى إلى قراضة الذاهب متفرقة مبتذلة، متداولة غادية رائحة في أيدي العطارين والبقالين والقصابين والدبّاغين والنفاطين والكنّاسين والكفّانين أصحاب الصنائع النفيسة والرذيلة الدنية

Marfat.com

الخبيثة، ثم تجمع فتجعل في كير الصائغ، فتذوب هناك بإشعال النار عليها، ثم تخرج منه، فتطرق وترقق، وتطلع وتصاغ، فتجعل حلياً، ثم تجلّى وتطيب فتترك في خير المواضع والأمكنة من وراء الأغلاق في الخزائن والصناديق والأحقاق، وتحلّى بها العروس وتزين وتكرم، وقد تكون العروس للملك الأعظم، فتنقل القراضة من هذه الأشياء إلى قرب الملك ومجلسه بعد السبك والدق، هكذا أنت يا مؤمن إذا صبرت على مجاري الأقدار فيك ورضيت بالقضاء في جميع الأحوال قربت إلى مولاك عز وجلّ في الدنيا، فتنعم بالمعرفة والعلوم والأسرار، وتسكن في الآخرة دار السلام مع الأنبياء والصديقين والشهداء والصالحين في جوار الله وداره وقربه عزّ وجلّ، فاصبر ولا تستعجل، وارضَ بالقضاء ولا تتهم، فسينالك برد عفو الله ولطفه وكرمه بمنه تعالى.

* * *

Marfat.com

المقالة التاسعة والعشرون

في قوله ﷺ: «كاد الفقر أن يكون كفراً»

قال رضي الله عنه وأرضاه:

يؤمن العبد بالله، ويسلم الأمور كلها إليه عزّ وجلّ، ويعتقد تسهيل الرزق منه، وأنّ ما أصابه لم يكن ليخطئه، وما أخطأه لم يكن ليصيبه، ويؤمن بقوله عزّ وجلّ: ﴿ ومن يتق الله يجعل له مخرجاً ويرزقه من حيث لا يحتسب، ومن يتوكل على الله فهو حسبه﴾ [الطلاق: ٢ ـ ٣] ويقول ذلك، ويؤمن به، وهو في حال العافية والفناء، ثم يبتليه الله عزّ وجلّ بالبلاء والفقر، فيأخذ في السؤال والتضرع، فلا يكشفهما عنه، فحينئذ يتحقق قوله ﷺ: «كاد الفقر أن يكون كفراً»؛ فمن تلطف الله به كشف عنه ما به، فأدركه بالعافية والغنى، ويوفقه للشكر والحمد والثناء، ويديم له ذلك إلى اللقاء، ومن يرد الله فتنته يديم بلاءه وفتنته وفقره، فيقطع عنه مدد إيمانه، فيكفر بالاعتراض والتهمة له عزّ وجلّ، والشك في وعده، فيموت كافراً بالله عزّ وجلّ، جاحداً لآياته، ومسخطاً على ربه، وإليه أشار رسول الله ﷺ بقوله: «إنّ أشد الناس عذاباً يوم القيامة رجل جمع الله له بين الدنيا وعذاب الآخرة نعوذ بالله من ذلك، وهو الفقر المنسي الذي استعاذ منه النبي ﷺ.

والرجل الثاني هو الذي أراد الله عزّ وجلّ اصطفاءه واجتباءه، وجعله من خواصه وأحبابه وأخلائه، وورث أنبياءه وسيد أوليائه، ومن عظماء عباده وعلمائهم وحكمائهم وشفعائهم وشيخهم ومتبوعهم ومعلمهم وهاديهم إلى مولاهم، ومرشدهم إلى سبيل الهدى واجتناب سبل الردى، فأرسل إليه جبال الصبر وبحار الرضى والموافقة والغنى في قضائه وفعله، ثم يذركه بجزيل العطاء ويدلله الله في آناء الليل وأطراف النهار في الجلوة والخلوة في الظاهر مرة وفي الباطن أخرى بأنواع اللطف وفنون الجذبات فيتصل له ذلك إلى حين اللقاء، والله الهادي.

Marfat.com

المقالة الثلاثون

في النهي عن قول الرجل: أي شيء أعمل وما الحيلة

قال رضي الله عنه وأرضاه:

ماأكثر ماتقول إيش أعمل وما الحيلة؟ فيقال لك: قف مكانك، ولا تجاوز حدك حتى يأتيك الفرج ممن أمرك بالقيام فيما أنت فيه. قال الله عزّ وجلّ: ﴿يا أيها الذين آمنوا اصبروا وصابروا ورابطوا واتقوا الله لعلكم تفلحون﴾ [آل عمران: ٢٠٠] أمرك بالصبر يا مؤمن، ثم بالمصابرة والمرابطة والمحافظة والملازمة، ثم حذّرك تركه فقال: ﴿واتّقوا الله﴾ في ترك ذلك: أي لا تتركوا الصبر، فإنّ الخير والسلامة فيه، وقال النبي ﷺ: «الصبر من الإيمان كالرأس من الجسد». وقيل: كل شيء ثوابُه بمقدار إلاّ ثواب الصبر، فإنّه جزاف بغير مقدار، لقوله تعالى: ﴿إنّما يوفى الصابرون أجرهم بغير حساب﴾ [الزمر: ١٠] فإذا اتقيت الله عزّ وجلّ حفظك للصبر ومحافظة الحدود، وأنجز لك ما وعدك في كتابه، وهو قوله عزّ وجلّ: ﴿ومن يتّق الله يجعل له مخرجاً ويرزقه من حيث لا يحتسب﴾ [الطلاق: ٢]، وكنت بصبرك حتى يأتيك الفرج من المتوكلين، وقد وعدك الله عزّ وجلّ بالكفاية فقال: ﴿ومن يتوكل على الله فهو حسبه﴾ [الطلاق: ٣] وكنت مع صبرك وتوكلك من المحسنين، وقد وعدك بالجزاء فقال عزّ وجلّ: ﴿وكذلك نجزي المحسنين﴾ [يوسف: ٢٢] ويحبك الله مع ذلك، لأنّه قال: ﴿إنّ الله يحب المحسنين﴾ [المائدة: ١٣] فالصبر رأس كل خير وسلامة دنيا وأخرى، ومنه يترقى المؤمن إلى حالة الرضى والموافقة، ثم الفناء في أفعال الله عزّ وجلّ حالة البدلية والغيبية، فاحذر أن تتركه، فيخذلك في الدنيا والآخرة، ويفوتك خيرهما، نعوذ بالله من ذلك.

* * *

Marfat.com

في البغض في الله

قال رضي الله عنه وأرضاه:

إذا وجدت بقلبك بغض شخص أو حبّه فاعرض أعماله على الكتاب والسنّة، فإن كانت فيهما مبغوضة فأبشر بموافقتك الله عزّ وجلّ ورسوله، وإن كانت أعماله فيهما محبوبة وأنت تبغضه فاعلم بأنّك صاحب هوى، تبغضه بهواك، ظالماً له ببغضك إيّاه، وعاص لله عزّ وجلّ ولرسوله، مخالف لهما، فتب إلى الله عزّ وجلّ من بغضك، واسأله عزّ وجلّ محبة ذلك الشخص وغيره من أحبائه وأوليائه وأصفيائه والصالحين من عباده، لتكون موافقاً له عزّ وجلّ.

وكذلك افعل بمن تحبه يعني اعرض أعماله على الكتاب والسنة، فإن كانت محبوبة فيهما فاحببه، وإن كانت مبغوضة فابغضه كيلا تحبه بهواك، وتبغضه بهواك، وقد أمرت بمخالفة هواك. قال عزّ وجلّ: ﴿ولا تتبع الهوى فيضلك عن سبيل الله﴾ [ص: ٢٦].

* * *

Marfat.com

في عدم المشاركة في محبة الله

قال رضي الله عنه وأرضاه:

ما أكثر ما تقول كل من أحبه لا تدوم محبتي إيّاه، فيحال بيننا إمّا بالغيبة أو بالموت أو بالعداوة وأنواع المال بالتلف والفوات من اليد، فيقال لك: أما تعلم يا محبوب الحق المعنى المنظور إليه المغار له وعليه، ألم تعلم أنّ الله عزّ وجلّ غيور، خلقك له، وتروم أن تكون لغيره؟ أما سمعت قوله عزّ وجلّ: ﴿يحبهم ويحبونه﴾ [المائدة: ٥٤] وقوله تعالى: ﴿وما خلقت الجن والإنس إلاّ ليعبدون﴾ [الذاريات: ٥٦] أما سمعت قول الرسول ﷺ: «إذا أحب الله عبداً ابتلاه، فإن صبر اقتناه. قيل: يا رسول الله وما اقتناه؟ قال: «لم يذر له مالاً ولا ولداً» وذلك لأنّه إذا كان له مال وولد أحبهما فتنقص وتُجزّأ، فتصير مشتركة بين الله عزّ وجلّ وبين غيره، والله تعالى لا يقبل الشريك، وهو غيور قاهر، فوق كل شيء، غالب لكل شيء، فيهلك شريكه ويعدمه ليخلص قلب عبده له من غير شريك، فيتحقق حينئذ قوله عزّ وجلّ: ﴿يحبهم ويحبونه﴾ حتى إذا تنظف القلب من الشركاء والأنداد من الأهل والمال والولد واللذات والشهوات وطلب الولايات والرياسات والكرامات والحالات والمنازل والمقامات والجنان والدرجات والقربات والزلفات فلا يبقى في القلب إرادة ولا أمنية، يصير كالإناء المنثلم الذي لا يثبت فيه مائع، لأنّه انكسر لفعل الله عز وجل، كلما تجمعت فيه إرادة كسرها فعل الله وغيرته، فضربت حوله سرادقات

Marfat.com

العظمة والجبروت والهيبة، وأحضرت من دونها خنادق الكبرياء والسطوة، فلم يخلص إلى القلب إرادة شيء من الأشياء، فحينئذ لا تضر القلبَ الأسبابُ من المال والولد والأهل والأصحاب والكرامات والحكم والعلم والعبادات، فإن جميع ذلك يكون خارج القلب، فلا يغار الله عزّ وجلّ، بل يكون جميع ذلك كرامة من الله لعبده، ولطفاً به، ونعمة ورزقاً، ومنفعة للواردين عليه، فيكرَمون به ويرحَمون، ويحفَظُون لكرامته على الله عزّ وجلّ، فيكون خفيراً لهم وكنفاً وحرزاً وشفيعاً دنيا واخرى.

* * *

Marfat.com

في تقسيم الرجال إلى أربعة أقسام

قال رضي الله عنه وأرضاه:

الناس أربعة رجال:

١ ـ رجل لا لسان له ولا قلب: وهو العاصي الغر الغبي، لا يعبأ الله به، لا خير فيه، وهو وأمثاله حثالة، لا وزن لهم إلا أن يعمهم الله عزّ وجلّ برحمته، فيهدي قلوبهم للإيمان به، وتحرك جوارحهم بالطاعة له عزّ وجلّ، فاحذر أن تكون منهم، ولا تكترث بهم، ولا تقم فيهم، فإنّهم أهل العذاب والغضب والسخط سكّان النار وأهلها، نعوذ بالله عزّ وجلّ منهم إلاّ أن تكون من العلماء بالله عزّ وجلّ، ومن معلمي الخير وهداة الدين وقوّاده ودعاته فدونك فأتهم، وادعهم إلى طاعة الله عزّ وجلّ، وحذرهم معصيته، فتكتب عند الله حينئذ جهبذاً، فتعطى ثواب الرسل والأنبياء، قال رسول الله ﷺ لأمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه «لأن يهدي الله بهداك رجلاً خير لك مما طلعت عليه الشمس».

٢ ـ الرجل الثاني، رجل له لسان بلا قلب، فينطق بالحكمة ولا يعمل بها، يدعو الناس إلى الله، وهو يفر منه عزّ وجلّ، يستقبح عيب غيره ويدوم هو على مثله في نفسه، يظهر للناس تنسكاً، ويبارز الله عزّ وجلّ بالعظائم من المعاصي، إذا خلا كأنّه ذئب عليه ثياب، وهو الذي حذّر منه النبي ﷺ بقوله: «أخوف ما أخاف على أمّتي من كل منافق عليهم اللسان» وفي حديث آخر: «أخوف ما أخاف على أمّتي من علماء السوء» نعوذ بالله من هذا، فابعد منه، وهرول، لئلا يختطفك بلذيذ لسانه فتحرقك نار معاصيه، ويقتلك فتن باطنه وقلبه.

Marfat.com

٣ ـ والرجل الثالث قلب بلا لسان: وهو مؤمن، ستره الله عزّ وجلّ من خلقه، وأسبل عليه كنفه، وبصره بعيوب نفسه، ونور قلبه، وعرَّفه غوائل مخالطة الناس، وشؤم الكلام والنطق، وتيقن أنّ السلامة في الصمت والانزواء والانفراد، واسمع قول ﷺ: «من صمت نجا» واسمع قول بعض العلماء: العبادة عشرة أجزاء: تسعة منها في الصمت، فهذا رجل ولي لله عزّ وجلّ، في ستر الله محفوظاً، ذو سلامة وعقل وافر، جليس الرحمن، منعم عليه، فالخير كل الخير عنده، فدونكه ومصاحبته ومخالطته وخدمته والتحبب إليه بقضاء حوائج تسنح له، ومرافق يرتفق بها، فيحبك الله ويصطفيك، ويدخلك في زمرة أحبائه وعباده الصالحين ببركته إن شاء الله تعالى.

٤ ـ والرجل الرابع: المدعو في الملكوت بالعظيم كما جاء في الحديث عن النبي ﷺ: «من تعلم وعلم، وعمل دعي في الملكوت عظيماً»، وهو العالم بالله عزّ وجلّ وآياته، استودع الله عزّ وجلّ قلبَه غرائبَ علمه، وأطلعه على أسرار طواها عن غيره، واصطفاه واجتباه وجذبه إليه ورقّاه، وإلى باب قربه هداه، وشرح صدره لقبول تلك الأسرار والعلوم، وجعله جهبذاً وداعياً للعباد، ونذيراً لهم، وحجة فيهم، هادياً مهدياً شافعاً مشفعاً صادقاً صديقاً، بدلاً لرسله وأنبيائه عليهم صلواته وسلامه وتحياته وبركاته.

فهذه هي الغاية القصوى في بني آدم، لا منزلة فوق منزلته إلّا النبوة، فعليك به، واحذر أن تخالفه وتنافره وتجانبه وتعاديه وتترك القبول منه والرجوع إلى نصيحته وقوله، فإنّ السلامة فيما يقول عنده، والهلاك والضلال عند غيره إلّا من يوفقه الله عزّ وجلّ ويمده بالسداد والرحمة.

فقد قسمت لك الناس، فانظر لنفسك إن كنت ناظراً، واحترز لها إن كنت محترزاً لها شفيقاً عليها، هدانا الله وإيّاك لما يحبّه ويرضاه.

Marfat.com

في النهي عن السخط على الله تعالى

قال رضي الله عنه وارضاه:

ما أعظم تسخطك على ربك، وتهمتك له عزّ وجلّ، واعتراضك عليه، وانتسابك له عزّ وجلّ بالظلم، واستبطائك في الرزق والغنى، وكشف الكروب والبلوى، أما تعلم أنّ لكل أجل كتاب، ولكل زيادة بلية وكربة غايةٌ ومنتهى ونفاد، لا يتقدم ذلك ولا يتأخر، أوقات البلايا لا تنقلب فتصير عوافي، ووقت البؤس لا ينقلب نعيماً، وحالة الفقر لا تستحيل غنى.

أحسن الأدبَ، والزم الصمتَ والصبر والرضا والموافقة لربك عزّ وجلّ، وتُبْ عن تسخطك عليه، وتهمتك له في فعله، فليس هناك استيفاء وانتقام من غير ذنب، ولا عرض على الطبع كما هو في حق العبيد بعضهم في بعض، هو عزّ وجلّ منفرد بالأزل وسبق الأشياء، خالقها وخلق مصالحها ومفاسدها، وعلم ابتداءها وانتهاءها وانقضاءها، وهو عزّ وجلّ حكيم في فعله، متقن في صنعه، لا تناقض في فعله، لا يفعل عبثاً، ولا يخلق باطلاً لعباً، ولا تجوزُ عليه النقائصُ، ولا اللوم في أفعاله، فانتظر الفرج حتى إن عجزت عن موافقته، وعن الرضا والغنى في فعله حتى يبلغ الكتاب أجله، فتسفر الحالة عن ضدها بمرور الزمان وانقضاء الآجال، كما ينقضي الشتاء فيسفر عن الصيف، وينقضي الليل فيسفر عن النهار، فإذا طلبت ضوء النهار ونوره بين العشاءين لم تعطه، بل يزاد في ظلمة الليل، حتى إذا بلغت الظلمة غايتها، وطلع الفجر، وجاء النهار بضوئه طلبت ذلك وأردته وسكت عنه وكرهته، فإن

Marfat.com

طلبت إعادة الليل حينئذ لم تجب دعوتك، ولم تعطَه، لأنّك طلبت الشيء في غير حينه ووقته، فتبقى حسيراً منقطعاً متسخطاً خجلاً، فأرخ هذا كله، والزم الموافقة. وحسن الظن بربك عزّ وجلّ، والصبر الجميل، فما كان لك لا تُسْلَبُهُ، وما ليس لك لا تعطاه. لعمري إنّك تدعو وتبتهل إلى ربك عزّ وجلّ بالدعاء والتضرع، وهو عبادة وطاعة امتثالاً لأمره عزّ وجلّ في قوله تعالى: ﴿ادعوني أستجب لكم﴾ [غافر: ٦٠] وقوله تعالى: ﴿واسألوا الله من فضله﴾ [النساء: ٣٢] وغير ذلك من الآيات والأخبار، أنت تدعو وهو يستجيب لك عند حينه وأجله إذا أراد، وكان لك في ذلك مصلحة في دنياك وأخراك، ويوافق في ذلك قضاءه وانتهاء أجله، لا تتهمه في تأخير الإجابة، ولا تسأم من دعائه، فإنّك إن لم تربح لم تخسر، وإن لم يجبك عاجلاً أثابك آجلاً، فقد جاء في الحديث الصحيح عن النبي ﷺ: «العبد يرى في صحائفه حسنات يومَ القيامة لا يعرفها فيقال له: إنّها بدل سؤالك في الدنيا الذي لم يقدر قضاؤه فيها» أو كما ورد، ثم أقل أحوالك أنّك تكون ذاكراً لربك عزّ وجلّ، موحداً له حيث تسأله ولا تسأل أحداً غيره، ولا تترك حاجتك لغيره تعالى، فأنت بين الحالتين في زمانك كله ليلك ونهارك؛ وصحتك وسقمك، وبؤسك ونعمائك، وشدتك ورخائك، إمّا أن تمسك عن السؤال، وترضى بالقضاء، وتوافق وتسترسل لفعله عزّ وجلّ، كالميت بين يدي الغاسل، والطفل الرضيع في يدي الظئر، والكرة بين يدي الفارس يقلبها بصولجانه، فيقلبك القدر كيف يشاء، إن كان النعماء: فمنك الشكر والثناء، ومنه عزّ وجلّ المزيد في العطاء، كما قال تعالى: ﴿لئن شكرتم لأزيدنكم﴾ [إبراهيم: ٧].

وإن كان البأساء: فالصبر والموافقة منك بتوفيقه، والتثبت والنصرة والصلاة والرحمة منه عزّ وجلّ بفضله وكرمه، كما قال عزّ من قائل: ﴿إنّ الله مع الصابرين﴾ [البقرة: ١٥٣] بنصره وتثبيته، وهو لعبده ناصر له على نفسه

Marfat.com

وهـواه وشيطانـه. وقـال تعالى: ﴿إنْ تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم﴾ [محمـد: ٧] إذا نصرت الله في مخالفـة نفسك وهواك بترك الاعتراض عليه، والسـخط بفعله فيك، وكنت خصماً لله على نفسك سياقاً عليها، كلما تحرّكت بكفرها وشركها حززت رأسها بصبرك، وموافقتك لربّك، والطمأنينة إلى فعله ووعده، والرضا بهما كان عزّ وجلّ لك معيناً.

(١) - المرضع.

وأمّا الصلاة والرحمة، فقوله عزّ وجلّ: ﴿وبشّر الصابرين ، الذين إذا أصابتهم مصيبة قالوا: إنّا لله وإنّا إليه راجعون أولئك عليهم صلوات من ربهم ورحمة وأولئـك هم المهتدون﴾ [البقرة: ١٥٦ ـ ١٥٨] والحالة الأخرى أنّك تبتهل إلى ربك عزّ وجلّ بالدعاء والتضرّع إعظاماً له وامتثالاً لأمره، وفيه وضع الشيء في موضعه؛ لأنّه ندبك إلى سؤاله والرجوع إليه، وجعل ذلك مستراحاً ورسـولاً منك إليه، وموصلة ووسيلة لديه، بشرط ترك التهمة والسخط عليه عند تأخير الإجابة إلى حينها، اعتبر ما بين الحالتين، ولا تكن ممن تجاوز عن حديهما، فإنّه ليس هناك حالة أخرى، فاحذر أن تكون من الظالمين المعتدين، فيهلكُكَ عزّ وجلّ ولا يبالي، كما أهلك من مضى من الأمم السالفة في الدنيا بشديد بلائه، وفي الآخرة بأليم عذابه.

* * *

Marfat.com

في الـورع

قال رضي الله عنه وأرضاه:

عليك بالورع وإلاّ فالهلاك في زيفك ملازم لك لا تنجو منه أبداً إلاّ أن يتغمـدك الله تعـالى برحمتـه، فقد ثبت في الحديث المروي عن النبي ﷺ أنّه قال: «إنّ ملاك الـدين الورع، وهلاكُه الطمع، وإن من حام حول الحمى يوشك أن يقع، كالراتع إلى جنب الزرع يوشك أن يمد فاه إليه، لا يكاد أن يسلم الزرع منه».

وعن أبي بكر الصديق رضي الله عنه أنّه قال: كنا نترك سبعين باباً من المباح مخافة أن نقع في الجُناح.

وعن أمـير المؤمنـين عمر بن الخطّاب رضي الله عنه أنّه قال: كنا نترك تسعـة أعشـار الحـلال مخافة أن نقع في الحرام، فعلوا ذلك تورعاً من مقاربة الحرام أخذاً بقول النبي ﷺ: «لكل ملك حمًى، وإنّ حمى الله محارمه، فمن حام حول الحمى يوشـك أن يقـع فيه» فمن دخل حصن الملك فجاز الباب الأول ثم الثاني والثالث حتى قرب من سدته خير ممن وقف على الباب الأوّل الـذي يلي الـبر، فإنّه إن أغلق عنه غَلَقٌ الباب الثالث لم يضره وهو من وراء بابـين من أبـواب القصر، ومن دونه حرّاس الملك وجنده، وأمّا إذا كان على الباب الأوّل فأغلقوا عنه بقي في البر وحده، فأخذته الذئاب والأعداء، وكان من الهالكين، فهكذا من سلك العزيمة ولازمها، إن سلب عنه مددُ التوفيق

Marfat.com

والرعاية، وانقطعت عنه = حصل على الرخص، ولم يخرج عن الشرع، فإذا
10 أدركته المنية كان على العبادة والطاعة، ويشهد له بخير العمل.

ومن وقف على الرخص، ولم يتقدم إلى العزيمة إن سلب عنه التوفيق، فقطعت عنه أمداده، فغلب الهوى عليه وشهوات النفس، فتناول الحرام = خرج من الشرع، فصار في زمرة الشياطين أعداء الله عزّ وجلّ، الضالين عن سبيل الهدى، فإن أدركته المنية قبل التوبة كان من الهالكين، إلاّ أن يتغمده الله تعالى برحمته وفضله، فالخطر في القيام مع الرخص، والسلامة كل السلامة مع العزيمة، والله الهادي إلى سواء الطريق.

* * *

Marfat.com

10

في بيان الدنيا والآخرة وما ينبغي أن يعمل فيهما

قال رضي الله عنه وأرضاه:

اجعل آخرتك رأس مالك، ودنياك ربحه، واصرف زمانك أولاً في تحصيل آخرتك، ثم إنْ فضُلَ من زمانك شيء اصرفه في دنياك؛ وفي طلب معاشك، ولا تجعل دنياك رأس مالك، وآخرتك ربحه، ثم إنْ فضل من الزمان فضلة صرفتها في آخرتك تقضي فيها الصلوات تسبكها سبيكة واحدة ساقطة الأركان، مختلفة الواجبات من غير ركوع وسجود وطمأنينة بين الأركان، أو يلحقك التعب والإعياء، فتنام عن القضاء جملة، جيفة في الليل، بطالاً في النهار، تابعاً لنفسك وهواك وشيطانك، وبائعاً آخرتك بدنياك عبد النفس ومطيتها ومركبها، أمرت بركوبها وتهذيبها ورياضتها، والسُلوك بها في سبيل السلامة، وهي طرف الآخرة، وطاعة مولانا عزّ وجلّ، فظلمتها بقبولك منها، وسلمت زمانها إليها، وتبعتها في شهواتها ولذّاتها، وموافقتها وشيطانها وهواها، ففاتك خير الدنيا والآخرة وخسرتهما، فدخلتَ القيامة أفلسَ الناس وأخسَرهم ديناً ودنيا، وما وصلت بمتابعتها إلى أكثر من قسمك من دنياك.

ولو سلكت طريق الآخرة وجعلتها رأس مالك ربحت الدنيا والآخرة، ووصل إليك قسمك من الدنيا هنيئاً مريئاً، وأنت مصون مكرم، كما قال النبي ﷺ: «إن الله يعطي الدنيا على نية الآخرة، ولا يعطي الآخرة على نية الدنيا» وكيف لا يكون كذلك ونية الآخرة هي طاعة الله، لأنّ النية روح العبادات وذاتها.

وإذا أطعت الله بزهدك في الدنيا أو طلبك دار الآخرة كنت من خواص الله عزّ وجلّ وأهل طاعته ومحبته، وحصلت لك الآخرة، وهي الجنّة وجوار الله عزّ وجلّ، وخدَمَتْك الدنيا، فيأتيك قسمك الذي قدر لك منها، إذ الكل تبع لخالقها ومولاها وهو الله عزّ وجلّ.

وإن اشتغلت بالـدنيا وأعـرضت عن الآخـرة غضب الـرب عليك، ففـاتتك الآخـرة، وتعـاصت الـدنيا عليك، وتعسّرت، وأتعبتك في إيصال قسمـك إليك لغضب الله عزّ وجـلّ عليك، لأنّها مملوكته، تهين من عصاه، وتكـرم من أطـاعـه، فيتحقق حينئـذ قولُه ﷺ: «الدنيا والآخرة ضرتان، إن أرضيت إحداهما أسخطت عليك الأخرى». قال الله تعالى: ﴿منكم من يريد الـدنيا ومنكم من يريد الآخـرة﴾ [آل عمران: ١٥٢] يعني به أبناء الآخرة، فانظر من أبناء أيهما أنت؟ ومن أي القبيلتين تحب أن تكون وأنت في الدنيا؟ ثم إذا صرت إلى الآخـرة فالخلق فريقـان: فريق في طلب الدنيا، وفريق في طلب الآخـرة، وهـو أيضـاً يوم القيامـة فريقـان ﴿فـريق في الجنّة وفريق في السـعير﴾ [الشورى: ٧] فريق في الموقف قيامٌ في طول الحساب ﴿في يوم كان مقـداره ألف سنـة مما تعدون﴾ [السجدة: ٥] كما قال تعالى، وفريق في ظل العرش كما أخبر النبي ﷺ: «إنّكم تكونون يوم القيامة في ظل العرش عاكفين على الموائد، عليها أطايب الطعام والفواكه والشهدُ أبيضُ من الثلج» كما جاء في الحديث: «ينظرون منازلهم في الجنّة حتى إذا فرغ من حساب الخلق دخلوا الجنّـة، يهتـدون إلى منازلهم كما يهتدي أحد الناس في الدنيا إلى منزله» فهل وصلوا إلى هذه إلّا بتركهم الدنيا، واشتغالهم بطلب الآخرة والمولى. وهل وقع أولئك في الحسـاب وأنـواع الشـدائد والذل إلّا لاشتغالهم بالدنيا، ورغبتهم فيهـا، وزهـدهم في الآخـرة، وقلة المبـالاة بأمرها، ونسيان يوم القيامة، وما سيصيرون إليه غداً مما ذُكِرَ في الكتاب والسنّة.

Marfat.com

فانـظر لنفسك نظر رحمة وشفقة، واختر لها خير القبيلتين وأفرادها عن أقوال السوء من شياطين الإنس والجن، واجعل الكتاب والسنّة أمامك، وانظر فيهما واعمل بهما، ولا تغتر بالقال والقيل والهوس. قال الله تعالى: ﴿وما آتاكم الـرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا، واتّقوا الله﴾ [الحشر: ٧] ولا تخالفوه فتتركوا العمل بما جاء به، وتخترعوا لأنفسكم عملاً وعبادة كما قال عزّ وجلّ في حق قوم ضلّوا سواء السبيل: ﴿ورهبـانيةً ابتـدعـوهـا ما كتبنـاهـا عليهم﴾ [الحديد: ٧]، ثم إنّه قد زكّى هو عزّ وجلّ نبيه ﷺ ونزّهه عن الباطل والزور، فقال عزّ وجلّ: ﴿وما ينطقُ عن الهوى * إن هو إلّا وحيٌ يوحي﴾ [النجم: ٣ ـ ٤] أي ما أتـاكم به فهـو من عندي لا من هواه ونفسه فاتبعوه، ثم قال تعـالى: ﴿قـل إنْ كنتم تحبّون الله فاتبعوني يُحْبِبْكُمُ الله﴾ [آل عمران: ٣١] فبـيّن أنّ طريق المحبّة اتباعه قولاً وفعلاً، فالنبي عليه الصلاة والسلام قال: «الاكتساب سنّتي، والتوكل حالتي» أو كما قال، فأنت بين سنّته وحالته، وإن ضعف إيمانـك فالتكسّب الذي هو سنّته، وإنْ قوي إيمانُك فحالته التي هي التوكل، قال الله تعالى: ﴿وعلى الله فتوكّلوا إنْ كُنْتُمْ مؤمنين﴾ [المائدة: ٢٣] وقـال تعالى: ﴿ومن يتوكل على الله فهو حسبه﴾ [الطلاق: ٣] وقال تعالى: ﴿إنّ الله يحب المتـوكلين﴾ [آل عمـران: ١٥٩] فقـد أمـرك بالتـوكل ونبهك عليه، كما أمر نبيه ﷺ في قوله: ﴿وتوكل على الله﴾ [الأنفال: ٦١] فاتبع أوامر الله عزّ وجلّ في سؤاله في أعمالك، فهي مردودة عليك. قال النبي ﷺ: «من عمل عملاً ليس عليه أمرنا فهو رد» هذا يعم طلب الرزق والأعمال والأقوال، ليس لنـا نبي غيره فنتّبعه ولا كتـاب غير القـرآن فنعمل به، فيضلك هواك والشيطان. قال الله تعالى: ﴿ولا تتبع الهوى فيضلك عن سبيل الله﴾ [ص: ٢٦] فالسلامة مع الكتاب والسنّة، والهلاك مع غيرهما، وبهما يترقّى العبد إلى حالة الولاية والبدلية والغوثية، والله أعلم.

في ذم الحسد والأمر بتركه

قال رضي الله عنه وارضاه:

مالي أراك يا مؤمن حاسداً لجارك في مطعمه ومشربه وملبسه ومنكحه ومسكنه، وتقلبه في غناه ونعم مولاه عزّ وجلّ، وقسمه الذي قسم له؟ أما تعلم أنّ هذا مما يضعفُ إيمانك، ويسقطك من عين مولاك عزّ وجلّ، ويبغّضك إليه؟ أما سمعت الحديث المروي عن النبي ﷺ أنّه قال: «قال الله تعالى في بعض ما تكلم به: الحسودُ عدوُّ نعمتي» وما سمعت قولَ النبي ﷺ: «إنّ الحسد يأكل الحسنات كما تأكل النار الحطب»، ثم على أيّ شيء تحسده يا مسكين؟ أعلى قسمه أم على قسمك؛ فإن حسدته على قسمه الذي قسمه الله له في قوله تعالى: ﴿نحن قسمنا بينهم معيشتهم في الحياة الدنيا﴾ [الزخرف: ٣٢] فقد ظلمته، رجل يتقلب في نعمة مولاه التي تفضل بها عليه وقدرها له، ولم يجعل لأحد فيها حظاً ولا نصيباً، فمن يكون أظلم وابخل وارعن وانقص عقلاً منك؟ وإن حسدته على قسمك فقد جهلت غاية الجهل، فإن قسمك لا يعطى غيرك، ولا ينتقل منك إليه، حاش لله. قا الله عزّ وجلّ: ﴿ما يبدَّلُ القولُ لديَّ وما أنا بظلّام للعبيد﴾ [ق: ٢٩] إنّ الله عزّ وجلّ لا يظلمك، فيأخذ ما قسم وقدر لك غيرك، فهذا جهل منك، وظلم لأخيك، ثم حسدك للأرض التي هي معدنُ الكنوز والذخائر من أنواع الذهب والفضة والجواهر مما جمعته الملوكُ المتقدمة من عاد وثمود وكسرى وقيصر اولى من حسدك لجارك المؤمن أو الفاجر، فإن ما في بيته لا يكون جزءاً من أجزاء الف الف جزء مما

Marfat.com

هنـاك، فما حسـدُك لجارك إلاّ كمَثَـل رجـل رأى ملكـاً مع سلطانه وجنوده وحشمـه وملكـه وعـلى أراضي جبـاته خراجها وارتفاعها لديه، وتنعمه بأنواع النعم واللذات والشهوات، فلم يحسده على ذلك، ثم رأى كلباً يخدم كلباً من كلاب ذلـك الملك، يقـوم ويقعـد، ويصيح فيعـطى من مطبـخ الملك بقايا الـطعـام وردائته، فيتقوّت به، وأن يخلفه في ذلك خسة ودناءة لا زهداً وديناً وقناعة، فهل يكون في الزمان رجل أحمق منه وأرعن واجهل؟.

ثم لو علمتَ يا مسكين ما سيلقي جارك غداً من طول الحساب يوم القيامة إن لم يكن أطاع الله فيما خوّله وأدّى حقه فيها، وامتثال أمره وانتهاء نهيه فيها، واستعان بها على عبادته وطاعته = ما يتمنى أنه لم يعط من ذلك ذرة، ولا رأى نعيماً يومـاً قط، أما سمعتَ ما قد ورد في الحديث عن النبي ﷺ أنّه قال: «لَيَتَمَنَّـيَنَّ أقـوامٌ يومَ القيامـة أن تقـرضَ لحومهم بالمقـاريض مما يرون لأصحاب البلاء من الثواب» فيتمنى جارك غداً مكانك في الدنيا لما يرى من طول حسـابـه ومنـاقشته وقيامه خمسين ألف سنة في حر الشمس في القيامة، لأجـل ما يمتـع به من النعيم في الـدنيا، وأنت في معـزل عن ذلـك في ظل العـرش آكـل شارب متنعم فرح مسرور مستريح، لصبرك على شدائد الدنيا وضيقهـا وآفـاتهـا وبؤسها وفقرها، ورضاك وموافقتك لربك عزّ وجلّ فيما دبّر وقضى من فقرك وغناء غيرك، وسقمك وعافية غيرك، وشدتك ورخاء غيرك، وذُلّكَ وعزّ غيرك، جعلنا الله وإيّاك ممن صبر عند البلاء، وشكر على النعماء، وفوّض الأمور إلى رب السماء.

* * *

Marfat.com

المقالة الثامنة والثلاثون

في الصدق والنصيحة

قال رضي الله عنه وأرضاه:

من عامل مولاه بالصدق والنصاح، استوحش مما سواه في المساء والصباح.

يا قوم! لا تدعـوا ما ليس لكم، ووحـدوا ولا تشركوا، والله إنَّ سهام القدر تصيبكم خدشاً لا قتالاً، من كان في الله تلفه فعلى الله خلفه.

* * *

المقالة التاسعة والثلاثون

في تفسير الشقاق والوفاق والنفاق

قال رضي الله عنه وأرضاه:

الأخـذُ مع وجـود الهوى من غير الأمر عناد وشقاق، والأخذ مع عدم الهوى وفاق وإنفاق، وتركه رياء ونفاق.

* * *

Marfat.com

متى يصحُّ السالك أن يكون في زمرة الروحانيين

قال رضي الله عنه وأرضاه:

لا تطمع أن تدخُلَ في زمرة الروحانيين حتى تعادي جملتك، وتباينَ جميع الجوارح والأعضاء، وتنفرد عن وجودك وحركاتك وسكناتك؛ وسمعك وبصرك؛ وكلامك وبطشك، وسعيك، وعملك وعقلك، وجميع ما كان منك قبل وجود الروح فيك، وما أوجد فيك بعد نفخ الروح، لأنَّ جميع ذلك حجابك عن ربك عزّ وجلّ، فإذا صرت روحاً منفردة، سر السر، غيب الغيب، مبايناً للأشياء في سرك، متخذاً للكل عدواً وحجاباً وظلمة، كما قال إبراهيم الخليل عليه السلام: ﴿فإنّهم عدوٌّ لي إلاّ رب العالمين﴾ [الشعراء: ٧٧] قال ذلك للأصنام، فاجعل أنت جملتك وأجزاءك أصناماً مع سائر الخلق، فلا تطع شيئاً من ذلك ولا تتبعه جملة، فحينئذ تومَنْ على الأسرار والعلوم اللدنية وغرائبها، ويرد إليك التكوين وخرق العادات التي هي من قبيل القدرة التي تكون للمؤمنين في الجنّة، فتكون في هذه الحالة كأنّك أُحييت بعد الموت في الآخرة، فتكون كليتك قدرة، وتسمع بالله، وتنطق بالله، وتبصر بالله، وتبطش بالله، وتسعى بالله، وتعقل بالله، وتطمئن وتسكن بالله، فتعمى عن سواه، وتصم عنه، فلا ترى لغيره وجوداً مع حفظ الحدود والأوامر والنواهي، فإن انخرم فيك شيء من الحدود فاعلم أنّك مفتون، متلاعبة بك الشياطين، وارجع إلى حكم الشرع، ودع عنك رأي الهوى، لأنَّ كل حقيقة لم تشهد لها الشريعة فهي زندقة، والله أعلم.

* * *

Marfat.com

مثل في الغنى وكيفيته

قال رضي الله عنه وأرضاه:

تضرب لك مثلاً في الغنى فنقول: ألا ترى أنّ الملك يولي رجلاً من العوام ولاية على بلدة من البلاد، ويخلع عليه، ويعقد له ألوية ورايات، ويعطيه الكؤس والطبل والجند، فيكون على ذلك برهة من الزمان، حتى إذا اطمأن واعتقد بقاءه وثباته، وعجب به، ونسي حاله الأولى ونقصانه وذله وفقره وخموله، وداخلته النخوة والكبرياء = جاءه العزل من الملك في أشر ما كان من أمره، ثم طالبه الملك بجرائم صنعها وتعدّى أمره ونهيه فيها، فحبسه في أضيق الحبوس وأشدها، وطال حبسه، ودام ضره وذله وفقره، وذابت نخوته وكبرياؤه، وانكسرت نفسه، وخمدت نار هواه، وكل ذلك في عين الملك وعلمه، ثم تعطف الملك عليه، فنظره بعين الرأفة والرحمة، فأمر بإخراجه من الحبس، والإحسان إليه، والخلعة عليه، ورد الولاية إليه ومثلها معها، وجعلها له موهبة، فدامت له، وبقيت مصفاة مكفاة مهناة، وكذلك المؤمن إذا قرّبه الله واجتباه فتح قبالة عين قلبه باب الرحمة والمنّة والإنعام، فيرى بقلبه ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر، من مطالعة الغيوب من ملكوت السموات والأرض، وتقريب، وكلام لذيذ لطيف، ووعد جميل، ووفاء به، وإجابة دعاء، وكلمات حكمة، وتصديق وعد، فإنّها ترمي إلى قلبه قذفاً من مكان بعيد فتظهر على لسانه، ومع ذلك يسبغ عليه نعمه ظاهرة على جسده وجوارحه، في المأكول والمشروب والملبوس والمنكوح الحلال والمباح، وحفظ الحدود والعبادات الظاهرة، فيديم الله عزّ وجلّ ذلك لعبده المؤمن المجذوب برهة من الزمان، حتى [إذا] اطمئن العبد إلى ذلك، واغتر به،

واعتقـد دوامـه فتح عليه أبواب البلايا وأنواع المحن في النفس والمال والأهل والـولـد والقلب، فينقـطع عنـه جميع ما كان أنعم الله عليه من قبل، فيبقى متحيراً حسيراً منكسراً مقطوعاً به، إن نظر إلى ظاهره رأى ما يسوؤه، وإن نظر إلى قلبه وباطنه رأى ما يحزنه، وإن سأل الله تعالى كَشْفَ ما به من الضر لم يرَ إجـابتـه، وإن طلب وعداً جميلاً لم يجده سريعاً، وإن وعد بشيء لم يعثر على الـوفـاء به، وإن رأى رؤيا لم يظفر بتعبيرها وتصديقها، وإن رام الرجوع إلى الخلق لم يجد إلى ذلـك سبيلا، وإن ظهـرت له في ذلـك رخصـة فعمـل بها تسارعت العقوبات نحوه، وتسلّطت أيدي الخلق على جسمه، وألسنتهم على عرضـه، وإن طلب إقـالة مما قد أدخل فيه من الحالة الأولى قبل الاجتباء لم يقـل، وإن طلب الـرضا أو الطيبة والنعيم بما به من البلاء لم يعط، فحينئذ تأخـذ النفسُ في الـذوبـان والهـوى في الزوال، والإرادة والأماني في الرحيل، والأكوان في التلاشي، فيدام له ذلك، بل يزداد تشديداً وعسراً وتأكيداً، حتى إذا فني العبـد من الأخـلاق الإنسـانية والصفات البشرية، وبقي روحاً فقط يسمع نداء في باطنه ﴿اركض برجلك هذا مغتسل بارد وشراب﴾ [ص: ٤٢] كما قيل لسيدنـا أيوب عليه السلام، فيمطر الله عزّ وجلّ في قلبه بحار رحمته ورأفتـه ولـطفـه ومنته. ويحييه بروحه، ويطيبه بمعرفته ودقائق علومه، ويفتح عليه أبواب رحمته ونعمته ودلاله، وأطلق إليه الأيدي بالبذل والعطاء، والخدمة في سائـر الأحـوال والألسن بالحمـد والثناء، والذكر الطيب في جميع المحال، والأرجـل بالـترحـال، وذلل له وسخر له الملوك والأرباب، وأسبغ عليه نعمه ظاهـرة وبـاطنـة، تربيتـه ظاهـره بخلقه ونعمه، ويستأثر تربيته باطنه بلطفه وكرمه، وأدام له ذلك إلى اللقاء، ثم يدخله فيما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر، كما قال جلّ وعلا: ﴿فلا تعلم نفس ما أُخفي لهم من قرةِ أعينٍ جزاء بما كانوا يعملون﴾ [السجدة: ١٧].

Marfat.com

المقالة الثانية والأربعون

في بيان حالتي النفس

قال رضي الله عنه وأرضاه:

النفس لها حالتان لا ثالث لهما: حالة عافية، وحالة بلاء.

فإذا كانت في بلاء فالجزع والشكوى والسخط والاعتراض والتهمة للحق جلّ وعلا، لا صبر ولا رضى ولا موافقة، بل سوء الأدب والشرك بالحق والأسباب والكفر.

وإذا كانت في عافية فالشره والبطر واتباع الشهوات واللذات، كلما نالت شهوة طلبت أخرى، واستحقرت ما عندها من النعم من مأكول ومشروب وملبوس ومنكوح ومسكون ومركوب، فتخرج لكل واحدة من هذه النعم عيوباً ونقصاً، وتطلب أعلى منها وأسنى مما لم يقسم لها، وتعرض عمّا قسم لها، فيرتكب الغمرات، ويخوض المهالك في تعب طويل لا غاية له ولا منتهى في الدنيا، ثم في العقبى، كما قيل: إن من أشد العقوبات طلب ما لايقسم، وإذا كانت في بلاء لا تتمنى سوى انكشافها، وتنسى كل نعيم وشهوة ولذة ولا تطلب شيئاً منها، فإذا عوفيت منها رجعت إلى رعونتها وشرهها وبطرها وإعراضها عن طاعة ربها، وإنهماكها في معاصيه، وتنسى ما كانت فيه من أنواع البلاء والضر، وما حلّ بها من الويل، لما اجترحت وركبت من العظائم، فطماً لها وكفاً عن المعاصي في المستقبل، إذ لا تصلح لها العافية والنعمة بل حفظها في البلاء والبؤس، فلو أحسنَت الأدب عند انكشفت البلية، ولازمت الطاعة والشكر والرضى بالمقسوم لكان خيراً لها دنيا وأخرى، وكانت تجد زيادة في النعيم والعافية والرضى من الله عزّ وجلّ والطيبة والتوفيق.

Marfat.com

فمن أراد السلامة في الدنيا والأخرى فعليه بالصبر والرضا، وترك الشكوى إلى الخلق، وإنزال حوائجه بربه عزّ وجلّ، ولزوم طاعته، وانتظار الفرج منه، والانقطاع إليه عزّ وجلّ، إذ هو خير من غيره ومن جميع خلقه، حرمانُه عطاء، عقوبته نعماء، بلاؤه دواء، وعده نقد، قوله فعل، مشيئة حاله، إنّما قوله وأمره: ﴿إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون﴾ [يس: ٨٢] كل أفعاله حسنة وحكمة ومصلحة، غير أنّه طوى علم المصالح من عباده وتفرّد به، فالأولى واللائق بحاله الرضى والتسليم، واشتغاله بالعبودية من أداء الأوامر وانتهاء النواهي والتسليم في القدر، وترك الاشتغال في الربوبية التي هي علة الأقدار ومحاربتها، والسكوت عن لم وكيف ومتى؟ والتهمة للحق عزّ وجلّ في جميع حركاته وسكناته، وتستند هذه الجملة إلى حديث ابن عبّاس رضي الله عنهما، وهو ما روى عن عطاء عن ابن عبّاس رضي الله عنهما قال: «بينما أنا رديف رسول الله ﷺ إذ قال لي يا غلام: «احفظ الله يحفظك، احفظ الله تجده أمامك، فإذا سألت فاسأل الله، وإذا استعنت فاستعن بالله، جف القلم بما هو كائن، فلو جهد العباد أن ينفعوك بشيء لم يقضه الله لك لم يقدروا عليه، ولو جهد العباد أن يضرّوك بشيء لم يقضِهِ الله عليك لم يقدروا عليه، فإن استطعت أن تعامل الله بصدق واليقين فاعمل، وإن لم تستطع فإنّ في الصبر على ما تكره خيراً كثيراً، واعلم أنّ النصرة بالصبر والفرج مع الكرب، وأنّ مع العسر يسراً»(١) فينبغي لكل مؤمن أن يجعل هذا الحديث مرآة لقلبه وشعاره ودثاره وحديثه، فيعمل به في جميع حركاته وسكناته، حتى يسلمَ في الدنيا والآخرة، ويجد العزّة فيهما، برحمة الله عزّ وجلّ.

(١) ـ انظر شرح هذا الحديث في «نور الاقتباس في شرح وصية ابن عباس» للحافظ زين الدين ابن رجب الحنبلي.

* * *

Marfat.com

في ذم السؤال من غير الله تعالى

قال قدس الله سره: ما سأل الناس من سأل إلاّ لجهله بالله عزّ وجلّ، وضعف إيمانه، ومعرفته ويقينه، وقلّة صبره، وما تعفف من تعفف عن ذلك إلاّ لوفور علمه بالله عزّ وجلّ، وقوة إيمانه ويقينه، وتزايد معرفته بربه عزّ وجلّ في كل يوم ولحظة وحيائه منه عزّ وجلّ.

* * *

Marfat.com

في سبب عدم استجابة دعاء العارف بالله تعالى

قال قدس الله سره: إنّما لم يستَجبْ للعارف كلّما يسأل ربه عزّ وجلّ ويوفي له بكل وعد لئلا يغلب عليه الرجاء فيهلك، لأنّه ما من حالة ومقام إلّا ولذاك خوف ورجاء، هما كجناحي طائر لا يتم الإيمان إلّا بهما، وكذلك الحال والمقام، غير انّ خوف كل حالة ورجاءها بما يليق بها، فالعارف مقرّب وحالته ومقامه أن لا يريد شيئاً سوى مولاه عزّ وجلّ، ولا يركن ولا يطمئن إلى غيره عزّ وجلّ، ولا يستأنس بغيره، فطلبه لإجابة سؤاله، والوفاء بعهده، غير ما هو بصدده ولائق بحاله، ففي ذلك أمران اثنان: أحدهما لئلا يغلب عليه الرجاء والعزّة بمكر ربّه عزّ وجلّ، فيغفل عن القيام بالأدب فيهلك، والآخر شركه بربه عزّ وجلّ بشيء سواه، إذ لا معصوم في العالم في الظاهر بعد الأنبياء عليهم وعلى نبينا أفضل الصلاة والسلام، فلا يجيبه ولا يوفّي له، كيلا يسأل عادة، ويريده طبعاً لا امتثالاً للأمر، لما في ذلك من الشرك، والشرك كبيرة في الأحوال كلها، والأقدام جميعها، والمقامات بأسرها.

وأمّا إذا كان السؤال بأمر فذلك مما يريده قرباً كالصلاة والصيام وغيرهما من الفرائض والنوافل، لأنّه يكون في ذلك ممتثلاً للأمر.

* * *

Marfat.com

المقالة الخامسة والأربعون

في النعمـة والابتـلاء

قال رضي الله عنه وأرضاه:

إنّ الناس رجلان: منعم عليه، ومبتلي بما قضى ربه عزّ وجلّ، فالمنعم عليه لا يخلو من المعصية والتكدّر فيما أنعم عليه، فهو في أنعَم ما يكون من ذلـك إذ جاء القـدر بما يكـدره عليه من أنواع البلايا من الأمراض والأوجاع والمصائب في النفس والمال والأهل والأولاد، فيتعظ بذلك، فكأنّه لم ينعم عليه قط، وينسى ذلك النعيم وحلاوته، وإن كان الغني قائماً بالمال والجاه والعبيد والإماء، والأمن من الأعداء، فهو في حال النعماء كأن لا بلاء في الوجود، كل ذلك لجهله بمولاه عزّ وجلّ وبالدنيا، فلو علم أنّ مولاه عزّ وجلّ: ﴿فعّال لما يريد﴾ [البروج: ١٦] يبـدل، ويحلّي ويمرُّ، ويغنى ويفقر، ويرفع ويخفض، ويعز ويذل، ويحيي ويميت، ويقدم ويؤخر، لما اطْمأن إلى ما به من النعيم، ولما اغترّ به، ولما أيس من الفرج في حالة البلاء.

وبجهله أيضـاً بالـدنيا اطمأن إليها، وطلب بها صفاء لا يشوبه كدر، ونسي أنّها دار بلاء وتنغيص، وتكـاليف وتكـدير، وأنّ أصلها بلاء، وطارفها نعماء، فهي كشجرة الصبر أوّل ثمرتها مر، وآخرها شهد حلو، لا يصل المرء الى حلاوتهـا حتى يتجـرّعَ مرارتها، فلن يبلغ إلى الشهد إلاّ بالصبر على المر، فمن صبر على بلائها حلي له نعيمها، إنّما يعطى الأجيرُ أجرَه بعد عرق جبينه، وتعب جسـده. وكرب روحه، وضيق صدره، وذهاب قوته، وإذلال نفسه، وكسر هواه في خدمة مخلوق مثله، فلما تجرّع هذه المرائر كلها أعقبت له طيّب

Marfat.com

طعـام وإدام وفاكهة ولباس، وراحة وسرور، ولو أقل قليل، فالدنيا أوّلها مرة كالصفحة العليا من عسل في ظرف، مشوبة بمرارة، فلا يصل الآكل إلى قرار الظرف، ويتناول الخالص منه إلاّ بعد تناول الصفحة العليا، فإذا صبر العبد على أداء أوامر الرب عزّ وجلّ وانتهاء نواهيه، والتسليم والتفويض فيما يجري به القدر، وتجرّع مرائر ذلك كله، وتحمل أثقاله، وخالف هواه وترك مراده، أعقبه الله عزّ وجلّ بذلك طيب العيش في آخر عمره والدلال والراحة والعزة، ويتولاّه ويغذيه كما يغذي الطفل الرضيع من غير تكلف منه وتحمل مؤنة وتبعة في الدنيا والأخرى، كما يتلذّذ آكل المر من الصفحة العليا من العسل، يأكله من قرار الظرف، فينبغي للعبد المنعَم عليه أن لا يأمن مكر الله عزّ وجلّ، فيغترّ بالنعمة ويقطع بدوامها، ويغفل عن شكرها ويرخي قيدها بتركه لشكرها، قال النبي ﷺ: «النعمة وحشية فقيّدوها بالشكر» فشكر نعمة المال الإعتراف بها للمنعم المتفضل، وهو الله عزّ وجلّ، والتحدث بها لنفسه في سائر الأحوال، ورؤية فضله ومنته عزّ وجلّ، وأن لا يتملّك عليه، ولا يتجاوز حدّه فيه، ولا يترك أمره فيه، ثم بأداء حقوقه من الزكاة والكفارة والنذر والصدقة، وإغاثة الملهوف، وافتقاد أرباب الحاجات وأهلها في الشدائد عند تقلب الأحوال وتبدل الحسنات بالسيئات، أعني ساعات النعيم والرخاء بالبأساء والضرّاء، وشكر نعمة العافية في الجوارح والأعضاء في الاستعانة بها على الطاعات، والكف عن المحارم والسيئات، والمعاصي والآثام، فذلك قيد النعم عن الرحلة والذهاب، وسقي شجرتها، وتنمية أغصانها وأوراقها، وتحسين ثمرتها، وحلاوة طعمها، وسلامة عاقبتها، ولذاذة مضغها، وسهولة بلعها، وتعقب عافيتها وريعها في الجسد، ثم ظهور بركتها على الجوارح من أنواع الطاعات والقربات والأذكار، ثم دخول العبد بعد ذلك في الآخرة في

رحمــه الله عزّ وجـلّ، والخلود في الجنـان مع النبيين والصـديقـين والشهـداء والصالحين، وحسن أولئك رفيقاً.

فإن لم يفعل ذلك واغترّ بما ظهر من زينة الدنيا، وبما ذاق من لذاتها، واطمـأنّ إلى بريق سرابهـا، ومـا لاح من برقها، وما هب من نسيم اوّل نهار قيظها، ونعومة جلود حيّاتها وعقاربها، وغفل وعمى عن سمومها القاتلة المودعة في أعماقها؛ ومكامنها ومصايدها المنصوبة لأخذه وحبسه وهلاكه، فليهنأ للردى وليستبشر بالعطب والفقر العاجل، مع الذل والهوان في الدنيا والعذاب الأجل في النار ولظى.

وأمّـا المبتـلى، فتـارة يبتـلى عقـوبـةً ومقـابلةً لجريمة ارتكبها، ومعصية اقـترفهـا، وأخـرى يبتـلى تكفيراً وتمحيصاً، وأخرى يبتلى لارتفاع الدرجات، وتبليغ المنازل العاليات، ليلحق بأولى العلم من أهل الحالات والمقامات، ممن سبقت لهم عناية من رب الخليقة والبريات، وسيّرهم مولاهم ميادين البليات على مطايا الرفق والألطاف، وروّحهم بنسيم النظرات واللحظات في الحركات والسكنـات؛ إذ لم يكن ابتـلاهم للإهـلاك والإهـواء في الـدركـات، ولكن اختـبرهم بها اصـطفاء واجتباء، واستخرج بها منهم حقيقة الإيمان، وصفاها وميّزهـا من الشرك والـدعـاوى والنفـاق، ونحلهم بها أنـواع العلوم والأسرار والأنـوار، فجعلهم من الخلص الخـواص، ائتمنهم على أسراره، وارتضـاهم لمجـالستـه. قال النبي ﷺ: «الفقراء الصبر جلساء الرحمن يوم القيامة. دنيا وأخـرى، في الـدنيا بقلوبهم، وفي الآخرة بأجسادهم، فكانت البلايا مطهرة لقلوبهم من دون الشرك والتعلق بالخلق والأسباب والأماني والإرادات، وذوّابة لها، وسبّـاكـة من الـدعـاوي والهـوسـات، وطلب الأعـواض بالطاعات من الدرجات والمنازل العاليا في الآخرة في الفردوس والجنّات.

Marfat.com

فعلامة الابتلاء على وجه المقابلة والعقوبة = عدمُ الصبر عند وجودها، والجزع والشكوى إلى الخليقة والبريات. 11

وعلامة الابتلاء تكفيراً وتمحيصاً للخطيات وجودُ الصبر الجميل من غير شكوى، وإظهار الجزع إلى الأصدقاء والجيران، والتضجّر بأداء الأوامر والطاعات.

وعلامة الابتلاء ارتفاع وجود الرضا والموافقة، وطمأنينة النفس والسكون بفعل إله الأرض والسموات، والفناء فيها إلى حين الانكشاف بمرور الأيّام والساعات.

Marfat.com

* * *

في قوله ﷺ في الحديث القدسي «من شغله ذكري . .» إلى آخره

قال رضي الله عنه وأرضاه في قول النبي ﷺ عن ربّه عزّ وجلّ: «من شغله ذكري عن مسألتي أعطيته أفضلَ ما أُعطي السائلين» وذلك أنّ المؤمن إذا أراد الله عزّ وجلّ اصطفاءه واجتباءه، فسلك به الأحوال، وامتحنه بأنواع المحن والبلايا، فيفقره بعد الغنى، ويضطره إلى مسألة الخلق في الرزق عند سد جهاته عليه، ثم يصونه عن مسألتهم ويضطره إلى القرض منهم، ثم يصونه عن القرض ويضطره إلى الكسب، ويسهله عليه، وييسره له، فيأكل بالكسب الذي هو السنّة، ثم يعسره عليه، ويلهمه السؤال للخلق، ويأمره به بأمرٍ باطن، يعلمه ويعرفه، ويجعل عبادته فيه، ومعصيته في تركه، ليزولَ بذلك هواه، وتنكس نفسُه، وهي حالة الرياضة، فيكون سؤاله على وجه الإجبار لا على وجه الشرك بالجبار، ثم يصونه عن ذلك، ويأمره بالقرض منهم أمراً جزماً لا يمكنه تركه، كالسؤال من قبل، ثم ينقله من ذلك، ويقطعه عن الخلق ومعاملتهم، فيجعل رزقه في السؤال له عزّ وجلّ، فيساله جميعَ ما يحتاج إليه، فيعطيه عزّ وجلّ، ولا يقطعه إن سكت وأعرضه عن السؤال، ثم ينقله من السؤال باللسان إلى السؤال بالقلب، فيساله بقلبه جميعَ ما يحتاج فيعطيه، حتى إنّه لو ساله بلسانه لم يعطه، او سأل الخلق لم يعطوه، يغنيه عنه وعن السؤال جملة ظاهراً وباطناً، فيناديه بجميع ما يصلحه، ويقوم به اَوَدُه من المأكول والمشروب والملبوس وجميع مصالح البشر من غير ان يكون هو فيها او

Marfat.com

تخطر بباله، فيتولاه عزّ وجلّ وهو قوله عزّ وجلّ: ﴿إنّ وليَ الله الذي نزّلَ الكتابَ وهو يتولّى الصالحين﴾ [الأعراف: ١٩٦] فيتحقق حينئذ قولُه عزّ وجلّ: «من شغله ذكري عن مسألتي اعطيتُه افضل ما أعطى السائلين» وهي حالة الفناء التي هي غاية أحوال الأولياء والأبدال.

ثم قد يريد إليه التكوين فيكون جميع ما يحتاج إليه بإذن الله، وهو قوله جلّ وعلا في بعض الكتب: «يا ابن آدم أنا الله الذي لا إله إلّا انا اقول للشيء كن فيكون، أطعني اجعلْك تقولُ للشيء كن، فيكون».

Marfat.com

* * *

في التقرّب إلى الله تعالى

قال رضي الله عنه وارضاه:

سألني رجلٌ شيخٌ في المنام فقال: اي شيء يقرّب العبد إلى الله عزّ وجلّ؟ فقلت: لذلك ابتداء وانتهاء، فابتداؤه الورع وانتهاؤه الرضى والتسليم والتوكل.

Marfat.com

فيما ينبغي للمؤمن أن يشتغل به

قال رضي الله عنه وأرضاه:

ينبغي للمؤمن أن يشتغل أولاً بالفرائض، فإذا فرغ منها اشتغل بالسنن، ثم يشتغل بالنوافل والفضائل، فما لم يفرغ من الفرائض، فالاشتغال بالسنن حمق ورعونة، فإن اشتغل بالسنن والنوافل قبل الفرائض لم يقبَل منه واهينَ، فمثله كمثل رجل يدعوه الملك إلى خدمته فلا يأتي إليه [بل يأتي] في خدمة الأمير الذي هو غلام الملك وخادمه وتحت يده وولايته.

عن أمير المؤمنين سيدنا علي بن أبي طالب رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إنّ مثل مصلٍّ النوافل قبل الفرائض كمثل حُبلَى حملت، فلما دنا نفاسها أسقطت، فلا هي ذات حمل، ولا هي ذات ولادة، وكذلك المصلي لا يقبل الله له نافلة حتّى يؤدّي الفريضة».

ومثل المصلّي كمثل التاجر لا يخلص له ربحه حتى يأخذَ رأس المال، وكذلك المصلي بالنوافل لا تقبل له نافلة حتى يؤدي الفريضة، وكذلك من ترك السنة واشتغل بنافلة لم ترتب مع الفرائض، ولم ينص عليها، ويؤكّد أمرها، فمن الفرائض ترك الحرام والشرك بالله عزّ وجلّ في خلقه، والاعتراض عليه في قدره وقضائه، وإجابة الخلق وطاعتهم، والإعراض عن أمر الله عزّ وجلّ وطاعته. قال ﷺ: «لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق».

* * *

Marfat.com

المقالة التاسعة والأربعون

في ذم النوم

قال رضي الله عنه وأرضاه:

من اختـــار النـوم على الـذي هو سبب اليقـظة فقـد اختـار الأنقص والأدنى، واللحوق بالموت والغفلة عن جميع المصالح، لأنّ النوم أخو الموت، ولهذا لا يجوز النوم على الله لما انتفت النقائص أجمع عن الله عزّ وجلّ، وكذلك الملائكة لما قربوا منه عزّ وجلّ نفى النوم عنهم، وكذلك أهل الجنّة لما كانوا في أرفع المواضع وأطهرها وأنفسها وأكرمها نفى النوم عنهم لكونه نقصاً في حالتهم؛ فالخير كل الخير في اليقظة، والشر كل الشر في النوم والغفلة، فمن أكل بهواه أكل كثيراً، فشرب كثيراً، فنام كثيراً، فندم كثيراً طويلاً، وفاته خيرٌ كثير.

ومن أكـل قليلاً من الحـرام كان كمن أكل كثيراً من المباح بهواه، لأنّ الحرام يغطي الإيمان ويظلمه، كالخمر يظلم العقل ويغطيه، فإذا أظلم الإيمان فلا صلاة ولا عبادة ولا إخلاص، ومن أكل من الحلال كثيراً بالأمر كان كمن أكل منه قليلاً في النشاط والعبادة والقوة، فالحلال نور في نور، والحرام ظلمة في ظلمة، لا خير فيه.

أكلُ الحلال بهواه بغير الأمر وأكل الحرام مستجلبان للنوم فلا خير فيه.

* * *

Marfat.com

علاج دفع العبد عن الله تعالى وبيان كيفية التقرّب منه تعالى

قال رضي الله عنه وأرضاه:

لا يخلو أمرك من قسمين:

إمّا ان تكون غائباً عن القُرْب من الله، أو قريباً منه واصلاً إليه، فإن كنت غائباً عنه فما قعودك وتوانيك عن الحظ الأوفر، والنعيم والعز الدائم، والكفاية الكبرى، والسلامة والغنى، والدلال في الدنيا والآخرة؟ فقم وأسرع في الطيران إليه عزّ وجلّ بجناحين أحدهما:

ترك اللذات والشهوات الحرام منها والمباح والراحات أجمع.

والآخر: احتمال الأذى والمكاره وركوب العزيمة والأشد، والخروج من الخلق والهوى والإرادات والمنى دنيا وآخرة حتى تظفر بالوصول والقرب.

فتجد عند ذلك جميع ما تتمنى، وتحصل لك الكرامة العظمى والعزة الكبرى.

فإن كنت من المقربين الواصلين إليه عزّ وجلّ ممن أدركتهم العناية، وشملتهم الرعاية، وجذبتهم المحبة، ونالتهم الرحمة والرأفة، فأحسنْ الأدبَ، ولا تغتر بما أنت فيه، فتقصّر في الخدمة، وتخلد إلى الرعونة الأصلية من الظلم والجهل والعجل في قوله تعالى: ﴿وحملها الإنسانُ إنّه كان ظلوماً جهولاً﴾ [الأحزاب: ٧٢] و قوله تعالى: ﴿وكان الإنسان عجولاً﴾ [الإسراء: ١١].

Marfat.com

واحفظ قلبك من الالتفات إلى ما تركته من الخلق والهوى والإرادة والتخير وترك الصبر والموافقة والرضى عند نزول البلاء، واستطرح بين يدي الله عزّ وجلّ كالكرة بين يدي الفارس يقلّبها بصولجانه، والميت بين يدي الغاسل، والطفل الرضيع في حجْر أمه وظِئْره، تعامى عمن سواه عزّ وجلّ، فلا ترى لغيره وجوداً، ولا ضراً ولا نفعاً، ولا عطاء ولا منعاً، اجعل الخليقة والأسباب عند الأذية والبلية كسوطه عزّ وجلّ يضربك به، وعند النعمة والعطية كيده يلقمك بها.

* * *

Marfat.com

المقالة الحادية والخمسون

في الزهـــد

قال رضي الله عنه وأرضاه:

الـزاهـد يثاب بسبب الأقسام مرتين يثاب في تركها أولاً، فلا ياخذها بهواه ومـوافقـة النفس، بل يأخذها بمجرد الأمر، فإذا تحققت عداوته لنفسه ومخـالفتـه لهواه عُدَّ من المحقين وأهـل الـولاية، وأدخـل في زمـرة الأبـدال والعـارفـين، فأمر حينئذ بتناولها والتلبس بها، إذ هي قسمة لا بد له منها، لم تخلق لغـيره، جف بها القلم وسبق بها العلم، فكذا امتثل الأمرَ فتناول، أو اطلع بالعلم فتلبس بها بجريان القدر والفعل فيه من غير أن يكون هو فيه، لا هوى ولا إرادة ولا همة أثيب بذلـك ثانياً، فهـو ممتثـل للأمر بذلك أو موافق لفعل الحق عزّ وجلّ فيه.

فإن قال قائـل: كيف أطلقت القـول بالثواب لمن هو في المقام الأخير الذي ذكرته، من أنّه أُدخل في زمرة الأبدال والعارفين، المفعول فيهم، الفانين عن الخلق والأنفس والأهـوية والإرادات والحـظوظ والأمـاني والأعواض على الأعمال، الذين يرون جميع طاعاتهم وعباداتهم فضلاً من الله عزّ وجلّ ونعمة ورحمـة، وتـوفيقـاً وتيسيراً منه عزّ وجلّ، ويعتقدون أنهم عبيد الله عزّ وجلّ، والعبـد لا يستحق على مولاه حقاً، إذ هو برمته مع حركاته وسكناته وأكسابه ملك لمولاه، فكيف يقـال في حقه يثاب، وهو لا يطلب ثواباً ولا عوضاً على فعله، ولا يرى له عملاً، بل يرى نفسه من البطالين، وأفلس المفلسين من الأعمال.

Marfat.com

فنقول: صدقت، غير أنّ الله عزّ وجلّ يواصله بفضله، ويدلله بنعمه، ويربيه بلطفه ورأفته، وبسره ورحمته وكرمه، إذ كف يده عن مصالح نفسه، وطلب الحظوظ لها، وجلب النفع إليها، ودفع الضرَّ عنها، فهو كالطفل الرضيع الذي لا حراك له في مصالح نفسه، وهو مدلَّل بفضل الله عزّ وجلّ ورزقه الدارُّ على يدي والديه الوكيلين الكفيلين؛ فلمّا سلب عنه مصالح نفسه عطف قلوب الخلق عليه، وأوجد رحمة وشفقة له في القلوب حتى كل واحد يرحمه ويتعطف عليه ويبره، فهكذا الكلُّ فانٍ عن سوى الله الذي لا يحركه غير امره أو فعله، مواصل بفضل الله عزّ وحلّ دنيا وآخرة، مدلل فيهما، مدفوع عنه الأذى مُتولى قال تعالى: ﴿إن وليَ الله الذي نزل الكتابَ وهو يتولّى الصالحين﴾ [الأعراف: ١٩٦].

* * *

Marfat.com

في سبب ابتلاء طائفة من المؤمنين

قال رضي الله عنه وأرضاه:

إنّما يبتلي الله طائفةً من المؤمنين الأحباب من أهل الولاية، ليردهم بالبلاء إلى السؤال، فيحب سؤالهم، فإذا سألوا يجب إجابتهم، فيعطي الكرم والجود حقّهما، لأنّهما يطالبان، لأنّه عزّ وجلّ عند سؤال المؤمنين من الإجابة، وقد تَحْصُلُ الإجابة ولا يحصل النقد والنقاد، لتعويق القدر، لا على وجه عدم الإجابة والحرمان، فليتأدب العبد عند نزول البلاء، وليفتش عن ذنوبه في ترك الأوامر وارتكاب المناهي ما ظهر منها وما بطن. والمنازعة في القدر إذ تعاقب عليه، إنّما يبتلى بذلك مقابلةً، فإن انكشف البلاء، وإلّا، فليلتجأ إلى الدعاء والتضرّع والاعتذار، فيديم السؤال، لجواز ان يكون ابتلاه ليسأله، ولا يتهمه لتأخير الإجابة لما بيناه، والله أعلم.

* * *

Marfat.com

في الأمر بطلب الرضى عن الله، والفناء به تعالى

قال رضي الله عنه وأرضاه:

اطلبوا من الله عزّ وجلّ الرضا أو الفناء، لأنّه هو الراحة الكبرى، والجنّة العالية المنفردة في الدنيا، وهو باب الله الأكبر، وعلة محبة الله لعبده المؤمن، فمن أحبّه الله لم يعذبه في الدنيا والآخرة، فيه اللحوق بالله عزّ وجلّ والوصول إليه، ولا تشتغلوا بطلب الحظوظ والأقسام لم تقسم أو قسمت، فإن كانت لم تقسم فالاشتغال بطلبها حمقٌ ورعونة وجهالة، وهو أشد العقوبات؛ كما قيل: من أشد العقوبات طلب مالا يقسم، وإن كانت مقسومة فالاشتغال بها شره وحرص، وشرك من باب العبودية والمحبة الحقيقية، لأنّ الاشتغال بغير الله عزّ وجلّ شرك، وطالب الحظ ليس بصادق في محبته وولايته، فمن احتاج مع الله غيرَه فهو كذّاب، وطالب العوض على عمله غير مخلص، وإنّما المخلص من عبد الله ليعطي الربوبية حقها وتعبُّده للمالكية والحقيقة، لأنّ الحق عزّ وجلّ يملكه، ويستحق عليه العمل والطاعة له بحركاته وسكناته وسائر أكسابه، والعبد وما في يده ملك لمولاه؛ كيف وقد بيّنا في غير موضع انّ العبادات بأسرها نعمة من الله وفضل منه على عبده، إذ وفّقه لها، وأقدره عليها، فالاشتغال بالشكر لربه خير وأولى من طلبه الأعواض أو الجزاء عليها، ثم كيف تشتغل بطلب الحظوظ وقد ترى خلقاً كثيراً كلما كثرت الحظوظ عندهم وتواترت وتتابعت اللذات والنعم والأقسام إليهم زاد سخطهم على ربهم، وتضجرهم وكفرهم بالنعمة، وكثرة همومهم وغمومهم، وفقرهم إلى

Marfat.com

أقسام لم تقسم، غير ما عندهم، وحقرت وصغرت، وقبحت أقسامهم عندهم، وعظمت وكبرت وحَسُنَتْ أقسام غيرهم في قلوبهم وأعينهم، فشرعوا في طلبها، فذهبت أعمارُهم، وانحلّت قواهم، وكبرت سنّهم، وشتت أحوالهم، وتعبت أجسادهم، وعرقت جباههم، وسودت صحائفهم بكثرة آثامهم، وارتكاب عظائم الذنوب في طلبها، وترك أوامر ربهم فلم ينالوها، وخرجوا من الدنيا مفاليس، لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء، لا شكروا ربّهم فيما قسم لهم من أقسامهم، فاستعانوا على طاعته، وما نالوا بها على طاعته، وما نالوا ما طلبوا من أقسام غيرهم، بل ضيّعوا دنياهم وآخرتهم، فهم أشر الخليقة، وأجهلهم وأحمقهم، وأخسهم عقولاً وبصيرة، فلو أنّهم رضوا بالقضاء، وقنعوا بالعطاء، وأحسنوا طاعة المولى = لأتتهم أقسامهم من الدنيا من غير تعب ولا عناء، ثم نُقِلوا إلى جوار العلي الأعلى، فوجدوا عنده كل مراد ومنى، جعلنا الله وإيّاكم ممن رضي بالقضاء، وجعل سؤاله ذلك والفناء وحفظ الحال والتوفيق بما يحبه ويرضى.

* * *

Marfat.com

فيمن أراد الوصول إلى الله تعالى وبيان كيفية الوصول إليه تعالى

قال رضي الله عنه وارضاه:

من أراد الآخرة فعليه بالزهد في الدنيا، ومن أراد الله فعليه بالزهد في الآخرة؛ فيترك دنياه لآخرته، وآخرته لربه، فما دام في قلبه شهوة من شهوات الدنيا ولذة من لذاتها، وطلب راحة من راحتها من سائر الأشياء: من مأكول، أو مشروب، وملبوس، ومنكوح، ومسكون، ومركوب، وولاية، ورياسة، وطبقة في علم من فنون العلم من الفقه فوق العبادات الخمس، ورواية الحديث، وقراءة القرآن بروايته، والنحو، واللغة، والفصاحة، والبلاغة، وزوال الفقر، ووجود الغنى، وذهاب البلية، ومجيء العافية، وفي الجملة، انكشاف الضر، ومجيء النفع = فليس بزاهد حقاً، لأنّ كل واحد من هذه الأشياء فيه لذة النفس، وموافقة الهوى، وراحة الطبع، وحب له، وكل ذلك من الدنيا، ومما يحبب البقاء فيها، ويحصّل السكون والطمأنينة إليها، فينبغي أن يجاهد في إخراج جميع ذلك عن القلب، ويأخذ نفسَه بإزالة ذلك وقلعه، والرضا بالعدم والإفلاس والفقر الدائم، فلا يبقى من ذلك مقدار مص نواة ليخلص زهده في الدنيا، فإذا تم له ذلك زالت الغموم والأحزان من القلب، والكرب عن الحشا، وجاءت الراحات والطيب والأنس بالله كما قال ﷺ: «الزهد في الدنيا يريح القلب والجسد» فما دام في قلبه شيء من ذلك فالهموم والخوف والوجل قائم في القلب، والخذلان لازم له، والحجاب عن الله عزّ

Marfat.com

وجلّ وعن قربه متكاثف متراكم، فلا ينكشف جميعُ ذلك إلّا بزوال حب الدنيا على الكمال، وقطع العلائق بأثرها، ثم يزهد في الآخرة، فلا يطلب الدرجات والمنازل العاليات: الحور، والولدان، والقصور، والبساتين، والمراكب، والخيل، والحَلْي، والمآكل، والمشارب، وغير ذلك مما أعده تعالى لعباده المؤمنين، فلا يطلب على عمله جزاء أو أجراً من الله عزّ وجلّ البتة ولا دنيا ولا أخرى، فحينئذ يجد الله عزّ وجلّ فيؤتيه حسابه تفضلاً منه ورحمة، فيقربه منه ويدنيه، ويلطف به ويتعرف إليه بأنواع ألطافه وبره، كما هو دأبه عزّ وجلّ مع رسله وأنبيائه وأوليائه وخواصه وأحبابه أولي العلم به عزّ وجلّ، فيكون العبد كل يوم في مزيد أمره مدة حياته، ثم ينقل إلى دار الآخرة إلى ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر، مما تضيق عنه الأفهام وتعجز عن وصفه العبارات، والله أعلم.

* * *

Marfat.com

في تـرك الحظـوظ

قال رضي الله عنه وأرضاه:

ترك الحظوظ ثلاث مرات:

الأولى: يكون العبد ماراً في عشواه متخبطاً فيه، منصرفاً بطبعه في جميع أحواله من غير تعبد لربه، ولا زمام في الشرع يرده، ولا حد من الحدود ينتهي إليه عن حكمـه، فبينما هو على ذلك ينظر الله إليه، يعني يرحمه، فيبعث الله إليه واعـظاً من خلقـه من عبـاده الصالحين فينبهه، ويثنيه بواعظ من نفسه، فيتضـافـر الواعظان على نفسه وطبعه، فتعمل الموعظة عملها، فيتبين عندها عيب ما هي فيه من ركوب مطية الطبع والمخالفة. فتميل إلى الشرع في جميع تصرفـاتهـا، فيصير العبد مسلماً قائماً مع الشرع فانياً عن الطبع، فيترك حرام الـدنيا وشبهـاتهـا ومنن الخلق، فيأخذ مباح الحق عزّ وجلّ وحلال الشرع في مأكله ومشربـه وملبسـه ومنكحـه ومسكنه وجميع ما لا بد منه، ليحفظ البنية ويتقـوى على طاعـة الـرب عزّ وجـلّ، وليستـوفي قسمه المقسوم له الذي لا يتجـاوزه، ولا سبيل إلى الخروج من الدنيا قبل تناوله والتلبس به واستيفائه، فيسير على مطية المباح والحلال بالشرع في جميع أحواله، إلى أن تنتهي به هذه المـطية إلى عتبـة الـولاية والـدخول في زمرة المحققين والخواص أهل العزيمة مريدي الحق، فيأكل بالأمر، فحينئذ يسمع نداء من قبل الحق عزّ وجلّ من باطنـه: اترك نفسك وتعال، اترك الحظوظ والخلق إن أردت الخالق، واخلع نعليك، دنياك وآخـرتـك، وتجـرّد عن الأكـوان والمـوجـودات، وما سيوجد،

والأماني بأسرها، وتعرٌ عن الجميع، وافنَ عن الكل، وتطيّب بالتوحيد، واترك
12 الشرك، واصدق الإرادة، ثم ادخل، وَطِء البساط بالأدب مطرقاً، لا تنظر يميناً إلى الآخرة وشمالاً إلى الدنيا ولا إلى الخلق ولا إلى الحظوظ، فإذا دخل في هذا المقام، وتحقّق الوصول جاءت الخلعة من قبل الحق عزّ وجلّ، وغشيته أنواعُ المعارف والعلوم وأنواع الفضل، فيقال له: ر، بل يوافق، ولا ينازع من تلبس بالنعم والفضل ولا تسيء إلى جميع ما يجري عليه مما يحلو ويمر، الأحوال معدودة، فأمر بحفظ حدودها، والفضل الذي هو القدر غير محدود فيحفظ.

الأولى: بالطبع وهو الحرام.

والثانية: بالشرع، وهو المباح والحلال.

والثالثة: بالأمر، وهي حالة الولاية وترك الهوى.

والرابعة: بالفضل، وهي حالة زوال الإرادة، وحصول البدلية، وكونه مراداً قائماً مع القدر الذي هو فعل الحق، وهي حالة العلم والانصاف بالصلاح، فلا يسمّى صالحاً على الحقيقة إلاّ [من] وصل إلى هذا المقام، هو قوله تعالى: ﴿إنّ ولي الله الذي نزل الكتاب وهو يتولى الصالحين﴾ [الأعراف: ١٩٦] فهو العبد الذي كفت يده عن جلب مصالحه ومنافعه، وعن رد مضاره ومفاسده، كالرضيع مع الظئر، والميت الغسيل مع الغاسل، فتتولى يدُ القدر تربيته من غير أن يكون له اختيار وتدبير، فإن عن جميع ذلك لا حالاً ولا مقاماً ولا إرادة، بل القيام مع القدرة، تارة يبسط وتارة يقبض وتارة يُغني وتارة يُفقر، ولا يختار ولا يتمنى زوال ذلك وتغيره، بل الرضى الدائم والموافقة الأبدية، فهو آخر ما تنتهي إليه أحوال الأولياء قدست أسرارهم.

* * *

Marfat.com

في فناء العبد عن الخلق والهوى والنفس والإرادة والأماني

قال رضي الله عنه وأرضاه:

إذا فنى العبد عن الخلق والهوى والنفس والإرادة والأماني دنيا وأخرى، ولم يرد إلا الله عزّ وجلّ، وخرج الكل عن قلبه = وصل إلى الحق، واصطفاه واجتباه، وأحبه وحبّبه إلى خلقه، وجعله يحبه ويحب قربه، ويتنعم بفضله، ويتقلب في نعمه، وفتح عليه أبواب رحمته، ووعده أن لا يغلقها عنه أبداً، فيختار العبدُ حينئذ الله، ويدبر بتدبيره، ويشاء بمشيئته، ويرضى برضاه، ويمتثل أمرَه دون غيره، ولا يرى لغيره عزّ وجلّ وجوداً ولا فعلاً، فحينئذ يجوز أن يَعِدَه الله بوعد ثم لا يظهر للعبد وفاء بذلك، ولا يغير ما قد توهمه من ذلك، لأنّ الغيرية قد زالت بزوال الهوى والإرادة، فصار في فعل الله عزّ وجلّ وإرادته، فيصير الوعد حينئذ في حقه مع الله عزّ وجلّ كرجل عزم على فعل شيء في نفسه ونواه ثم صرفه إلى غيره، كالناسخ والمنسوخ فيما أوحى الله عزّ وجلّ إلى نبينا محمد ﷺ قوله عزّ وجلّ: ﴿ما ننسخ من آيةٍ أو نُنْسِها نأتِ بخير منها أو مثلِهَا ألم تعلم أنّ الله على كل شيء قدير﴾ [البقرة: ١٠٦] لمّا كان النبي ﷺ منزوع الهوى والإرادة سوى المواضع التي ذكرها الله عزّ وجلّ في القرآن من الأسر يوم بدر ﴿تريدون عرضَ الدنيا والله يريد الآخرة والله عزيزٌ حكيم * لولا كتابٌ من الله سبقَ لمسّكم فيما أخذتمْ عذابٌ عظيمٌ﴾ [الأنفال: ٦٨ - ٦٩] كذا قالوا وغيره، وهو مراد الحق عزّ وجلّ، لم يترك على حالة واحدة، بل نقله إلى القدر إليه، فصرفه في القدر وقلبه منها، نبهه بقوله تعالى: ﴿ألم تعلمْ أنّ الله على كل شيء قدير﴾ [البقرة: ١٠٦] يعني أنّك في بحر القدر تَقْلِبُك أمواجُه تارة كذا وتارة كذا، فمنتهى أمر الولي ابتداء أمر النبي، ما بعدَ الولايةِ والبدلية إلاّ النبوةُ، والله أعلم.

Marfat.com

المقالة السابعة والخمسون

في عدم المنازعة في القدر والأمر بحفظ الرضا به

قال رضي الله عنه وأرضاه:

الأحوالُ قبضٌ كلها؛ لأنّه يؤمر الولي بحفظها، وكل ما يؤمر بحفظه فهو قبض، والقيام مع القدر بسط كله، لأنّه ليس هناك شيء يؤمر بحفظه سوى كونه موجوداً في القدر، فعليه أن لا ينازع في القدر، بل يوافق، ولا ينازع من تلبس بالنعم والفضل ولا تسيء إلى جميع ما يجري عليه مما يحلو ويمر، الأحوال معدودة، فأمر بحفظ حدودها، والفضل الذي هو القدر غير محدود فيحفظ.

وعلامة أنّ العبد دخل مقام القدَر والفعل والبسط أنّه يؤمر بالسؤال في الحظوظ بعد أن أمر بتركها والزهد فيها، لأنّه لما خلا باطنه من الحظوظ ولم يبقَ فيه غير الرب عزّ وجلّ بُوْسِطَ، فأُمِرَ بالسؤال والتشهي وطلب الأشياء التي هي قسمه، ولا بد من تناولها والتوصل إليه بسؤاله، لتتحقق كرامته عند الله عزّ وجلّ ومنزلته، وامتنان الحق عزّ وجلّ عليه بإجابته إلى ذلك، والإطلاق بالسؤال في عطاء الحظوظ من أكثر علامات البسط بعد القبض، والإخراج من الأحوال والمقامات والتكليف[1] في حفظ الحدود.

---

(١) ـ المرضع اهـ مصححه.

(١) ـ زوال التكليف له معنيان:

الأول: هو انّ العبد لم يعد مطالباً بالأوامر والنواهي وهذا لا يحصل إلّا بالموت.

الثاني: هو أن لا يجد العبد كُلفة ومشقة في فعل الأوامر وترك النواهي لما يجد من لذة العبادة، وهذا مقام قرب من الله قال تعالى: في حق الصلاة ﴿وإنّها لكبيرة إلّا على الخاشعين﴾ اهـ مصححه.

Marfat.com

فإن قيل: هذا يدل على زوال التكليف، والقول بالزندقة، والخروج من الإسلام، ورد قوله عزّ وجلّ: ﴿واعبد ربك حتى يأتيك اليقين﴾.

[الحجر: ٩٩]

قيل: لا يدل على ذلك، ولا يؤدي إليه، بل الله أكرمُ، ووليُّه أعزُّ عليه من أن يدخله في مقام النقص والقبيح في شرعه ودينه، بل يعصمه من جميع ما ذكر، ويصرفه عنه، ويحفظه وينبهه، ويسدده لحفظ الحدود، فتحصل العصمة، وتتحفظ الحدود من غير تكليف منه ومشقة، وهو عن ذلك في غيبة في القرب. قال عزّ وجلّ: ﴿كذلك لنصرفَ عنه السوء والفحشاء إنّه من عبادنا المخلصين﴾ [يوسف: ٢٤] وقال عزّ وجلّ: ﴿إنّ عبادي ليس لك عليهم سلطان﴾ [الحجر: ٤٢] وقال تعالى: ﴿إلاّ عباد الله المخلصين﴾.

[الصافات: ٤٠]

يا مسكين هو محمول الرب وهو مراده، وهو يربيه في حجر قربه ولطفه، أنى يصل الشيطان إليه، وتتطرق القبائح والمكاره في الشرع نحوه؟ أبعدتَ النجعة وأعظمتَ الفرية وقلتَ قولاً فظيعاً، تباً لهذه الهمم الخسيسة الدنية، والعقول الناقصة البعيدة، والآراء الفاسدة المتخلخلة، أعاذنا الله والإخوان من الضلالة المختلفة، بقدرته الشاملة، ورحمته الواسعة، وسترنا بأستاره التامة المانعة الحامية، وربّانا بنعمه السابغة وفضائله الدائمة بمنه وكرمه تعالى شأنه.

Marfat.com

* * *

المقالة الثامنة والخمسون

في صرف النظر عن كل الجهات وطلب جهة فضل الله تعالى

قال رضي الله عنه وأرضاه:

تعامَ عن الجهات كلها ولا توصوص على شيء منها، فما دمت تنظر إلى واحدة منها لا تفتح لك جهةُ فضل الله عزّ وجلّ وقربه، فسُدَّ الجهاتَ جميعاً بتوحيده، وإمحاء نفسك ثم فنائك ومحوك وعلمك، فحينئذ تنفتح لعين قلبك جهةُ فضل الله العظيم، فتراها بعيني رأسك إذ ذاك بشعاع نور قلبك وإيمانك ويقينك، فيظهر عند ذلك النور من باطنك على ظاهرك، كنور الشمعة التي في البيت المظلم في الليلة الظلماء، يظهر من كوى البيت ومنافذه فيشرقُ ظاهرُ البيت بنور باطنه، فتسكن النفس والجوارح إلى وعد الله وعطائه عن عطاء غيره ووعد غيره عزّ وجلّ.

وارحم نفسك ولا تظلمها، ولا تلقها في ظلمات جهلك ورعونتك، فتنظر إلى الجهات وإلى الخلق والحَوْل والقوةَ والكسب والأسباب فتُوْكَلُ إليها، فتسُدُّ عنك الجهات، ولم تفتح لك جهة فضل الله عزّ وجلّ عقوبة ومقابلة لشركك بالنظر إلى غيره عزّ وجلّ، فإذا وجدته، ونظرت إلى فضله، ورجوته دون غيره، وتعاميت عمّا سواه = قربك وأدناك؛ ورحمك وربّاك، وأطعمك وسقاك؛ وداواك وعافاك؛ وأعطاك وأغناك، فلا ترى بعدَ ذلك لا فقرك ولا غناك.

* * *

Marfat.com

في الرضا على البلية، والشكر على النعمة

قال رضي الله عنه وارضاه:

لا تخلو حالتك إمّا أن تكون بلية أو نعمة:

فإن كانت بلية فتطالب فيها بالتصبر، وهو الأدنى، والصبر، وهو أعلى منه، ثم الرضا والموافقة، ثم الفناء، وهو للأبدال.

وإن كانت نعمة فتطالب فيها بالشكر عليها. والشكر باللسان والقلب والجوارح، أمّا باللسان فالاعتراف بالنعمة أنّها من الله عزّ وجلّ، وترك الإضافة إلى الخلق: لا إلى نفسك وحولك وقوتك وكسبك، ولا إلى غيرك من الذين جرت على أيديهم، لأنّك وإيّاهم أسباب وآلات وأداة لها، وإن قاسمها ومجريها وموجدها والشاغل فيها والمسبب لها هو الله عزّ وجلّ، والقاسم هو الله، والمجري هو، والموجد هو، فهو أحق بالشكر من غيره.

لا نظر إلى الغلام الجمال للهدية إنّما النظر إلى الأستاذ المنفذُ المنعمُ بها، قال الله تعالى في حق من عَدِمَ هذا النظر ﴿يعلمون ظاهراً من الحياة الدنيا وهم عن الآخرةِ هم غافلون﴾ [الروم: ٧] فمن نظر إلى الظاهر والسبب، ولم يجاوز علمَه ومعرفتَه فهو الجاهل الناقص قاصر العقل، إنّما سمي العاقل عاقلاً لنظره في العواقب.

وأمّا الشكر بالقلب، فبالاعتقاد الدائم، والعقد الوثيق الشديد المنبرم.

إنّ جميع ما بك من النعم والمنافع واللذات في الظاهر والباطن في حركاتك وسكناتك من الله عزّ وجلّ، لا من غيره، ويكون شكرك بلسانك

Marfat.com

معبراً عمّا في قلبك. وقد قال عزّ وجلّ: ﴿وما بكم من نعمةٍ فمن الله﴾ [النحل: ٥٣] وقال تعالى: ﴿وأسبغَ عليكم نعمه ظاهرةً وباطنة﴾ [لقمان: ٢٠] وقال تعالى: ﴿ وإن تعدوا نعمةَ الله لا تحصوها﴾ [النحل: ١٨] فمع هذا لا يبقى لمؤمن منعم سوى الله تعالى.

وامّا الشكر بالجوارح فبانّ تُحَرِّكَها وتستعملها في طاعة الله عزّ وجلّ دون غيره من الخلق، فلا تجيب أحداً من الخلق فيما فيه إعراض عن الله تعالى، وهذا يعم النفس والهوى والإرادة والأماني وسائر الخليقة، كجعل طاعة الله أصلاً ومتبوعاً وإماماً، وما سواها فرعاً وتابعاً ومأموناً، فإن فعلتَ غير ذلك كنت جائراً ظالماً حاكماً بغير حكم الله عزّ وجلّ الموضوع لعباده المؤمنين، وسالكاً غير سبيل الصالحين، قال الله عزّ وجلّ: ﴿ومن لم يحكمْ بما أنزلَ الله فأولئك هم الكافرون﴾ [المائدة: ٤٤] وفي آية أخرى ﴿ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الظالمون﴾ [المائدة: ٤٥] وفي أخرى ﴿هم الفاسقون﴾ [المائدة: ٤٧] فيكون انتهاؤك إلى النار التي وقودها الناس والحجارة، وأنت لا تصبر على حُمّى ساعة في الدنيا، وأقل بصة وشرارة من النار فيها، فكيف صبرك على الخلود في الهاوية مع أهلها. النجا النجا، والوحا الوحا، الله الله.

احفظ الحالتين وشروطهما، فإنّك لا تخلو في جميع عمرك من أحدهما: إمّا البلية، وإمّا النعمة، فأعط كل حالة حظها وحقها من الصبر والشكر على ما بينتُ لك. فلا تشكوَنَّ في حالة البلية إلى أحد من خلق الله، ولا تظهرَنَّ الضجر لأحد، ولا تتهمنَّ ربك في باطنك، ولا تشكن في حكمته، واختر الأصلح لك في دنياك وآخرتك، فلا تذهبن بهمتك إلى أحد من خلقه في معافاتك، فذاك إشراك منك به عزّ وجلّ، لا يملك معه عزّ وجلّ في ملكه أحدٌ شيئاً، لا ضار ولا نافع ولا دافع، ولا جالب ولا مسقم ولا مبلي، ولا معاف ولا مبرىء غيره عزّ وجلّ، فلا تشتغل بالخلق لا في الظاهر ولا في

Marfat.com

الباطن، فإنّهم لن يغنوا عنك من الله شيئاً، بل الزم الصبر والرضى والموافقة والفنـاء في فعله عزّ وجـلّ، فإن حرمت ذلك كله فعليك بالاستغاثة إليه عزّ وجلّ. والتضرع والتظلم من شؤم النفس، ونزاهة الحق عزّ وجلّ والاعتراف له بالتوحيد بالنعيم، والتـبري من الشرك، وطلب الصبر والرضا والموافقة، إلى حين يبلغ الكتـاب أجله، فتـزول البلية، وتنكشف الكـربـة، وتـأتي النعمة والسعـة والفـرحـة والسرور، كما كان في حق نبي الله أيوب عليه وعـلى نبينا أفضـل الصـلاة وأشرف السلام، كما يذهب سواد الليل ويأتي بياض النهار، ويذهب برد الشتاء ويأتي نسيم الصيف وطيبه، لأنّ كل شيء ضداً وخلافاً، وغاية وبدءاً ومنتهى، فالصبرُ مفتاحُه وابتداؤه وانتهاؤه وجماله كما جاء في الخبر «الصـبر من الإيمان كالرأس من الجسد»، وفي لفظ «الصبر الإيمان كله» وقد يكـون الشكر هو التلبس بالنعم وهي أقسامه المقسومة لك، فشكرك التلبس بها في حال فنـائك، وزوال الهوى والحمية والحفظ، هذه حالة الأبدال وهي المنتهى، اعتبر ما ذكرت لك ترشد إن شاء الله تعالى.

* * *

Marfat.com

في البداية والنهاية

قال رضي الله تعالى عنه وأرضاه:

البداية هي الخروج من المعهود إلى المشروع، ثم المقدور، ثم الرجوع إلى المعهود، ويشترط حفظ الحدود.

فتخرج من معهودك: من المأكول والمشروب والملبوس والمنكوح والمسكون والطبع والعادة إلى أمر الشرع ونهيه، فتتبع كتاب الله وسنّة رسوله ﷺ كما قال الله تعالى: ﴿وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا﴾ [الحشر: ٧] وقال تعالى: ﴿قل إنْ كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله﴾ [آل عمران: ٣١] فتفنى عن هواك ونفسك ورعونتها في ظاهرك وباطنك، فلا يكون في باطنك غير توحيدك له وفي ظاهرك غير طاعة الله وعبادته مما أمر ونهى، فيكون هذا دأبك وشعارُك ودثارك في حركتك وسكونك، في ليلك ونهارك، وسفرك وحضرك، وشدتك ورخائك، وصحتك وسقمك، وأحوالك كلها.

ثم تحمل إلى وادي القدر فينصرف فيك القدر، فتفنى عن جدك واجتهادك وحولك وقوتك، فتساق إليك أقسامك التي جفّ بها القلم، وسبق بها العلم، فتلبّس بها، وتعطى منها الحفظ والسلامة فتحفظ فيها الحدود ويحصل فيها الموافقة لفعل المولى، ولا تنخرق قاعدة الشرع إلى الزندقة وإباحة المحرم قال الله تعالى: ﴿إنّا نحن نزّلنا الذكر وإنّا له لحافظون﴾ [الحجر: ٩] وقال تعالى: ﴿كذلك لنصرفَ عنه السوء والفحشاء إنّه من عبادنا المخلصين﴾ [يوسف: ٢٤] فتصحب الحفظ والحمية، وإنّما هي أقسامك معدةً لك،

Marfat.com

فحبَسَها عنك في حال سيرك وطريقك وسلوكك فيافي الطبع ومفاوز الهوى المعهود، لأنّها أثقال أحمال ما زيحت عنك؛ لئلا يثقلك فتضعفك إلى حين الوصول إلى عتبة الفناء، وهو الوصول إلى قرب الحق عزّ وجلّ والمعرفة به، والاختصاص بالأسرار والعلوم الدينية، والدخول في بحار الأنوار، حيث لا تضر ظلمةُ الطبائع الأنوارَ، فالطبع باق إلى أن تفارق الروح الجسد لاستيفاء الأقسام، إذ لو زال الطبع من الآدمي لالتحق بالملائكة وبطلت الحكمة، فبقي الطبع يستوفي الأقسام والحظوظ، فيكون ذلك وظائفاً لا أصلياً كما قال النبي ﷺ: «حبب إليّ من دنياكم ثلاث: الطيب والنساء وجعلت قرة عيني في الصلاة» فلما فني النبي ﷺ عن الدنيا وما فيها ردت إليه أقسامه المحبوسة عنه في حال سيره إلى ربّه عزّ وجلّ، فاستوفاها موافقة لربه تعالى والرضا بفعله ممتثلاً لأمره، فقدست أسماؤه وعمت رحمته. شمل فضله لأوليائه وأنبيائه عليهم الصلاة والسلام، فهكذا الولي في هذا الباب ترد إليه أقسامه وحظوظه مع حفظ الحدود، فهو الرجوع من النهاية إلى البداية، والله أعلم.

* * *

في التوقف عند كل شيء حتى يتبين له إباحة فعله

قال رضي الله عنه وأرضاه:

كل مؤمن مكلّف بالتوقف والتفتيش عند حضور الأقسام عن التناول والأخذ، حتى يشهد له الحكم بالإجابة، والعلم بالقسمة، والمؤمن فتّاش، والمنافق لقاف. وقال ﷺ: «المؤمن وقّاف» وقال ﷺ: «دع ما يريبك إلى ما لا يريبك» فالمؤمن يقف عند كل قسم من مأكول ومشروب وملبوس ومنكوح وسائر الأشياء التي تفتح له، فلا يأخذ حتى يُحْكَمَ له بجواز الأخذ والتناول، كحكمه إذا كان في حالة التقوى. أو حتى يحكم له بذلك الأمر إذا كان في حالة الولاية، أو حتى يحكم بحكم العلم في حالة البدلية والغوثية، والفعل الذي هو القدر المحض، وهي حالة الفناء، ثم تأتيه حالة أخرى تتناول كل ما يأتيه، ويفتح له ما لم يعترض عليه الحكم والأمر والعلم، فإذا اعترض أحد هذه الأشياء امتنع من التناول، فهي ضد الأولى.

ففي الأولى الغالب عليه التوقف والتثبت، وفي الثانية الغالب عليه التناول والأخذ والتلبس بالمفتوح، ثم تأتي الحالة الثالثة.

فالتناول المحض، والتلبس بما يفتح من النعم من غير اعتراض أحدٌ الأشياء الثلاثة وهي حقيقة الفناء، فيكون المؤمن فيها محفوظاً من الآفات وخرق حدود الشرع، مصاناً مصروفاً عنه الأسواء، كما قال الله تعالى: ﴿كذلك لنصرف عنه السوء والفحشاء إنّه من عبادنا المخلَصين﴾ [يوسف: ٢٤] فيصير العبد مع الحفظ عن خرق الحدود كالمفوّض إليه، المأذون له،

Marfat.com

والمطلق له في الإباحات، الميسر له الخير، ما يأتيه قسمه المصفّى له من الآفات والتبعات في الدنيا والآخرة، والموافق لإرادة الحق ورضاه وفعله ولا حالة فوقها وهي الغاية، وهي للسادة الأولياء الكبار الخلص أصحاب الأسرار، الذين أشرفوا على عتبة أحوال الأنبياء صلوات الله عليهم أجمعين.

Marfat.com

في المحبة والمحبوب وما يجب في حقهما

قال رضي الله عنه وأرضاه:

ما أكثر ما يقول المؤمن قُرّب فلان وبُعّدت، وأُعطي فلان وحُرمت، وأُغني فلان وأُفقرت، وعوفي فلان وأُسقمت، وعُظّم فلان وحُقّرت، وحُمِدَ فلان وذُمت؛ وصُدِّق فلان وكُذّبت. أما يعلم أنّه الواحد، وأنّ الواحد يحب الوحدانية في المحبة، ويحب الواحد في محبته.

إذا قربك بطريق غيره نقصت محبتك له عزّ وجلّ وشعبت، فربما دخلك الميل إلى من ظهرت المواصلة والنعمة على يديه، فتنقص محبة الله في قلبك، وهو عزّ وجلّ غيور، لا يحب شريكاً، فكف أيدي الغير عنك بالمواصلة، ولسانه عن حمدك وثنائك، ورجليه عن السعي إليك، كيلا تشتغل به عنه، أما سمعت قول النبي ﷺ: «جبلت القلوب على حب من أحسن إليها» فهو عزّ وجلّ يكف الخلق عن الإحسان إليك من كل وجه وسبب، حتى توحده وتحبه، وتصير له من كل وجه بظاهرك وباطنك في حركاتك وسكناتك، فلا ترى الخير إلّا منه، ولا الشر إلّا منه عزّ وجلّ. وتفنى عن الخلق وعن النفس، وعن الهوى والإرادة والمنى، وعن جميع ما سوى المولى، ثم يطلق الأيدي إليك بالبسط والبذل والعطاء، والألسن بالحمد والثناء فيدللك أبداً في الدنيا ثم في العقبى، فلا تسىء الأدب، انظر إلى من ينظر إليك، وأقبل على من أقبل إليك، واحب من يحبك، واستجب إلى من يدعوك، وأعطِ يدك من يثبتك من سقطك ويخرجك من ظلمات جهلك، وينجيك من هلكك، ويغسلك من

Marfat.com

أنجاسك، وينظّفك من أوساخك، ويخلصك من جيفك ونتنك، ومن أوهامك الردية، ومن نفسك الأمارة بالسوء، وأقرانك الضُّلال المضلين شياطينك، وأخلائك الجهّال قطّاع طريق الحق الحائلين بينك وبين كل نفيس وثمين وعزيز.

إلى متى المعاد، إلى متى الخلف، إلى متى الهوى، إلى متى الرعونة، إلى متى الدنيا، إلى متى الآخرة، إلى متى سوى المولى؟ أين أنت من خالقك والأشياء، المكون الأوّل الآخر الظاهر الباطن، والمرجع والمصدر إليه، وله القلوب، وطمأنينة الأرواح، ومحط الأثقال، والعطاء والامتنان، عزّ شأنه.

* * *

المقالة الثالثة والستون

في نوع من المعرفة

قال رضي الله تعالى عنه وأرضاه:

رأيت في المنام كأني أقول ما مشرك بربه: في باطنه بنفسه، وفي ظاهره بخلقه، وفي عمله بإرادته، فقال رجل إلى جنبي ما هذا الكلام؟ فقلت: هذا نوع من المعرفة.

* * *

المقالة الرابعة والستون

في الموت الذي لا حياة فيه، والحياة التي لا موت فيها

قال رضي الله عنه وأرضاه:

ضاق بي الأمـر يوماً فتحرك في النفس، فقيل لي: ماذا تريد؟ فقلت: أريد موتاً لا حياة فيه، وحياة لا موت فيها؟ فقيل لي: ما الموت الذي لا حياة فيه وما الحياة التي لا موت فيها؟ قلت:

المـوت الـذي لا حياة فيه موتي عن جنسي من الخلق، فلا أراهم في الضر والنفع، وموتي عن نفسي وهواي وإرادتي ومناي في الدنيا والأخرى، فلا أحس في جميع ذلك ولا أجد.

وأمّـا الحياة التي لا موت فيها: فحياتي بفعل ربّي عزّ وجلّ بلا وجودي فيه، والموت في ذلك وجودي معه عزّ وجلّ، فكانت هذه الإرادة أنفس إرادة أردتها منذ عقلت.

* * *

Marfat.com

في النهي عن التسخط على الله في تأخير إجابة الدعاء

قال رضي الله عنه وأرضاه:

ما هذا التسخط على ربك عزّ وجلّ من تأخير إجابة الدعاء؟ تقول حرّم علي السؤال للخلق وأوجب علي السؤال، وأنا أدعوه وهو لا يجيبني؟ فيقال لك: أحرٌ أنت أم عبد، فإن قلت: أنا حر فأنت كافر، وإن قلتَ: إنا عبد لله، فيقال لك: أمُتَّهمٌ أنت لوليك في تأخير إجابة دعائك وشاكٌّ في حكمته ورحمته بك وبجميع خلقه، وعلمه بأحوالهم، أو غير متهم له عزّ وجلّ؟ فإن كنتَ غير متهم له، ومقر بحكمته، وإرادة مصلحته لك، وتأخير ذلك، فعليك بالشكر له عزّ وجلّ، لأنّه اختار لك الأصلح والنعمة ودفع الفساد، وإن كنت متهماً له في ذلك فأنت كافر بتهمتك له، لأنّك بذلك نسبت له الظلم، وهو ليس بظلّام للعبيد، لا يقبل الظلم، ويستحيل عليه أن يظلم، إذ هو مالكك، ومالك كل شيء، فلا يطلق عليه اسم الظلم، وإنّما الظالم من يتصرف في ملك غيره بغير إذنه، فانسد عليك سبيل التسخط عليه في فعله فيك بما يخالف طبعك وشهوة نفسك، وإن كان في الظاهر مفسدة لك.

فعليك بالشكر والصبر والموافقة، وترك التسخط والتهمة والقيامة مع رعونة النفس وهواها الذي يضل عن سبيل الله.

وعليك بدوام الدعاء وصدق الالتجاء، وحسن الظن بربك عزّ وجلّ، وانتظار الفرج منه، والتصديق بوعده، والحياء منه، والموافقة لأمره، وحفظ توحيده، والمسارعة إلى أداء أوامره، والتماوت عند نزول قدره بك وبفعله

Marfat.com

فيك، وإن كان لا بد أن تتهم وتسيء الظن فنفسك الأمّارة بالسوء، العاصية 13
لربها عزّ وجلّ أولى بها، ونسبتك الظلم إليها أحرى من مولاك. فاحذر موافقتها وموالاتها، والرضى بفعلها وكلامها في الأحوال كلها، لأنّها عدوة الله وعدوتك، وموالية لعدو الله وعدوك الشيطان الرجيم، هي خليلته وجاسوسته ومصافيته، الله الله ثم الحذر الحذر، النجا النجا، اتهمها وانسب الظلم إليها واقرأ عليها قوله عزّ وجلّ: ﴿ما يفعل الله بعذابكم إن شكرتم وآمنتم﴾ [النساء: ١٤٧] وقوله عزّ وجلّ: ﴿إنّ الله لا يظلم الناس شيئاً ولكن الناس أنفسهم يظلمون﴾ [يونس: ٤٤] وغيرها من الآيات والأخبار.

كن مخاصماً لله على نفسك مجادلاً لها عنه عزّ وجلّ، ومحارباً وسيافاً وصاحب جنده وعسكره، فإنّها أعدى عدو لله عزّ وجلّ، قال الله تعالى: ﴿يا داود أهجر هواك فإنّه لا منازع ينازعني في ملكي غير الهوى﴾

* * *

في الأمر بالدعاء، والنهي عن تركه

قال رضي الله عنه وأرضاه:

لا تقل لا أدعو الله، فإن كان ما أساله مقسوماً فسيأتي إن سألته أم لم أسأله، وإن كان غير مقسوم فلا يعطيني بسؤال، بل اسأله عزّ وجلّ جميعَ ما تريد وتحتاج إليه من خيري الدنيا والآخرة ما لم يكن فيه محرّم ومفسدة، لأنّ الله تعالى أمر بالسؤال له وحثّ عليه: قال تعالى: ﴿ادعوني أستجيب لكم﴾ [غافر: ٦٠] وقال عزّ وجلّ: ﴿واسئلوا الله من فضله﴾ [النساء: ٣٢] ﴿ولا تتمنّوا مافضل الله به بعضكم على بعض﴾ [النساء: ٣٢] قال النبي ﷺ: «اسألوا الله وأنتم موقنون بالإجابة» وقال ﷺ: «اسألوا الله ببطون أكفكم» وغير ذلك من الأخبار، ولا تقل: إنّي أسأله فلا يعطيني فإذاً لا أسأله، بل دم على دعائه، فإن كان ذلك مقسوماً ساقه إليك بعد أن تسأله، فيزيد ذلك إيماناً ويقيناً وتوحيداً، وترك سؤال الخلق والرجوع إليه في جميع أحوالك، وإنزال حوائجك به عزّ وجلّ، وإن لم يكن مقسوماً لك أعطاك الغناء عنه والرضاء عنه عزّ وجلّ بالقصص، فإن كان فقراً أو مرضاً أرضاك بهما، وإن كان ديناً قلب الدائن من سوء المطالبة إلى الرفق والتأخر والتسهيل إلى حين ميسرتك، أو إسقاطه عنك، أو نقصه، فإن لم يسقط ولم يترك منه في الدنيا أعطاك عزّ وجلّ ثواباً جزيلاً ما لم يعطك بسؤلك في الدنيا، لأنّه كريم غني رحيم، فلا يخيّبُ سائله في الدنيا والآخرة، فلا بد من فائدة ونائلة، إمّا عاجلاً وإمّا آجلاً، فقد جاء في الحديث: «المؤمن يرى [في] صحيفته يومَ

القيامة حسنات لم يعملها ولم يدر بها، فيقال له: أتعرفها؟ فيقول: ما أعرفها، من أي لي هذه؟ فيقال له: إنّها بدل مسألتك التي سألتها في دار الدنيا» وذلك أنّـه بسؤال الله عزّ وجـلّ يكون ذاكراً لله وموحّداً وواضع الشيء في موضعه، ومعـطي الحقّ اهله، ومتبرئاً من حوله وقوته، وتاركاً التكبر والتعظم والأنفة، وجميع ذلك أعمال صالحة ثوابها عند الله عزّ وجلّ.

* * *

Marfat.com

المقالة السابعة والستون

في جهاد النفس وتفصيل كيفيته

قال رضى الله عنه وأرضاه:

كلّما جاهدتَ نفسك وغلبتَها وقتلتَها بسيف المخالفة أحياها الله، [فإن تركت جهادها] نازعتك، وطلبت منك الشهوات واللذات الجناح منها والمباح لتعود إلى المجاهدة والمسابقة ليكتب لك ثواباً دائماً، وهو معنى قول النبى ﷺ: «رجعنا من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر» أراد مجاهدة النفس لدوامها واستمرارها على الشهوات واللذات، وانهماكها في المعاصي، وهو معنى قوله عزّ وجلّ: ﴿واعبد ربك حتى يأتيك اليقين﴾ [الحجر: ٩٩] أمر الله عزّ وجلّ نبيّه ﷺ: بالعبادة، وهي مخالفة النفس، لأنّ العبادة كلها تأباها النفس وترِد ضدها، إلى أن يأتيه اليقين: يعني الموت.

فإن قيل: كيف تأبى نفسُ رسول الله ﷺ العبادة وهو عليه الصلاة والسلام لا هوى له: ﴿وما ينطق عن الهوى إن هو إلاّ وحي يوحى﴾ [النجم: ٣].

فيقال: إنّه عزّ وجلّ خاطب نبيه ﷺ ليتقرر به الشرع، فيكون عاماً بين أمته إلى أن تقوم الساعة، ثم إنّ الله عزّ وجلّ أعطى نبيه عليه الصلاة والسلام القوة على النفس والهوى، كيلا يضراه ويحوجاه إلى المجاهدة بخلاف أمته، فإذا دام المؤمن على هذه المجاهدة إلى أن يأتيه الموت ويلحق بربه عزّ وجلّ بسيف مسلول مطلخ بدم النفس والهوى أعطاه ما ضمن له من الجنة، لقوله عزّ وجلّ: ﴿وأمّا من خافَ مقامَ ربّه، ونهى النفسَ عن الهوى * فإنّ الجنّة هي المأوى﴾ [النازعات: ٤١ ـ ٤٢] فإذا أدخله الجنّة وجعلها داره ومقره ومصيره

Marfat.com

أمنَ من التحويل عنها والانتقال إلى غيرها والعود إلى دار الدنيا جدد له كل يوم وكل ساعة من أنواع النعيم، وتغير عليه أنواع الحال والحلي إلى ما لا نهاية له ولا غاية ولا نفـاذ، كما جدد هو في الـدنيا كل يوم وكل ساعة ولحظة مجاهدة النفس والهوى.

وأمّـا الكافر والمنافق والعاصي لما تركوا مجاهدة النفس والهوى في الدنيا وتـابعـوهـا، ووافقوا الشيطان ترغما في أنواع المعاصي من الكفر والشرك وما دونها حتى أتـاهم المـوت من غير الإسـلام والتـوبة، أدخلهم الله النار التي أُعدت للكافرين في قوله عزّ وجلّ: ﴿واتّقوا النار التي أعدت للكافرين﴾ [آل عمران: ١٣١] فإذا أدخلهم بها، وجعلها مقرهم ومصيرهم وأمهم، فاحرقت جلودهم ولحومهم، جَدَّدَ لهم عزّ وجلّ جلوداً ولحوماً، كما قال عزّ وجلّ: ﴿كلّما نضجتْ جلودُهم بدلناهم جلوداً غيرها﴾ [النساء: ٥٦] يفعل عزّ وجلّ بهم ذلك كما وافقوا أنفسهم وأهواءهم في الدنيا في معاصيه عزّ وجلّ، فأهل النار تجدد لهم كل وقت جلود ولحـوم لإيصال العذاب والآلام إليهم، وأهل الجنّة يجدد لهم كل وقت نعيم لتتضـاعف الشهوات واللذات لديهم. وسببُ ذلك مجاهدة النفس وعدم موافقتها في دار الدنيا وهذا معنى قول النبي ﷺ: «الدنيا مزرعة الآخرة».

Marfat.com

* * *

في قوله تعالى: ﴿كل يوم هو في شأن﴾

قال رضي الله عنه وأرضاه:

إذا أجاب الله عبداً ما سأله، وأعطاه ما طلبه ـ لم تنخرم إرادته، ولا ما جفّ به القلم وسبق به العلم، لكنه يوافق سؤاله مراد ربه عزّ وجلّ في وقته، فتحصل الإجابة وقضاء الحاجة في الوقت المقدر الذي قدره له في السابقة لبلوغ القدر وقته كما قال أهل العلم في قوله عزّ وجلّ: ﴿كل يوم هو في شأن﴾ [الرحمن: ٢٩]: أي يسوق المقادير إلى المواقيت، فلا يعطي الله أحداً شيئاً في الدنيا بمجرد دعائه، وكذلك لا يصرف عنه شيئاً بدعائه المجرد.

والذي ورد في الحديث: «لا يرد القضاء إلاّ الدعاء» قيل: إنّ المراد به لا يرد القضاء إلاّ الدعاء الذي قضى أن يرد قضاءه، وكذلك لا يدخل أحد الجنّة في الآخرة بعمله، بل برحمة الله عزّ وجلّ، لكنه يعطي العباد في الجنّة الدرجات على قدر أعمالهم.

وقد ورد في حديث عائشة رضي الله عنها: أنّها سألت النبي ﷺ: هل يدخل أحد الجنة بعمله؟ فقال: «إلاّ برحمة الله» فقالت: ولا أنت؟ فقال: «ولا أنا إلاّ أن يتغمدني الله برحمته» ووضع يده على هامته. وذلك لأنّ الله عزّ وجلّ لا يجب عليه لأحدٍ حقٌّ، ولا يلزمه الوفاء بالعهد، بل يفعل ما يريد، يعذب من يشاء، ويغفر لمن يشاء، ويرحم من يشاء، فعال لما يريد، ولا يسأل عمّا يفعل وهم يسئلون، يرزق من يشاء بغير حساب بفضل رحمته ومنته، ويمنع من شاء بعدله. وكيف لا يكون كذلك، والخلق من لدن العرش إلى

Marfat.com

الثرى التي هي الأرض السابعة السفلى ملكه وصنعه، لا مالك لهم غيره ولا صانع لهم غيره، قال عزّ وجلّ: ﴿هل من خالق غيرُ الله﴾ [فاطر: ٣] وقال تعالى: ﴿أءلـه مع الله﴾ [النمل: ٦٣] وقال تعالى: ﴿هل تعلم له سمياً﴾ [مريم: ٦٥] وقال تعالى: ﴿قل اللهم مالك الملك تؤتي الملكَ من تشاء، وتنزعُ الملكَ ممن تشاء، وتعزّ من تشاء، وتذل من تشاء، بيدك الخير، إنّك على كل شيء قدير * تولجُ الليلَ في النهار وتولج النهارَ في الليل، وتخرج الحي من الميت، وتخرج الميت من الحي، وترزق من تشاء بغير حساب﴾ [آل عمران: ٢٦ - ٢٧].

*

Marfat.com

المقالة التاسعة والستون

في الأمر بطلب المغفرة والعصمة والتوفيق والرضا والصبر من الله تعالى

قال رضي الله عنه وأرضاه:

لا تطلبن من الله شيئاً سوى المغفرة للذنوب السابقة، والعصمة منها في الأيّام الآتية اللاحقة، والتوفيق لحسن الطاعة، وامتثال الأمر والرضا بمُرِّ القضاء، والصبر على شدائد البلاء، والشكر على جزيل النعماء والعطاء، ثم الوفاة بخاتمة الخير، واللحوق بالأنبياء والصديقين والشهداء والصالحين، وحسن أولئك رفيقاً.

ولا تطلب منه الدنيا، ولا كشف الفقر والبلاء إلى الغناء والعافية، بل الرضا بما قسم ودبّر، واسأله الحفظ الدائم على ما أقامك فيه، وأحلك وابتلاك، إلى أن ينقلك منه إلى غيره وضده، لأنّك لا تعلم الخير في أيّهما، في الفقر أو في الغناء، في البلاء أو في العافية، طوى عنك علمَ الأشياء، وتفرّد هو عزّ وجلّ بمصالحها ومفاسدها.

وقد ورد عن عمر بن الخطّاب رضي الله عنه: لا أبالي على أي حالٍ أُصبح، على ما أكره أو على ما أحب، لأني لا أدري الخيرَ في أيهما. قال ذلك لحُسْن رضاه بتدبير الله عزّ وجلّ، والطمأنينة على اختياره وقضائه. قال الله تعالى: ﴿كُتب عليكم القتال وهو كره لكم، وعسى أن تكرهوا شيئاً وهو خير لكم، وعسى أن تحبوا شيئاً وهو شر لكم، والله يعلم وأنتم لا تعلمون﴾ [البقرة: ٢١٦].

كن على هذا الحـال إلى أن يزول هواك، وتنكسر نفسُك فتكون ذليلة مغلوبة تابعة، ثم تزول إرادتك وأمانيك، وتخرج الأكوان من قلبك، ولا يبقى في قلبـك شيء سوى الله تعـالى، فيمتـلىء قلبـك بحب الله تعالى، وتصدُق إرادتـك في طلبـه عزّ وجلّ، فيرد إليك الإرادة بأمره بطلب حظ من الحظوظ دنيوية واخروية، فحينئذ تسأله عزّ وجلّ بذلك وتطلبه ممتثلاً لأمره، إن أعطاك شكرته وتلبست به، وإن منعك لم تتسخط عليه ولم تتغير عليه في باطنك ولا تتهمه في ذلك ببخل، لأنّك لم تكن طلبته بهواك وإرادتك، لأنك فارغ القلب عن ذلك، غير مريد له، بل ممتثلاً لأمره بالسؤال والسلام.

* * *

Marfat.com

في الشكر والاعتراف بالتقصير

قال رضي الله عنه وارضاه:

كيف يحسُنُ منك العجب في أعمالك، ورؤية نفسك فيها، وطلب الأعواض عليها، وجميع ذلك بتوفيق الله تعالى وعونه وقوته وإرادته وفضله، وإن كان ترك معصيته فبعصمته وحفظه وحميته.

أين أنت من الشكر على ذلك، والاعتراف بهذه النعم التي أولاكها، ما هذه الرعونة والجهل، تعجب بشجاعة غيرك وسخائه وبذل ماله، إذا لم تكن قاتلاً لعدوك إلاّ بعد معاونة شجاع ضرب في عدوك، ثم تممت قتله، لولاه كنت مصروعاً مكانه وبدله، ولا باذلاً لبعض مالك إلاّ بعد ضمان صادق كريم أمين ضمن لك عوضه وخلفه، لولا قوله وطمعك فيما وعد لك، وضمن لك ما بذلت حبة منه، كيف تعجبك بمجرد فعلك.

أحسن حالك الشكر والثناء على المعين والحمد لله الدائم وإضافة ذلك إليه في الأحوال كلها إلاّ الشر والمعاصي واللوم، فإنّك تضيفها إلى نفسك، وتنسبها إلى الظلم وسوء الأدب وتتهمها به، فهي أحق بذلك، لأنّها ماوى لكل شر، وأمّارة بكل سوء وداهية، وإن كان هو عزّ وجلّ خالقك وخالق أفعالك مع كسبك، أنت الكاسب وهو الخالق، كما قال بعض العلماء بالله عزّ وجلّ: تجيء ولا بد منك، وقوله ﷺ: «اعملوا وقاربوا وسددوا فكلٌّ ميسّرٌ لما خُلِقَ له»..

* * *

Marfat.com

في المريد والمراد

قال رضي الله عنه وارضاه:

لا يخلو إمّا ان تكون مريداً او مراداً.

فإن كنت مريداً فأنت محمل وحمّال يحمل كل شديد وثقيل، لأنّك طالب، والطالب مشقوق عليه حتى يصل إلى مطلوبه، ويظفر بمحبوبه، ويدرك مرامه، ولا ينبغي لك أن تنفر من بلاء ينزل بك في النفس والمال والأهل والولد، إلى أن تحط عنك الأعمال، وتزال عنك الأثقال، وترفع عنك الآلام، ويُزال عنك الأذى والإذلال، فتصان عن جميع الرذائل والأدران والأوساخ والمهانات والافتقار إلى الخليقة والبريات، فتدخل في زمرة المحبوبين المدلين المرادين.

وإن كنت مراداً فلا تتهمنّ الحق عزّ وجلّ في إنزال البلية بك أيضاً، ولا تشكنّ في منزلتك وقدرك عنده عزّ وجلّ، لأنّه قد يبتليك ليبلغك مبلغ الرجال، ويرفع منزلتك إلى منازل الأولياء والأبدال.

اتحب ما يحط منزلتك عن منازلهم، ودرجاتك عن درجاتهم، وأن تكون خلْعَتُك وأنوارُك ونعيمُك دون مالهم، فإن رضيتَ أنت بالدون فالحق عزّ وجلّ لا يرضى لك بذلك، قال الله تعالى: ﴿والله يعلمُ وأنتم لا تعلمون﴾ [البقرة: ٢١٦] يختار لك الأعلى والأسنى والأرفع والأصلح وأنت تابى.

فإن قلت: كيف يصلح ابتلاء المراد مع هذا النعيم. والبيان [كذا] مع ان الابتلاء إنّما هو للمحب، والمدلل إنّما هو المحبوب.

Marfat.com

يقال لك ذكرنا الأغلب أولاً، وسمرنا بالنادر الممكن ثانياً.

لا خلاف أنّ النبي ﷺ كان سيد المحبوبين، وكان أشد الناس بلاء، وقد قال ﷺ: «لقد خفت في الله ما لا يخافه أحد، ولقد أوذيت في الله ما لم يؤذه أحد، ولقد أتى عليّ ثلاثون يوماً وليلة وما لنا طعام إلّا شيء يواريه إبط بلال».

وقد قال ﷺ: «إنّا معاشر الأنبياء أشد الناس بلاء ثم الأمثل فالأمثل».

وقال ﷺ: «أنا أعرفكم بالله وأشدكم منه خوفاً».

فكيف يبتلي المحبوبَ ويخوّف المدلل المراد، ولم يكن ذلك إلّا بما أشرنا إليه من بلوغ المنازل العالية في الجنّة، لأنّ المنازل في الجنّة لا تشيّد ولا ترفع بالأعمال في الدنيا.

الدنيا مزرعة الآخرة، وأعمال الأنبياء والأولياء بعد أداء الأوامر وانتهاء النواهي الصبر والرضا والموافقة في حالة البلاء، يكشف عنهم البلاء، ويواصلون بالنعيم والفضل والدلال واللقاء أبد الآباد، والله أعلم.

* * *

Marfat.com

فيمن إذا دخل الأسواق ومال إلى ما فيها ومن إذا دخلها وصبر

قال رضي الله تعالى عنه وأرضاه:

الذين يدخلون الأسواق من أهل الدين والنسك في خروجهم إلى أداء ما أمر الله تعالى من صلاة الجمعة والجماعة وقضاء حوائج تسنح لهم على أضرب:

منهم مَنْ إذا دخل السوق ورأى فيه من أنواع الشهوات واللذات تقيّد بهما وعلقت بقلبه فتن، وكان ذلك سبب هلاكه وتركه دينه ونسكه ورجوعه إلى موافقة طبعه واتباع هواه، إلّا أن يتداركه الله عزّ وجلّ برحمته وعصمته وإصباره إيّاه عنها فيسلم.

ومنهم مَنْ إذا رأى ذلك كاد أن يهلك بها رجع إلى عقله ودينه وتصبّر وتجرّع مرارة تركها، فهو كالمجاهد ينصره الله تعالى على نفسه وطبعه وهواه، ويكتب له الثواب الجزيل في الآخرة.

كما جاء في بعض الأخبار عن النبي ﷺ أنّه قال: «يكتب للمؤمنين بترك شهوة عند العجز عنها أو عند المقدرة سبعون حسنة» أو كما قال.

ومنهم من يتناوله ويتلبس بها ويحصلها بفضل الله عزّ وجلّ التي عنده من سعة الدنيا والمال، ويشكر الله عزّ وجلّ عليها.

ومنهم من لا يراها ولا يشعر بها، فهو أعمى عمّا سوى الله عزّ وجلّ، فلا يرى غيره، وأصم عمّا سواه فلا يسمع من غيره، عنده شغل عن النظر إلى

Marfat.com

غير محبوبه واشتهائه، فهو في معزل عمّا العالم فيه فإذا رأيته وقد دخل السوق فسألته عمّا رأى في السوق يقول: ما رأيت شيئاً، نعم قد رأى الأشياء لكن قد رآها ببصر رأسه لا ببصر قلبه، ونظر فجاءة لا نظر شهوة، نظر صورة لا نظر معنى، نظر الظاهر لا نظر الباطن، فبظاهره ينظر إلى ما في السوق وبقلبه ينظر إلى ربه عزّ وجلّ، إلى جلاله تارة وإلى جماله تارة أخرى.

ومنهم من إذا دخل السوق امتلأ قلبه بالله عزّ وجلّ رحمة لهم، فتشغله الرحمة لهم عن النظر إلى ما لهم وبين أيديهم، فهو من حين دخوله إلى حين خروجه في الدعاء والاستغفار والشفاعة لأهله والشفقة والرحمة عليهم ولهم، وعينه مغزورة، ولسانه في ثناء وحمد لله عزّ وجلّ بما أولى الكافةَ من نعمه وفضله، فهذا يسمّى شحنة البلاد والعباد، وإن شئتَ سميته عارفاً وبدلاً وزاهداً وعالماً غوثاً وبدلاً محبوباً مراداً ونائباً في الأرض على عباده، وسفيراً وجهبذاً ونفاذاً وهادياً ومهدياً ودالاً ومرشداً فهذا هو الكبريت الأحمر وبيضة العقعق، رضوان الله عليه وعلى كل مؤمن مريد لله وصل إلى انتهاء المقام، والله الهادي.

* * *

Marfat.com

المقالة الثالثة والسبعون

في قسم من الأولياء قد يطلعه الله على عيوب غيرهم

قال رضى الله عنه وأرضاه:

قد يطلعُ الله تعالى وليه على عيوب غيره وكذبه ودعوته وشركه في أفعاله وأقواله وإضماره ونيته، فيغار ولي الله لربه ولرسوله ودينه، فيشتد غضب باطنه ثم ظاهره حاضراً وغائباً، كيف يدعى السلامة مع العلل والأوجاع الباطنة والظاهرة؟ وكيف يدعي التوحيد مع الشرك، والشرك كفر وبعد عن قرب الله، وهو صفة العدو والشيطان اللعين والمنافقين المقطوع لهم بالدرك الأسفل من النار والخلود فيها فيجري على لسان الولي ذكر عيوبه وأفعاله الخبيئة، ووقاحته بعريض دعاويه أحوال الصديقين ومزاحمته للفانين في قدر الله وفعله، والمراد من على وجه الغيرة لله عزّ وجلّ، مرة على وجه الإنكار له والموعظة له أخرى، وعلى وجه الغلبة بفعل الله عزّ وجلّ وإرادته وشدة غضبه على الكذب أخرى، فيضاف إلى الله عزّ وجلّ غيبة، فيقال: أيغتاب الولي وهو يمنع منها أو يذكر الغائب والحاضر بما يظهر عند الخواص والعوام؟ فيصير ذلك الإنكار في حقهم كما قال الله عزّ وجلّ: ﴿وإثمهما أكبر من نفعهما﴾ [البقرة: ٢١٩] في الظاهر إنكار المنكر، وفي الباطن إسخاط الرب، والاعتراض عليه، فيصير حاله [في] الخيرة، فيكون فرضه فيها السكوت والتسليم، وطلب المساعي لذلك في الشرع، والجواز لا الاعتراض على الرب والولي يطعنان لافترائه وكذبه، وقد يكون ذلك سبباً لإقلاعه وتوبته ورجوعه عن جهله وحيرته، فيكون كرها للولي نفعاً للمغرور الهالك بغروره ورعونته. ﴿والله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم﴾ [النور: ٤٦].

* * *

Marfat.com

فيما ينبغي للعاقل أن يستدل به على وحدانية الله تعالى

قال رضي الله عنه وأرضاه:

أول ما ينظر العاقل في صفة نفسه وتركيبه، ثم في جميع المخلوقات والمبدعات، فيستدل بذلك على خالقها ومبدعها، لأنّ فيه دلالة على الصانع، وفي القدرة المحكمة آية على الحكيم، فإنّ الأشياء كلها موجودة به.

وفي معناه ما ذكر عن ابن عباس رضي الله عنهما في تفسير قوله تعالى: ﴿وسخّر لكم ما في السموات وما في الأرض جميعاً منه﴾ [الجاثية: ٢٣] فقال: في كل شيء اسم من أسمائه، واسم كل شيء من اسمه، فإنّما أنت بين أسمائه وصفاته وأفعاله، باطن بقدرته وظاهر بحكمته، ظهر بصفاته، وبطن بذاته، حجب الذات بالصفات، وحجب الصفات بالأفعال، وكشف العلم بالإرادة، وأظهر الإرادة بالحركات، وأخفى الصنع والصنيعة، وأظهر الصنعة بالإرادة، فهو باطن في غيبه، وظاهر في حكمته وقدرته ﴿ليس كمثله شيء وهو السميع البصير﴾ [الشورى: ١١].

ولقد أظهر في هذا الكلام من أسرار المعرفة مالا يظهر إلّا من مشكاة فيها مصباح، أمره برفع يد العصمة، اللهم فقهه في الدين وعلمه التأويل، أنالنا الله تعالى بركاتهم، وحشرنا في زمرتهم وحُرْمَتِهم آمين.

* * *

المقالة الخامسة والسبعون

في التصوف وعلى أي شيء مبناه

قال رضي الله تعالى عنه وأرضاه:

أوصيك بتقوى الله وطاعته، ولزوم ظاهر الشرع وسلامة الصدر، وسخاء النفس، وبشاشة الوجه، وبذل الندى، وكف الأذى، وتحمل الأذى والفقر، وحفظ حرمات المشايخ والعشرة مع الإخوان، والنصيحة للأصاغر والأكابر، وترك الخصومة وحمل الأذى، والإرفاق، وملازمة الإيثار، ومجانبة الادخار، وترك صحبة من ليس من طبقتهم، والمعاونة في أمر الدين والدنيا، وحقيقة الفقر أن لا تفتقر على من هو مثلك، وحقيقة الغنى أن تستغني عمن هو مثلك.

والتصوف ليس أخذاً عن القيل والقال، ولكن أخذ عن الجوع، وقطع المألوفات والمستحسنات، ولا تبدأ الفقيرَ بالعلم، وابدأه بالرفق، فإنّ العلم يوحشه، والرفق يؤنسه.

والتصوّف مبني على ثمان خصال: (السخاء) لسيدنا إبراهيم عليه السلام. (والرضا) لإسحق عليه السلام (والصبر) لأيوب عليه السلام (والإشارة) لزكريا عليه السلام (والغربة) ليحيى عليه السلام (والتصوف) لموسى عليه السلام (والسياحة) لعيسى عليه السلام (والفقر) لسيدنا ونبينا محمد صلى الله عليه وعلى إخوانه من النبيين والمرسلين وآل كل وصحب كل وسلم أجمعين.

* * *

Marfat.com

المقالة السادسة والسبعون

في الوصيـــة

قال رضي الله عنه وأرضاه:

أوصيكَ أن تصحب الأغنياء بالتعــزّز، والفقــراء بالتـذلـل، وعليك بالتـذلـل والإخـلاص، وهـو دوام رؤية الخالق، ولا تتهم الله في الأسباب، واستكن إليه في جميع الأحوال، ولا تضع حق أخيك اتكالاً على ما بينك وبينه من المودة.

وعليك بصحبـة الفقـراء بالتـواضـع وحسن الأدب والسخـاء، وأمتْ نفسك حتى تحيي، أقربُ الخلق من الله تعالى أوسعهم خلقاً، وأفضلُ الأعمال رعاية السر عن الالتفات إلى ما سوى الله تعالى..

وعليك بالحق وبالصبر، وحسبك من الدنيا شيئان: صحبة فقير وخدمة ولي، والفقر هو الذي لا يستغني بشيء دون الله تعالى.

والصولة على من هو دونك ضعف، وعلى من هو فوقك فخر، وعلى من هو مثلك سوء خلق.

والفقر والتصوّف جدان فلا تخلطهما بشيء من الهزل، وفقنا الله وإيّاكم والمسلمين آمين.

يا ولي! عليك بذكــر الله في كل حال، فإنّـه للخـير جامـع، وعليك بالاعتصـام بحبـل الله، فإنّـه للمضـمار دافع، وعليك بالتأهب لتلقي موارد القضاء فإنّه واقع.

واعلم أنّـك مسؤول عن حركاتك وسكناتك، فاشتغل بما هو أولى في الوقت، وإيّاك وفضول تصرّفات الجوارح.

وعليك بطاعة الله ورسوله ومن والاه، وأدّ إليه حقه، ولا تطالبه بما يجب عليه، وادع في كل حال.

وعليك بحسن الظن في المسلمين، وإصلاح النية لهم، وتسعى بينهم في كل خير، وأن لا تبيت ولأحد في قلبك شر ولا شحناء ولا بغض، وأن تدعو لمن ظلمك، وراقب الله عزّ وجلّ.

وعليك بأكل الحلال، والسؤال لأهل العلم بالله فيما لا تعلم. وعليك بالحياء من الله سبحانه وتعالى.

واجعل صحبتك مع الله ، واصحب من سوى الله بصحبته، وتصدق في كل صباح بفرضك، وإذا أمسيتَ فصلِّ صلاة الجنازة على من مات من المسلمين في ذلك اليوم، وإذا صليتَ المغرب فصلاة الاستخارة وتقول بكرة وعشياً سبع مرات: «اللهم أجرنا من النار» وحافظ على قول: أعوذ بالله السميع العليم من الشيطان الرجيم ﴿هو الله الذي لا إله إلاّ هو عالم الغيب والشهادة هو الرحمن الرحيم﴾ إلى آخر سورة الحشر، والله الموفق المعين، إذ لا حول ولا قوة إلاّ بالله العلي العظيم.

* * *

Marfat.com

في الوقوف مع الله والفناء عن الخلق

قال رضي الله عنه وأرضاه:

كن مع الله عزّ وجلّ كان لا خلق، ومع الخلق كان لا نفس، فإذا كنت مع الله عزّ وجلّ بلا خلق وجدت، وعن الكل فنيت، وإذا كنت مع الخلق بلا نفس عدلت وبقيت، ومن التبعات سلمت، واترك الكل على باب خلوتك، وادخل وحدك تر مؤنسك في خلوتك بعين سرك، وتشاهد ما وراء العيان، وتزول النفس، ويأتي مكانها أمر الله وقربه، فإذن جهلك علم، وبعدك قرب، وصمتك ذكر، ووحشتك أنس.

يا هذا: ما ثَمّ إلاّ خلق وخالق، فإن اخترت الخالق فقل لهم: ﴿فإنهم عدوٌ لي إلاّ رب العالمين﴾ [الشعراء: ٧٧].

ثم قال رضي الله عنه وأرضاه:

من ذاق عرف، فقيل له: من غلبت عليه مرارة صفرته كيف يجد حلاوة الذوق؟ فقال: يتعمل في الشهوات من قبَله بقصد وتكلف.

يا هذا: المؤمن إذا عمل صالحاً انقلبت نفسه قلباً، وأدرك مدركات قلب، ثم انقلب قلبه سراً، ثم انقلب الفناء فصار وجوداً وبقاء.

ثم قال رضي الله عنه وأرضاه:

الأحباب يسعهم كل باب.

Marfat.com

يا هذا: الفناء إعدام الخلائق، وانقلاب طبعك عن طبع الملائكة، ثم الفناء عن طبع الملائكة. ثم لحوقك بالمنهاج الأوّل، وحينئذ يسقيك ربك ما يسقيك، ويزرع فيك ما يزرع.

إن أردت هذا فعليك بالإســـلام ثم الاستســـلام، ثم العلم بالله ثم المعرفة ثم الوجود، وإذا كان وجودك له كان كلك له.

الزهد عمل ساعة، والورع عمل ساعتين، والمعرفة عمل الأبد.

* * *

في أهل المجاهدة والمحاسبة وأولي العزم، وبيان خصالهم

قال رضي الله عنه وأرضاه:

لأهـل المجاهـدة والمحـاسبـة وأولي العزم عشر خصال جربوها، فإذا أقاموها وأحكموها بإذن الله تعالى وصلوا إلى الله والمنازل الشريفة:

الأولى: أن لا يحلف بالله عزّ وجلّ صادقاً ولا كاذباً، عامداً ولا ساهياً، لأنّه إذا أحكم ذلك من نفسه، وعود لسانه رفعه ذلك إلى ترك الحلف ساهياً وعـامداً، فإذا اعتاد ذلك فتح الله باباً من أنواره يعرف منفعة ذلك في قلبه، ورفعه في درجة وقوة في عزمه، وفي صبره، والثناء عند الإخوان، والكرامة عند الجيران، حتى يأتمّ به من يعرفه، ويهابه من يراه.

والثانية: يجتنب الكذب لا هازلاً ولا جاداً، لأنّه إذا فعل ذلك وأحكمه من نفسـه واعتـاده لسانه شرح الله تعالى به صدره، وصفاً به علمه، كأنّه لا يعرف الكذب، وإذا سمعه من غيره عاب ذلك عليه، وعيّره به في نفسه، وان دعا له بزوال ذلك كان له ثواب.

الثالثة: أن يحذر أن يَعِدَ أحداً شيئاً فيخلفه، ويقطع العِدَةَ البتة، فانّه أقوى لأمره، وأقصد بطريقه، لانّ الحلف من الكذب، فإذا فعل ذلك فتح له باب السخاء ودرجة الحياء، وأعطى مودة في الصادقين ورفعة عند الله جلّ ثناؤه.

الرابعة: أن يجتنب أن يلعن شيئاً من الخلق، أو يؤذي ذرة فما فوقها، لأنّها من أخـلاق الأبـرار والصديقين، وله عاقبة حسنة في حفظ الله تعالى في

Marfat.com

الدنيا مع ما يدخر له من الدرجات، ويستنقذه من مصارع الهلاك، ويسلمه من الخلق، ويرزقه رحمة العباد، ويقربه منه عزّ وجلّ.

الخامسة: أن يجتنب الدعاء على أحد من الخلق وإنْ ظلَمَهُ، فلا يقطعه بلسانه، ولا يكافئه بقول ولا فعل، فإن هذه الخصلة ترفع صاحبها إلى الدرجات العلى. وإذا تأدب بها ينال منزلة شريفة في الدنيا والآخرة، والمحبة والمودة في قلوب الخلق أجمعين من قريب وبعيد، وإجابة الدعوة والعلوة في الخلق، وعز في الدنيا في قلوب المؤمنين.

السادسة: أن لا يقطع الشهادة على أحد من أهل القبلة بشرك ولا كفر ولا نفاق، فإنّه أقرب للرحمة، وأعلى في الدرجة وهي تمام السنة، وأبعد عن الدخول في علم الله، وأبعد من مقت الله، وأقرب إلى رضاء الله تعالى ورحمته، فإنّه باب شريف كريم على الله تعالى يورث العبد الرحمة للخلق أجمعين.

السابعة: أن يجتنب النظر إلى المعاصي، ويكف عنها جوارحه، فإن ذلك من أسرع الأعمال ثواباً في القلب والجوارح في عاجل الدنيا، مع ما يدخره الله من خير الآخرة.

نسأل الله أن يمنّ علينا أجمعين، ويعلمنا بهذه الخصال، وأن يخرج شهواتنا عن قلوبنا.

الثامنة: يجتنب أن يجعل على أحد من الخلق منه مؤنة صغيرة ولا كبيرة، بل يرفع مؤنته عن الخلق أجمعين مما احتاج إليه واستغنى عنه، فإنّ ذلك تمام عزّة العابدين وشرف المتقين، وبه يقوى على الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ويكون الخلق عنده أجمعين بمنزلة واحدة، فإذا كان ذلك نقله الله إلى الغناء واليقين والثقة به عزّ وجلّ، ولا يرفع أحد سواه، ويكون الخلق عنده في الحق

Marfat.com

سواء، ويقطع بان هذه أسباب عزّ المؤمنين وشرف المتقين، وهو أقرب باب الإخلاص.

التاسعة: ينبغي له أن يقطع طمعه من الآدميين، ولا يطمّع نفسه بما في أيديهم، فإنّه العز الأكبر، والغنى الخاص، والملك العظيم، والفخر الجليل، واليقين الصافي، والتوكل الشافي الصريح وهو باب من أبواب الثقة بالله عزّ وجلّ، وهو باب من أبواب الزهد، وبه ينال الورع، ويكمل نسكه، وهو من علامات المنقطعين إلى الله عزّ وجلّ.

العاشرة: التواضع، لأنّ به يشيد محل العابد وتعلو منزلته، ويستكمل العز والرفعة عند الله سبحانه وعند الخلق، ويقدر على ما يريد من أمر الدنيا والآخرة، وهذه الخصلة أصل الخصال كلها وفرعها وكمالها، وبها يدرك العبد منازل الصالحين الراضين عن الله تعالى في السرّاء والضراء، وهي كمال التقوى.

والتواضع: هو أن لا يلقى العبد أحداً من الناس إلاّ رأى له الفضل عليه، ويقول: عسى أن يكون عند الله خيراً مني، وأرفع درجة، فإن كان صغيراً قال: هذا لم يعص الله تعالى وأنا قد عصيت، فلا شكّ أنّه خير مني، وإن كان كبيراً قال: هذا عَبَدَ الله قبلي، وإن كان عالماً قال: هذا أُعطيَ ما لم أبلغ، ونال ما لم أنل، وعلم ما جهلت، وهو يعمل بعلمه.

وإن كان جاهلاً، قال: هذا عصى الله بجهل وأنا عصيته بعلم، ولا أدري بم يختمُ لي، وبم يختم له.

وإن كان كافراً قال: لا أدري عسى أن يسلم فيختم له بخير العمل، وعسى [أن] أكفر فيختم لي بسوء العمل، وهذا باب الشفقة والوجل، وأولى ما يصحب وآخر ما يبقى على العباد.

Marfat.com

فإذا كان العبـد كذلـك سلّمـه الله تعالى من الغوائل، وبلغ به منازل النصيحـة لله عزّ وجـلّ، وكان من أصفياء الرحمن وأحبائه، وكان من أعداء إبليس عدو الله لعنه الله، وهو باب الرحمة، ومع ذلك يكون [قد] قطع باب الكبر وحبال العجب، ورفض درجة العلو في نفسه في الدين والدنيا والآخرة، وهـو مخ العبـادة، وغـاية شرف الـزاهدين، وسيما الناسكين، فلا شيء منه أفضل، ومع ذلك يقطع لسانه عن ذكر العالمين وما لا يعني، فلا يتم له عمل إلاّ به، ويخـرجُ الغلَّ والكِبْرَ والبغي من قلبه في جميع أحواله، وكان لسانه في السر والعـلانية واحـداً، ومشيتـه في السر والعلانية واحدة، وكلامه كذلك، والخلق عنده في النصيحة واحد، ولا يكون من الناصحين، وهو يذكر أحداً من خلق الله بسوء، أو يعيره بفعل، أو يحب أن يذكر عنده أحد بسوء. وهذه آفـة العـابـدين، وعـطب النسـاك، وهلاك الزاهدين إلاّ من أعانه الله تعالى وحفظ لسانه وقلبه برحمته وفضله وإحسانه.

* * *

الفهرس

تقديم ..... ا
ترجمة الإمام الرباني عبد القادر الجيلاني ..... د
ترجمة شيخ الإسلام ابن تيمية ..... هـ
مقدمة المؤلف ٣
مقدمة الشارح ٤
المقالة الأولى: فيما لا بد لكل مؤمن منه ٥
شرح كلام عبد القادر:
«لا بد لكل مؤمن من أمر يمتثله، ونهي يجتنبه، وقدر يرضى به» ٥
الحقيقة الشرعية ان يكون العبد مأموراً من الرب فيما يفعله او ان لا يكون ٧
السلوك سلوكان: سلوك الأبرار، وسلوك المقربين ٩
الحنيفية هي الاستقامة بإخلاص لدين الله ١١
الناس في الحب والإرادة أربعة أنواع ١٢
النوع الأول: الذين يحبون ما أحبه الله ورسوله ويبغضون ما أبغضه الله ورسوله .. ١٢
يأمر عبد القادر بالترجيح بالإلهام إذا لم يتبين الحكم الشرعي ١٤
بأي شيء يرجح المجتهد إذا تكافأت الأدلة ١٥
القلب المغمور بالتقوى إذا رجّح بإرادته فهو ترجيح شرعي ١٥
في قلب كل مؤمن واعظ ١٧
الشارع بين الأمور الكلية والمعينات ١٩
النوع الثاني: يتبعون هواهم لا أمر الله ٢٠
النوع الثالث: الذي يريد تارة إرادة الله وتارة إرادة يبغضها الله ٢٠
النوع الرابع: أن يخلو القلب عن الإرادتين ٢٠
الرضا بالقضاء ثلاثة أنواع:
رضا بالطاعات، رضا بالمصائب، ورضا بالكفر والفسوق والعصيان ٢٢

Marfat.com

فصل: طريق العلم لا بد فيه من العلم النبوي ٢٤
المقالة الثانية: في التواصي بالخير ٢٧
المقالة الثالثة: في الابتلاء ٢٨
المقالة الرابعة: في الموت المعنوي ٢٩
المقالة الخامسة: في بيان الدنيا والحث على عدم الالتفات إليها ٣٠
المقالة السادسة: في الفناء عن الخلق ٣١
من قول عبد القادر:
إفن عن الخلق بإذن الله، وعن هواك بأمره، وعن إرادتك بفعله ٣١
وقع نزاع بين الجنيد وطائفة من أصحابه في مقام الجمع والفرق ٣٦
احتجاج آدم وموسى ٤١
يرى بعض منحرفي الزهاد أن الجهاد نقص ٤٤
الزهد النافع والورع ٤٥
الذين زهدوا في الإرادات طائفتان ٤٦
السالك لا يريد مع إرادة الله عز وجل سواها ٤٨
المقالة السابعة: في إذهاب غمّ القلب ٥٠
المقالة الثامنة: في التقرب إلى الله ٥٣
المقالة التاسعة: في الكشف والمشاهدة ٥٥
المقالة العاشرة: في النفس وأحوالها
هجر المباح يكون إذا لم يكن مأموراً به ٥٧
ما كان محظوراً في الشرع يجب تركه ولا بد ٥٨
المقالة الحادية عشرة: في الشهوة ٦٠
المقالة الثانية عشرة: في النهي عن حب المال ٦١
المقالة الثالثة عشرة: في التسليم لأمر الله ٦٢
المقالة الرابعة عشرة: في اتباع أحوال القوم ٦٥
المقالة الخامسة عشرة: في الخوف والرجاء ٦٦
المقالة السادسة عشرة: في التوكل ومقاماته ٦٧
المقالة السابعة عشرة: في كيفية الوصول إلى الله بواسطة المرشد ٦٩

Marfat.com

المقالة الثامنة عشرة: في النهى عن الشكوى ٧١
لزوم الأمر والنهي لا بد منه في كل مقام ٧٣
الأبدال هم الذين لا يفعلون إلا بأمر الحق ولا يفعلون إلا به ٧٣
صاحب الحقيقة هو دون ذلك ٧٤
حال حق الحق ٧٥
انكر الكعبي المباح في الشريعة والرد عل شبهه ٧٦
الأمر بالشيء نهي عن ضده ٧٧
المباح إن تعين طريقاً صار واجباً معيناً وإلا كان واجباً مخيراً ٧٩
الشريعة قد بينت أحكام الأفعال كلها ٧٩
طائفة من الفلاسفة يظنون كمال النفس في مجرد العلم ٨٧
كمال النفس في العلم بالله مع محبته وعبادته والإنابة إليه ٨٨
طائفة ظنوا أن الكمال في القدرة والسلطان ٨٩
المقالة التاسعة عشرة: في الأمر بوفاء الوعد والنهي عن خلفه ٩١
المقالة العشرون: دع ما يريبك إلى ما لا يريبك ٩٣
المقالة الحادية والعشرون: في مكالمة إبليس عليه اللعنة ٩٥
المقالة الثانية والعشرون: في ابتلاء المؤمن على قدر إيمانه ٩٦
المقالة الثالثة والعشرون: في الرضا بما قسم الله تعالى ٩٨
المقالة الرابعة والعشرون: في الحث على ملازمة باب الله تعالى ١٠١
المقالة الخامسة والعشرون: في شجرة الإيمان ١٠٢
المقالة السادسة والعشرون: في النهي عن كشف البرقع عن الوجه ١٠٤
المقالة السابعة والعشرون: في أن الخير والشر ثمرتان ١٠٧
المقالة الثامنة والعشرون: في تفصيل أحوال المريد ١١٠
المقالة التاسعة والعشرون:
في قوله صلى الله عليه وسلم: «كاد الفقر أن يكون كفراً» ١١٢
المقالة الثلاثون: في النهي عن قول الرجل: أي شيء أعمل وما الحيلة ١١٣
المقالة الحادية والثلاثون: في البغض في الله ١١٤
المقالة الثانية والثلاثون: في عدم المشاركة في محبة الله ١١٥
المقالة الثالثة والثلاثون: في تقسيم الرجال إلى أربعة أقسام ١١٧

Marfat.com

المقالة الرابعة والثلاثون: في النهي عن السخط على الله تعالى ١١٩
المقالة الخامسة والثلاثون: في الورع ١٢٢
المقالة السادسة والثلاثون: في بيان الدنيا والآخرة، وما ينبغي أن يعمل فيهما .. ١٢٤
المقالة السابعة والثلاثون: في ذم الحسد والأمر بتركه ١٢٧
المقالة الثامنة والثلاثون: في الصدق والنصيحة ١٢٩
المقالة التاسعة والثلاثون: في تفسير الشقاق والوفاق والنفاق ١٢٩
المقالة الأربعون: متى يصح السالك أن يكون في زمرة الروحانيين ١٣٠
المقالة الحادية والأربعون: مثل في الغنى وكيفيته ١٣١
المقالة الثانية والأربعون: في بيان حالتي النفس ١٣٣
المقالة الثالثة والأربعون: في ذم السؤال من غير الله تعالى ١٣٥
المقالة الرابعة والأربعون: في سبب عدم استجابة دعاء العارف بالله تعالى ١٣٦
المقالة الخامسة والأربعون: في النعمة والابتلاء ١٣٧
المقالة السادسة والأربعون:
في قوله صلى الله عليه وسلم في الحديث القدسي «من شغله ذكري» إلى آخره. . ١٤١
المقالة السابعة والأربعون: في التقرب إلى الله تعالى ١٤٣
المقالة الثامنة والأربعون: فيما ينبغي للمؤمن أن يشتغل به ١٤٤
المقالة التاسعة والأربعون: في ذم النوم ١٤٥
المقالة الخمسون: علاج دفع العبد عن الله، وبيان كيفية التقرب منه تعالى ... ١٤٦
المقالة الحادية والخمسون: في الزهد ١٤٨
المقالة الثانية والخمسون: في سبب ابتلاء طائفة من المؤمنين ١٥٠
المقالة الثالثة والخمسون: في الأمر بطلب الرضى عن الله ١٥١
المقالة الرابعة والخمسون: فيمن أراد الوصول إلى الله تعالى ١٥٣
المقالة الخامسة والخمسون: في ترك الحظوظ ١٥٥
المقالة السادسة والخمسون: في فناء العبد عن الخلق ١٥٧
المقالة السابعة والخمسون: في عدم المنازعة في القدر ١٥٨
المقالة الثامنة والخمسون:
في صرف النظر عن كل الجهات وطلب جهة فضل الله تعالى ١٦٠

Marfat.com

المقالة التاسعة والخمسون: في الرضا على البلية، والشكر على النعمة ١٦١
المقالة الستون: في البداية والنهاية ١٦٤
المقالة الحادية والستون: في التوقف عند كل شيء حتى يتبين له إباحة ذلك ... ١٦٦
المقالة الثانية والستون: في المحبة والمحبوب وما يجب في حقهما ١٦٨
المقالة الثالثة والستون: في نوع من المعرفة ١٦٩
المقالة الرابعة والستون: في الموت الذي لا حياة فيه والحياة التي لا موت فيها .. ١٧٠
المقالة الخامسة والستون: في النهي عن التسخط على الله في تأخير إجابة الدعاء . ١٧١
المقالة السادسة والستون: في الأمر بالدعاء والنهي عن تركه ١٧٣
المقالة السابعة والستون: في جهاد النفس وتفصيل كيفية ١٧٥
المقالة الثامنة والستون: في قوله تعالى ﴿كل يوم هو في شأن﴾ ١٧٧
المقالة التاسعة والستون: في الأمر بطلب المغفرة والعصمة والتوفيق ١٧٩
المقالة السبعون: في الشكر والاعتراف بالتقصير ١٨١
المقالة الحادية والسبعون: في المريد والمراد ١٨٢
المقالة الثانية والسبعون: فيمن إذا دخل الأسواق ومال إلى ما فيها ١٨٤
المقالة الثالثة والسبعون: في قسم من الأولياء قد يطلعه الله على عيوب غيره ... ١٨٦
المقالة الرابعة والسبعون: فيما ينبغي للعاقل أن يستدل به على وحدانية الله ... ١٨٧
المقالة الخامسة والسبعون: في التصوف وعلى أي شيء مبناه ١٨٨
المقالة السادسة والسبعون: في الوصية ١٨٩
المقالة السابعة والسبعون: في الوقوف مع الله والفناء عن الخلق ١٩١
المقالة الثامنة والسبعون: في أهل المجاهدة والمحاسبة ١٩٣
الفهرس ١٩٧

من عقائد أهل السنة

تأليف

فضيلة الشيخ محمد عبد الحكيم شرف

مؤسسة الشرف
بلاهور باكستان

الشيخ أحمد رضا خان

البريلوي الهندي

شاعراً عربياً

تأليف

ممتاز أحمد سديدي الأزهري

ابن الشيخ محمد عبد الحكيم شرف القادري

مؤسسة الشرف
بلاهور باكستان

"إن من الشعر لحكمة وإن من البيان لسحرا"

الديوان العربي

بساتين الغفران

لصاحب فضيلة الإمام الأكبر المجدد إمام أهل السنة والجماعة

محمد أحمد رضا خان رحمه الله تعالى

١٢٧٢ هـ — ١٣٤٠ هـ

جمعه ورتبه وضبطه وحققه وقدم له وأردفه بملحق

الأستاذ الدكتور محمد أحمد عبد الرحيم المحجوب

شيخ الآداب والعربية بجامعة الأزهر الشريف القاهرة مصر

والأستاذ الزائر بجامعة ... الجامعة النظامية الرضوية لاهور باكستان

مؤسسة الشرف
بلاهور باكستان

طبعة مشتركة
أكاديمية رضا استانت بورت، بريطانية، ورضا دار الاشاعة لاهور
مجمع بحوث الإمام أحمد رضا، كراتشي باكستان

الزمزمة القمرية

في الذب عن الخمرية

تأليف

الإمام أحمد رضا خان

القادري البريلوي

تعريب

ممتاز أحمد سديدي

الباحث بالأزهر الشريف

مؤسسة الشرف
بلاهور باكستان